



تأليف
نللي حنا

ترجمة
مجدي جرجس

2805

يأتى هذا الكتاب فى إطار جهود المؤرخة المرموقة نللى حنا لطرح مناهج وأفق جديدة لدراسة تاريخ العصر العثمانى. هذه المرة، تطرح نللى حنا قضية كيفية فهم تاريخ مصر العثمانية فى إطار تاريخ العالم. فتتبعت ظواهر بعينها فى مصر العثمانية، وحاولت أن تربطها بأطر أوسع إقليمية أو عالمية. وتناولت ظاهرة الكتابات العامية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكيف أن هذه الظاهرة لم تكن قاصرة على مصر أو على إقليم بعينه، إنما ارتبطت بشكل عام بالتطور الذى شهدته التجارة العالمية، والتى كانت إحدى تجلياتها بروز مستوى معين من اللغة يتناسب مع معطيات جديدة. احتلت صناعة النسيج موقعاً هاماً فى هذا الكتاب، تتناسب مع مكانته فى تاريخ العالم فى الفترة موضع الدراسة، وبينت نللى حنا كيفية إسهام حرفيي النسيج فى مصر والدولة العثمانية فى تشكيل العالم الحديث، وكيف كانت خبراتهم وتقنياتهم هى الأساس الذى قامت عليه الصناعة الحديثة. وتختم هذا الكتاب بأروع فصوله، وهو كيفية كتابة التاريخ من أسفل، وتتبعت فيه دور الحرفى فى مقابلة دور العالم فى تشكيل المعارف الحديثة، وكيف أن صناعة العالم الحديث، بل وأوروبا الحديثة، تشكلت عبر مراكز وأقاليم متعددة فى العالم، وكيف أن خطاباً مهيمناً سطا على معارف البلدان غير الأوروبية ونسبها إلى أوروبا، وتعطى أمثلة واقعية من مناطق مختلفة على هذا الأمر.

مصر العثمانية والتحولات العالمية

١٥٠٠ – ١٨٠٠ م

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2805
- مصر العثمانية والتحولات العالمية ١٥٠٠- ١٨٠٠م
- نللى حنا
- مجدى جرجس
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:
Ottoman Egypt and the Emergence of the Modern World 1500- 1800
By: Nelly Hanna

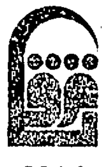
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

مصر العثمانية والتحولات العالمية

(١٥٠٠-١٨٠٠م)

تـألـيـف : نـللـى حـنـا

ترجمـة : مجـدى جـرجس



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

حنا، نللي.
مصر العثمانية والتحولات العالمية (١٥٠٠ - ١٨٠٠)
تأليف: نللي حنا ، ترجمة : مجدى جرجس
ط١، القاهرة ، المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٦
٢٢٨ ص، ٢٤ سم
١ - مصر - تاريخ - العصر العثمانى (١٥١٧-١٩١٤م)
(أ) جرجس، مجدى (مترجم)
(ب) العنوان ٩٥٣,٠٩٦٢

رقم الإيداع ١٦٩٢٢ / ٢٠١٥
الترقيم الدولى 8 - 0392 - 92 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

شكر وتقدير

بدأت فكرة هذا الكتاب بدعوة كريمة من الأستاذ الدكتور بابر يوهانسن Baber Johansen، المدير السابق لمركز دراسات الشرق الأوسط فى جامعة هارفارد، لإلقاء محاضرات "هاملتون جب" التذكارية فى أكتوبر ونوفمبر من عام ٢٠١٢م. ثم كان لوليم جرانارا William Granar، المدير الحالى للمركز، دور فى تشجيعى على طباعة هذه المحاضرات فى كتاب مستقل، ومن ثم أود أن أعبر عن خالص امتنانى لكليهما وللمركز.

ولكى تعد هذه المحاضرات للنشر فى شكل كتاب، تطلب الأمر إعادة العمل عليها، والقيام بمزيد من العمل البحثى، وإعادة النظر فى الطريقة التى قدمت بها المحاضرات الأصلية؛ ففى مرحلة الكتابة تكون الفرصة متاحة لمزيد من التفاصيل والمناقشات. وتطلب ذلك إدخال تعديلات جوهرية على المقالات، وإضافة أفكار جديدة؛ ومن ثم، طالت الفصول، وأضيفت مقدمة لتربط الموضوعات المختلفة عبر فصول هذا الكتاب فى نسق واحد، ولتشرح الأفكار المطروحة، وكيفية تطبيقها على الموضوعات المتناولة فى فصول الكتاب الثلاثة.

وأود أن أتقدم بالشكر أيضا إلى بيتر جران Peter Gran، حيث قدم اقتراحات مفيدة حول نص هذا الكتاب. وكذلك الشكر واجب لمديحة دوس، التى قدمت ملاحظات وتعليقات مهمة حول مسودة الفصل الثانى؛ وأشكر أيضا دانيال وودورد Daniel Woodward، طالب الدراسات العليا بقسم الحضارات العربية والإسلامية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، الذى لم يدخر جهدا فى العمليات الفنية التى تطلبها إخراج هذا النص إلى النور، علاوة على تعليقاته المهمة.

الفصل الأول

مصر في الفترة من ١٦٠٠ حتى ١٨٠٠م:

ما بين المحلية والعالمية

الروايات المختلفة حول تاريخ العالم الحديث

ساد منهج لوقت طويل بين الكتب المدرسية التى تناولت تاريخ العالم الحديث، على وصف القرون الثلاثة من عام ١٥٠٠ وحتى عام ١٨٠٠م على أنها فترة نشاط أسست لنشوء ما يسمى بالعالم الحديث. وركزت هذه الكتب على بعض التطورات العلمية والثقافية والاقتصادية التى شهدتها تلك القرون الثلاثة. وكان من أهم هذه التطورات: النهضة والإصلاح، التى دلت عليها الأسئلة العلمية والثقافية المطروحة آنذاك؛ التقدم التكنولوجى الذى مهد الطريق إلى الثورة الصناعية؛ الثورة العلمية التى حدثت بفضل اكتشافات كبار المفكرين من أمثال كوبرنيكس *Copernicus* (ت. ١٥٤٣م) والذى بحث قضية الأرض بوصفها مركزًا للكون وأثبت خطأها جاليليو *Galileo* (ت. ١٦٤٢م) وتليسكوبه الشهير، وفرنسيس بيكون *Bacon* (ت. ١٦٢٦م، ويطلق عليه أحيانا أبا المنهج التجريبى)، ونيوتن *Newton* (ت. ١٧٢٧م، وهو من أهم رموز الثورة العلمية)، ووليم هارفى *William Harvey* (ت. ١٦٤٧م، الطبيب الإنجليزى الشهير باكتشافاته حول الدورة الدموية).

من ناحية أخرى، وُصف هذا العصر بأنه عصر التمهيد للهيمنة الأوروبية على العالم. وما من شك بأن اختراع الطباعة، وانتشارها، سهل بشكل كبير من انتشار الأفكار. كما كان لإنشاء الشركات التجارية: شركة الهند الشرقية، وشركة الهند الشرقية الهولندية، دور فى فرض السيطرة الاستعمارية على مناطق واسعة من العالم.

واستمدت تلك الهيمنة قوتها من الاكتشافات العظيمة، ومن التوسع الأوروبي في العالم الجديد.

على أن الكثير من هذه التطورات حدثت بفضل نشوء نظم الدول المركزية في أوروبا، هذه الدول كانت هي الداعمة للشركات التجارية، والمشجعة للاكتشافات الفكرية والعلمية. فظهرت دول قوية، وحكام أقوياء مدعومون، في الغالب، بجيوش قوية في أجزاء مختلفة من أوروبا؛ مثل فيليب الثاني في إسبانيا (ت. ١٥٩٨م)، بطرس الأكبر في روسيا (ت. ١٧٢٥م)، لويس الرابع عشر في فرنسا (ت. ١٧١٥م). واعتمدت سياساتهم على منح مميزات للنخب، سواء كانوا مفكرين لهم أثر على الحياة الفكرية، أو أمراء وحكامًا على رأس هذه الحكومات الصاعدة[١].

استقرت هذه الرواية حول نشأة العالم الحديث، وصارت هي الطريقة المألوفة لفهم الفترة ما بين ١٥٠٠ و ١٨٠٠م. وبالطبع كان متنها وشروحاتها، إلى حد كبير، أوروبية المصدر. وإذا حللنا هذه الرواية سنكتشف أنها تهمل وتتجاهل معظم أنحاء العالم خارج أوروبا. وهذه الرؤية، حول المركزية الأوروبية، صيغت بوضوح منذ فترة بعيدة، وعلى سبيل المثال، يكتب المؤرخ البريطاني هوج تريفور-رابر *Hugh Trevor-Roper*، منذ حوالي أربعين عاما، فيقول: "إن تاريخ العالم في القرون الخمسة الماضية، بقدر ما له قيمة، هو تاريخ أوروبي. وأعتقد أننا لسنا بحاجة للاعتذار إذا كانت دراستنا للتاريخ تتمحور حول المركزية الأوروبية"[٢].

كان يُنظر إلى العالم غير الأوروبي على أنه خارج التاريخ بشكل ما، وبأنه كان في حالة ركود وخمول، حتى حانت لحظة تلاقيه مع الغرب. ولا يزال لهذا المنهج مكانته في الدوائر الأكاديمية، ولا يزال هو المهيمن على الكثير من هذا النوع من الدراسات؛ فعلى

---

(1) Frank W. Thackeray and John E. Findling, eds., Events that Formed the Modern World, vol. 1, From the European Renaissance through the Sixteenth Century (Santa Barbara: ABC-CLIO, 2012).

(٢) أوردها:

Jack Goody, The Theft of History (Cambridge: Cambridge University Press, 2008) 1.

سبيل المثال: تظهر رؤية مماثلة فى كتاب جديد ظهر عام ٢٠١١م كتبه ***Toby Huff*** طوبى هوف، وهو باحث ترجمت أعماله إلى عدة لغات(١).

ويمكن أن نتتبع جذور هذه الرؤى فى إنتاج القرن التاسع عشر؛ حيث يوجد كتاب تتباين مشاربهم الفكرية، ولكن يبدو أنهم قد اتفقوا فى طريقة فهمهم لتاريخ العالم غير الأوروبى. فيكتب مفكر مثل كارل ماركس فى منتصف القرن التاسع عشر، واصفا الصين بأنها: "إمبراطورية عملاقة... قابعة فى مكانها والزمن يدور من حولها، محاطة بسياج من الإقصاء الجبرى، يعزلها عن العالم المحيط بها، ولذلك فهى مستمرة فى خداع نفسها بوهم الكمال العلوى."(٢). ويتشابه رأى ماركس كثيرا مع النظرة الهيجلية، التى تعتبر أجزاء كثيرة من العالم غير الأوروبى- مثل الهند، إفريقيا، سيبيريا، ومناطق أخرى- "خارج التاريخ". وربما يكون أحد أسباب استمرار هذه الرؤى وصمودها حتى القرن الحادى والعشرين، هو المكانة السامية لهؤلاء المفكرين الكبار.

فى هذا الإطار، اعتُبرت تواريخ الأقاليم "الأخرى" من العالم، فيما قبل القرن التاسع عشر، على أنها تواريخ الانحدار. وعندما تُذكر الحضارات الكبرى فى سجل العالم الحديث أو ما قبل الحديث؛ مثل الحضارة الصينية، أو الإسلامية، أو الهندية، يرد ذكرها كأقاليم الانحطاط، والتى ينعدم لها أى دور فاعل فى التاريخ، أو مشارك فى صناعته. وفتح التاريخ صفحاته لهذه المناطق غير الأوروبية فى التاريخ، فقط عندما اتبعت النموذج الأوروبى. وهذا يعنى أن شرط دخول تاريخ العالم هو أن تصبح أوروبيا. وبعبارة أخرى، تاريخ العالم الحديث هو تاريخ الغرب، وتاريخ كيفية تعلم الشعوب الأخرى من الأوروبيين، أو تقليدهم للأوروبيين.

---

(1)Toby E. Huff, Intellectual Curiosity and the Scientific Revolution: A GlobalPerspective, (Cambridge: Cambridge University Press, 2011), 7-9.

(٢) وردت عبارة ماركس فى:

D.E. Mungello, The Great Encounter of China and the West 1500-1800 (Lanham, MD: Rowman and Littlefield, 2013), 3.

والمشترك فى هذه الدراسات والكتابات هو اتباعها منهج الانتشارية(*) ***Diffusion-ist approach***، وهذا المنهج يعتبر أن للثقافة مركزًا وحيدًا (أوروبا)، ومنه تنتقل إلى أقاليم أخرى، بدرجات متفاوتة من النجاح. وتعزز هذا المنهج مع تطور الإمبريالية، وبخاصة فى طورها فى القرن التاسع عشر. وفى إطار هذا المنهج كانت دراسة الدولة العثمانية تعنون بقرنين أو ثلاثة قرون من التخلف!

وتبعًا لهذا المنهج، كُتب تاريخ البلاد التى كانت مستعمرة، بطريقة توضح مدى التخلف والانحدار التى وصلت إليه قبل عصر الاستعمار الأوروبى مباشرة. واستمر هذا النهج فى الكتابة حتى عقود قليلة مضت.

فى هذا الإطار، ظلت كتابة تاريخ مصر، وبقية أقاليم الدولة العثمانية، تركز على الجوانب السلبية فى هذا العصر. والكثير من هذا النوع من الدراسات كان همه الأساسى إبراز الطبيعة المستبدة للحكم، وأحوال التدهور والفوضى التى حاقت بالمجتمع والاقتصاد والثقافة والتعليم. ومن ثم، صورت القرون الثلاثة السابقة على الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨م بأنها أقصى نقطة فى الانحدار شهدها تاريخ مصر على الإطلاق. كانت السلطنة المستبدة، أو قوة الدولة، هى الفاعل الرئيسى تاريخيا، والمهيمنة على النواحى كافة، ولم تترك للمجتمع أى مساحة للحراك، إلا قليلاً. وتبعًا لذلك صورت العملية التاريخية، عادة، على أنها عملية من فوق إلى أسفل. بعبارة أخرى، انصب الاهتمام على إبراز عدم قدرة المنطقة (الدولة العثمانية) على مواكبة التطورات العديدة التى شهدتها أوروبا فى ذلك الوقت، مثل النهضة والتنوير. فبينما شهدت أوروبا تطورا ثقافيا وسياسيا، ظل هذا الإقليم غارقا فى انحطاطه. ومن الصعوبة بمكان أن تجد لمصر أى حيز، أو وجود، فى التحولات الإقليمية والعالمية التى حدثت فى ذلك العصر. وعلى ذلك انتفى وجود أى دور فاعل فى تاريخ العالم.

(*) هو منهج نشأ وتطور فى علم الاجتماع لدراسة المجتمع والثقافة، يقوم هذا المنهج على اعتبار أن الثقافة لها مركز وحيد تنتشر منه إلى بقية أنحاء العالم، أو المجتمع. (المترجم)

الخطوط العامة لهذا المنهج فى دراسة تاريخ مصر، تكررت فى الكتابات التاريخية حول معظم البلاد التى خضعت للاستعمار. فعلى سبيل المثال، كُتبت تواريخ الهند وإيران، فى بداية القرن العشرين، بواسطة رجال الإدارة الاستعمارية؛ مثل هنرى دودويل *Henry Dodwell* (ت ١٩٤٦)، أو بواسطة عسكريين مثل بيرسى سايكس *Percy Sykes* (ت ١٩٤٥م)، وهو أيضا دبلوماسى وباحث، وكان تركيزهم منصبا على إبراز الجوانب السلبية فى هذه المجتمعات، والتى سرعان ما تغيرت إلى إيجابيات تحت حكم الإدارات الاستعمارية. وتسير هذه الكتابات على نهج فكرى واحد، وتستخدم لغة واحدة عند الإشارة إلى الدولة العثمانية، أو الهند، أو إيران، أو جنوب شرق آسيا، أو الصين. وغالبا ما تتردد مصطلحات بعينها، من عينة "التخلف"، "الركود"، "الانحطاط" مقارنة بأوروبا. وعلى سبيل المثال، وصفت الهند فى القرن الثامن عشر بأنها موطن الفوضى والهمجية.

أما حكومات الاستعمار، فوصفت بأنها حكومات تنويرية، لها إنجازات راسخة فى مجالات عديدة، من بينها الطب والتعليم، وأنها أدخلت الحداثة إلى بلدان "متخلفة". كان المبرر الرئيسى للإدارة الاستعمارية، أنها صاحبة رسالة تحضر، وأنها جلبت التنوير وأدخلت نظم التعليم الحديثة لشعوب بدائية، مثل الشعوب الإفريقية، وشعوب متخلفة، مثل مصر أو بلاد الرافدين. تلك الشعوب التى عرفت حضارات عظيمة فى الماضى، ثم توارت وسقطت فى هوة الانحطاط. وجاء الاستعمار لينتشل هذه المجتمعات من ظلمات الاستبداد إلى التنوير وإعمال القانون(١).

---

(1) Michael Adas, "Contested Hegemony: The Great War and the Afro-Asian Assault on the Civilizing Mission Ideology," Journal of World History 15, no. 1 (March 2004): 31-63; Mathew Burrows, "Mission Civilisatrice: French Cultural Policy in the Middle East, 1860-1914, "The Historical Journal 29, no. 1 (1986): 109-35; Michael Mann, "Torch Bearers upon the Path of Progress,' Britain's Ideology of aMoral and Material Progress in India: An Introductory Essay," In:Colonialism as a Civilizing Mission: Cultural Ideology in British India, ed. Harald Fischer-Tine and Michael Mann (London: Anthem Press, 2004), 4-10.

عمدت تلك الكتابات، إلى وضع نقطة فاصلة تقطع الصلة ما بين هذه الفترة وبين العصر الذى يليها، وهو القرن التاسع عشر وبداية العصر الحديث. كان التدخل الأوروبى هو اللحظة الفارقة بين المجتمع التقليدى الراكد، وبين الدخول إلى العالم الحديث. وتركز هذه الرؤى على إبراز عدم مقدرة تلك الأقاليم على التحديث أو مواجهة التغيرات التى أحدثها العالم الحديث؛ فالمجتمعات التقليدية لم تكن قادرة على الابتكار، كانوا معزولين عن التطورات التى تحدث فى العالم، ومن ثم، لم يكن بمقدورهم الاستفادة من الأفكار الجديدة والتكنولوجيا الجديدة، وبالطبع لم يكن لهم أى إسهام فيها. من ناحية أخرى، أنكرت تلك الدراسات على هذه الأقاليم قدرتها على بناء حداثتها، أو حتى الإسهام فى بنائها؛ بمعنى أن هذه الكتابات استبعدت تماما إمكانية أى دور لهذه الأقاليم فى بناء العالم الحديث. وبناء على ذلك، صوُّر تاريخ العالم الحديث بأكمله على أنه صناعة أوروبية، على أرض أوروبية. ومن أوروبا انتقلت معالم التاريخ الحديث إلى الأقاليم التى كان للأوروبيين تأثير فيها.

والواقع أن هذه الكتابات قد أخفقت فى عرض الحقائق التاريخية لتلك البلدان؛ فلا يوجد بالكاد أى شىء مكتوب عن المجتمع، أو عن كيفية تسيير الناس لأمور حياتهم، أو عن الاقتصاديات، وكيفية تدبير الناس لمعيشتهم. ولكن تعكس هذه الكتابات بالأساس طرق تعامل القوى الاستعمارية، فى القرن التاسع عشر، مع البلاد المستَعمرة، أو تلك التى تنامى النفوذ الأوروبى فيها. مثل هذه الكتابات التاريخية كانت متسقة مع خطاب القوة المصاحب للاستعمار، أو التغلغل الأوروبى فى هذه البلدان. وهذا بدوره يفسر التشابه، بل والتطابق اللفظى المستخدم، فى وصف مناطق متباينة ومختلفة، مثل الهند وإيران والدولة العثمانية. على الرغم من أن هذه الإمبراطوريات الكبرى الثلاث، تمتلك تنوعا كبيرا فى السكان، ونشاطًا إنتاجيا ضخمًا، وتجارة كبيرة امتدت عبر مناطق كثيرة فى العالم؛ فإن هذه الروايات لا تضع أى احتمال لقيام هذه الإمبراطوريات بدور ما فى عمليات التحول فى الفترة من ١٥٠٠ وحتى ١٨٠٠م. وعزز من صورة الانحطاط التى رسمتها هذه السرديات، عدم وجود علماء كبار، أو مفكرين، أو أسماء لامعة معروفة، أو أشخاص لهم أفعال مشهورة.

والواقع أن الحديث عن الأوروبيين بوصفهم دائما الفاعلين، وغير الأوربيين بوصفهم المستقبلين، إنما يشوه حقيقة معقدة وشائكة، وغير معروفة بشكل دقيق. وما اعتبر أوروبيا وحديثًا هو فى حقيقة الأمر أكثر تعقيدا. وبمجرد أن بدأت ملامح الثورة الصناعية تتشكل فى القرن التاسع عشر، مع سيطرة القوى الاستعمارية على معظم بلدان العالم الثالث، انتقلت على الفور كثير من الاختراعات والابتكارات التكنولوجية من أوروبا إلى أقاليم خارجها. حدث ذلك فى كثير من المجالات، منها على سبيل المثال، مجال الاتصالات، والسفن البخارية، والسكك الحديدية، والتلغراف؛ فى مجال العلم والتكنولوجيا، وكذلك فى مجال الطب. وكان لانتقال هذه المبتكرات خارج أوروبا أهمية كبيرة. وعلى الرغم من ذلك، فإن الحديث عن وجود تخلف فى بدايات العصر الحديث يشوه حقائق هذا العصر.

ظلت رواية التخلف هذه هى المهيمنة على مجالات الكتابة المختلفة، حتى تصدت دراسات أكاديمية حديثة لهذا الطرح، وقدمت صورة مغايرة تماما عن هذا العصر، وبينت أنه عصر تميز بحراك هائل خارج أوروبا، وشهد توسعا ملحوظا فى التجارة والإنتاج، وتوظيف الأموال(١).

بدائل مناهج المركزية الأوروبية لدراسة تاريخ العالم الحديث

يعكف حاليا عدد من المؤرخين على مراجعة جدية لهذه الأفكار، وأنتجوا أعمالاً مهمة غيرت فى طريقة تفكيرنا حول هذه الفترة ككل. ومن ثم، بدأت تلك المسلمات القديمة تتهاوى بشكل تدريجى. وعلى سبيل المثال، تُظهر الدراسات الحديثة حول مصر العثمانية، بما فيها أعمالى، صورة مغايرة لتلك التى رسمتها الدراسات حول سلطان

(1) Prasannan Parthasarathi, The Transition to a Colonial Economy: Weavers, Merchants, and Kings in South India, 1720-1800 (Cambridge: Cambridge University Press. 2001). 3.

مستبد، وحكام مماليك فاسدين، ومجتمع غارق فى ركوده. على العكس من ذلك، ترصد هذه الدراسات الحديثة مجتمعًا مفعمًا بالحيوية، مبدعًا، يتكيف بشكل فعال مع الأزمات والإنجازات. والآن أصبح لدينا إنتاج علمى مهم حول مصر فى الفترة ما بين القرن السادس عشر والثامن عشر، كتب بالعربية، والإنجليزية والفرنسية. فمن الباحثين الأوروبيين الذين أسهموا فى هذا المجال، أندريه ريمون *Andre Raymond* ودراساته عن التجار والحرفيين؛ نيقولا ميشيل *Nicolas Michel* ودراساته عن الفلاحين والسياق الريفى: ميشيل توشيرار *Michel Tuscherer* ودراساته حول تجارة البحر الأحمر. ومن الباحثين المصريين مجدى جرجس ودراساته عن القبط؛ وحسام عبد المعطى ودراساته حول النسيج والتجارة والإنتاج؛ وناصر إبراهيم ودراساته حول العلاقات بين المماليك إبان الحملة الفرنسية؛ وآخرين غيرهم. تخطت هذه الدراسات الكتابات السابقة عليها، والتى كانت تتحدث حول قبضة الدولة الحديدية، وبينت صورة مختلفة للمجتمع الحضرى والريفى، ونمط الاقتصاد فى كليهما. فرأينا مجتمعًا نشطًا، واقتصادًا فعالاً. وعلى المستوى العالمى، غيرت هذه الدراسات من طريقة نظرنا إلى العصر العثمانى، وقدمت براهين ضد الرؤى الاستشراقية السابقة، ودحضت مبادئها الرئيسية.

وعلى مستوى أوسع، أسهم الباحثون المشتغلون بتاريخ العالم فى هذا الجدال؛ ولقد حاولوا أن يكتبوا تواريخ تأخذ فى اعتبارها أيضا، الرؤى غير الأوروبية لهذا التاريخ، ومن ثم إثراء دراسة تاريخ العالم وتعميقها. هذه الأعمال يمكن أن تساعدنا على فهم التواريخ المحلية بطريقة مختلفة (تاريخ مصر، على سبيل المثال). كان من بين هذه التوجهات، اتجاه للتعريف ببعض السمات العريضة للعصر، ولوصف عصر التغيير هذا الذى مس أجزاء عدة من العالم، دون أن يكون بالضرورة نابعًا من مصدر وحيد. ركزت مثل هذه الأعمال على الممرات البحرية العالمية التى ربطت أجزاء مختلفة من العالم، وعلى بروز سوق عالمية، وكذلك ظهور كيانات سياسية كبيرة[١].

---

(1) John F. Richards, "Early Modern India and World History," Journal of World History 8, no. 2 (Fall 1997): 197-209.

اتجاه آخر يتبناه عدد من الباحثين لمناقشة الفكرة القائلة بأن العالم الحديث كان إنجازًا أوروبى المصدر فقط. هذه الكتابات المهمة اقترحت طرقا بديلة لكتابة تاريخ العالم الحديث، بدلاً من تلك الطرق التى اعتبرت أوروبا والغرب مركز التطور والتنوير والرأسمالية. هناك العديد من الدراسات حول الهند، وآسيا، والصين، وجنوب شرق آسيا، أعادت مراجعة تلك الكتابات التاريخية حول الأقاليم غير الأوروبية، والتى صورت أوروبا كنموذج يُحتذى، ونجحت هذه الدراسات فى مراجعة هذه الثوابت التى سيطرت على البحث العلمى لوقت طويل.

رفضت هذه الدراسات اعتبار المناطق غير الأوروبية أماكن دون تاريخ، كمناطق معزولة عصية على التغيير الجارى حولها، أو اعتبارها مناطق راكدة فى طور الانهيار، ثم صحت من غفوتها على وقع الاستعمار، وأتيحت لها الفرصة أن تحتك بالثقافة والتكنولوجيا الأوروبية، وتنهل منهما. هذه الدراسات التاريخية الحديثة عارضت فكرة أن الخبرات الأوروبية كانت هى المعيار الذى سار عليه الآخرون؛ ودحضت أيضًا فكرة أن أوروبا هى المركز الذى انتقلت منه المعرفة إلى بقية أجزاء العالم.

لقد اتخذت هذه الدراسات مناهج نظرية وإمبريقية مختلفة لتناول هذا الموضوع. فمنظر مثل بيتر جران *Peter Gran*، ينقض رؤى المركزية الأوروبية، من خلال استعراضه للمجتمعات الأوروبية وكشف حقيقة أنها مجتمعات مماثلة لأى مجتمعات أخرى، ولا توجد اختلافات جوهرية تميزها عن غيرها. كما أن المقارنة بين المجتمعات الأوروبية وغيرها يمكن أن تكون من خلال دراسة السبل المختلفة التى اتخذتها هذه المجتمعات لدخول العالم الحديث. أو بعبارة أخرى: إن تلك المجتمعات وصلت إلى القرن العشرين أو الحادى والعشرين عبر قنوات وطرق، غير تلك التى اختطتها لنفسها المجتمعات الأوروبية(١).

---

(1) Peter Gran, Beyond Eurocentrism: *A New View of World History* (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 1996), 2-7.

هناك منظرون آخرون نقضوا فكرة المركزية الأوروبية، منهم على سبيل المثال سمير أمين. رفض سمير أمين أيضًا فكرة أن أوروبا كانت مجتمعًا متحركًا فاعلاً فى مقابلة الشرق الراكد. وأنه لا يمكن اعتبار الرأسمالية ظاهرة أوروبية فريدة؛ ففى المقابل عرفت الهند والصين والشرق الإسلامى وحوض البحر المتوسط أشكالاً مختلفة من الرأسمالية المبكرة ***protocapitalism*** (١) كانت جديرة بالتطور إلى الرأسمالية المعروفة. بمعنى أن الرأسمالية كانت ظاهرة عالمية، وليست قصرا على أوروبا. بالرغم من أن تطور الرأسمالية أفضى إلى تشكل مركز متطور وأطراف متخلفة، وتسارع وتيرة عدم المساواة بين المركز والأطراف؛ فإن سمير أمين يرى أن المناطق الخارجة عن أوروبا لم تكن فى مرحلة أقل تطورا من أوروبا نحو الحداثة، بل كانت جزءًا من هذه الحداثة، ولكنه نمط من الحداثة يختلف عن النمط الأوروبى(٢) نقض باحث آخر، بلوت ***J.M. Blaut***، فكرة الانتشارية من مركز وحيد ***diffusionism***، رافضًا فكرة وجود ثقافة وحيدة، تلك التى تشكلت فى أوروبا، ومنها انتشرت إلى مناطق أخرى فى العالم(٣).

على جانب آخر، أوضح المؤرخون بشكل جلى أن الهند وجنوب شرق آسيا لم يكونا مغيبين خلال تلك الفترة الانتقالية، بل على العكس، كان لتجارة المنطقتين دور كبير فى الاقتصاد العالمى. ومن ثم يمكن القول: إن الادعاء بأن العالم غير الأوروبى كان مستقبلاً لتلك الثقافة، ولم يكن له أى دور فى تشكيلها، أعيد مناقشته، ويتم دحضه بطرق عدة.

---

(١) يعنى بمصطلح protocapitalism نظم التجارة المبكرة التى نشأت على أساسها الرأسمالية المعروفة حاليا. وتعنى المؤلفة بهذا المصطلح "أشكالاً من الرأسمالية ليست بالضرورة هى الرأسمالية الأوروبية المعروفة".

(2) Samir Amin, *Global History: A View from the South* (Cape Town: Pambazuka Press, 2011), 6-7; "Colonialism and the Rise of Capitalism: A Comment," Science & Society 54, no. 1 (Spring 1990): 67-72.

(3) J.M. Blaut, "Diffusionism: A Uniformitarian Critique," *Annals of the Association of American Geographers* 77, no. 1 (March 1987): 30-47.

لقد أعادت المناهج الحديثة المتطورة لتلك المناطق المنسية من العالم قيمتها، وأدمجتها ضمن حركة التحولات الكبرى التى شهدتها الفترة ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر. وهناك تزايد فى الدراسات المخصصة لدراسة شعوب وحضارات أسقطت عمدا خارج الرواية التاريخية: مثل سكان أمريكا الأصليين، أو الحضارات غير الأوروبية، مثل الحضارات العديدة فى الهند، والصين واليابان؛ وتحاول هذه الأعمال، بطرق مختلفة، أن تدمج تلك الشعوب والحضارات فى تاريخ العالم، كما تهدف إلى التعريف بمناطق "مركزية" أخرى غير تلك الموجودة فى أوروبا. نذكر من هذه الأعمال: إيريك ولف: أوروبا والشعوب التى ليس لها تاريخ ***Eric Wolf, Europe and the People without History***؛ جاك جودى: سرقة التاريخ ***Jack Goody,The Theft of History***؛ أندريه جوندر فرانك: الاقتصاد العالمى فى العصر الآسيوى ***Andre Gunder Frank, ReOrient: Global Economy in the Asian Age***[1].

هذه الدراسات تلاقت، وتدعمت أكثر، مع حجج وأعمال الباحثين الذين لا يقبلون بمقولة أن الحداثة هى سمة أوروبية تميزها عن مجتمعات تقليدية أخرى، وأن أوروبا فقط هى المؤهلة لنشوء الحداثة ونشرها فى أرجاء العالم[2] بينما بين باحثون آخرون أن العديد من سمات العالم الحديث يمكن تتبع جذورها خارج أوروبا، ولا يمكن فهم تاريخ العالم الحديث إذا استبعدنا هذه المناطق خارج الصورة. فعلى سبيل المثال، تمكن أحد الباحثين، كريستوفر بايلى ***Christopher Bayly***، من تغيير طريقة قراءة تاريخ الثورة الصناعية فى إنجلترا، تلك القراءة التى استقرت لعقود طويلة، إذ وجد أن شرارة الثورة الصناعية فى إنجلترا انطلقت على إثر المنافسة مع المنسوجات الهندية

---

(1) Eric Wolf, Europe and the People without History (Berkeley: University of California Press, 2010); Goody, The Theft of History; Andre Gunder Frank, ReOrient: Global Economy in the Asian Age (Berkeley: University of California Press, 1998).

(2) David Washbrook, "From Comparative Sociology to Global History: Britain and India in the Pre-History of Modernity," Journal of the Economic and Social History of the Orient 40, no. 4 (1997): 410-43.

التى كانت منتشرة عبر أرجاء واسعة من العالم[١]. نقض آخر لتلك الرواية جاء من إيريك ويليامز Eric Williams، رئيس وزراء ترينيداد وتوباجو السابق، ومن أوائل الذين كتبوا فى هذا الموضوع. يناقش ويليامز، مثلما فعل بايلى، فكرة أن الثورة الصناعية كانت ظاهرة بريطانية خالصة، ويحتج بأن إنتاج السكر فى الكاريبى فى القرن السابع عشر، لم يكن يمد التصنيع البريطانى بحاجته فقط، بل أسهم فى تطوير طرق حديثة للإنتاج الصناعى. فمثلاً، يتحدث عن طرق زراعة السكر فى الكاريبى ووسائله، فيقول: إن العدد الكبير من العمال فى مكان واحد، وما تتطلبه من وضع ضوابط صارمة لتنظيم العمل، وتقسيمه إلى وحدات أصغر، كانت هى أصول العمل وقواعده فى الكاريبى وليس فى مانشستر، ولكنها لاحقا طبقت فى عمليات التصنيع[٢] لقد بينت دراسات ويليامز أثر الأطراف على المركز، عن طريق وصف خبرات الكاريبى بأنها كانت سابقة على الثورة الصناعية فى بريطانيا، وأنها كانت هى الأساس الذى سارت عليه لاحقًا. لقد استطاعت مثل هذه المراجعات أن تهز ثوابت راسخة فى الرواية التقليدية لتاريخ العالم.

والواقع أن أثر هذه المبادرات ظهر جليا فى الطفرة الكبيرة التى شهدتها الدراسات التاريخية لبعض المناطق التى كانت مستعمرة، وفى التغيير الجذرى فى طريقة كتابة تواريخ هذه المناطق.

ومع كل ذلك، وعلى الرغم من أن الاهتمام الواسع بمواجهة فكرة المركزية الأوروبية قد أفضى إلى اقتراح طرق بديلة لكتابة التاريخ، فإن بعض المناطق مازالت

---

(1) Christopher A. Bayly, The Birth of the Modern World, 1780-1914 (Oxford: Blackwell, 2004) 471.

(2) Eric Williams, Capitalism and Slavery (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1944); Timothy Mitchell, "The State of Modernity," in Questions of Modernity, ed. Timothy Mitchell (Toronto: University of Toronto Press, 1994), 2-3; Giancarlo Casale, The Ottoman Age of Exploration (New York: Oxford University Press, 2010).

خارج دائرة الاهتمام المناسب. فالعديد من الدراسات فى هذا المجال لا تذكر إلا القليل عن مصر، أو العالم العربى، أو الدولة العثمانية. بالطبع هناك أعمال تناولت الدولة العثمانية؛ منها أعمال ثريا فاروقى *Suraiya Faroqhi* ودانيال جوفمان *Daniel Goffman* اللذين كتبا دراسات مهمة حول العلاقات الوطيدة والمعقدة بين الدولة العثمانية أوروبا. أو الكتاب الجديد لجينكارلو كاسال *Giancarlo Casale* حول مشاركة العثمانيين فى عصر الاستكشافات الجغرافية، واستعرض فيه الخصائص المشتركة بين الاستكشافات الأوروبية ونظائرها العثمانية. وعلى الرغم من أهمية هذه الدراسات، فإنها لازالت فى حاجة إلى الكثير من العمل الجاد، حتى يوضع هذا الجزء من العالم ضمن التطورات التاريخية العالمية التى حدثت فى ذلك العصر(١) وأعتقد أنه قد حان الوقت لنحدد موضع هذه المناطق فى ضوء التطورات التى شهدها هذا المجال البحثى. لقد حان الوقت لكى ينال هذا الأمر اهتمام حقل الدراسات العربية، وأن يتغلب، ولو قليلاً، على هيمنة التراث الاستشراقى الذى سيطر على هذا الحقل لفترة طويلة. إن ما تم إنجازه فى حقول الدراسات غير الغربية لمدة عقد من الزمان أو يزيد، يمكن الآن تحقيقه بالنسبة لمصر.

المراجعات الجارية بشأن النظرية التقليدية حول تاريخ العالم، تستند، إلى حد كبير، على افتراض بأن تشكل تاريخ العالم الحديث كان جزءا من عمليات معقدة، وأن العالم اليوم أصبح أكثر تعقيدا حتى ينسب إلى إقليم وحيد بعينه (أوروبا)، أو أنه من إنجاز حفنة من الرجال العظام. وهذا يعنى أننا بحاجة إلى "إعادة النظر فى فكرة مركزية تاريخ العالم"، وأن ننظر إليه على أنه تطور فى مناطق عديدة من العالم، بدلا من اعتباره تاريخا لأوروبا ولمشروعاتها الاستعمارية، أو، حسبما صاغها بايلى *Bayly* :

---

(1) Suraiya Faroqhi, The Ottoman Empire and the World around It (London: I.B. Tauris, 2004); Daniel Goffman, The Ottoman Empire and Early Modern Europe (Cambridge: Cambridge University Press, 2002); Casale, The Ottoman Age of Exploration (New York: Oxford University Press, 2010).

فهم الأصول المتعددة والمتشابكة للتغير العالمى. لقد برهن بايلى، وغيره من الباحثين، على أن العولمة المعاصرة المبكرة كانت متعددة المراكز، وأن "توسع أوروبا" كان أحد النماذج العديدة للعولمة. وحتى فى وقت لاحق، عندما بسطت الأمم الأوروبية سيطرتها على أجزاء واسعة من العالم، لم تكن كل التغيرات المهمة أوروبية المنبع، ولكن تحت سطح هذه الهيمنة، استمر العالم فعليًا متعدد المراكز[1].

علينا أن نحاول النظر إلى البلاد غير الأوروبية فى إطار سياقها الخاص، بدلا من دراستها فى إطار مفاهيم التخلف التى وصمت بها فى القرن التاسع عشر. ومن ثم، فدراسة منطقة مهمة، مثل الدولة العثمانية بشكل عام، أو مصر بوجه خاص، قد تساعد على رسم صورة أكثر وضوحا لكيفية تأثير التطورات التى شهدتها الفترة من ١٥٠٠ وحتى ١٨٠٠م على العصر اللاحق لها. علينا أن نعيد النظر فيما كتب حول هذه الدولة، وحول علاقتها بالسياق الإقليمى والعالمى الأوسع.

مصر فى ضوء التحولات العالمية ١٥٠٠- ١٨٠٠م

تهدف فصول هذا الكتاب إلى دراسة دور مصر فى التحولات التى شهدتها الفترة ما بين ١٥٠٠م و ١٨٠٠م، وكذلك دورها فى التطورات اللاحقة التى شهدها القرن التاسع عشر. وتنطلق فصول هذا الكتاب من فرضية إسهام مصر، شأنها شأن مناطق كثيرة خارج أوروبا، فى تشكيل العالم الحديث، على عكس ما تدعيه فرضية تقليدية بأن مصر كانت خارج تاريخ العالم قبل عام ١٨٠٠م، وظلت بلدا معزولا، بمنأى عن التأثر بالقوى الاجتماعية الأوسع، حتى حانت لحظة احتكاكه بالحداثة الأوروبية. ويتناول الكتاب بالتحليل بعض من هذه المجالات التى ارتبطت فيها التطورات التى شهدتها مصر بالتطورات الأوسع التى شهدها هذا العصر. ومن ثم يمكن أن نربط ما بين الظروف المحلية والظروف العالمية.

(1) Bayly, The Birth of the Modern World, 42, 470-72; Romain Bertrand, Histoire à parts égales: Récits d'une rencontre Orient-Occident (XVIe-XVIIesiècle) (Paris: Editions du Seuil, 2011), 12.

ومن ثم يجب علينا أن نتنقل ما بين التركيز على ظروف بعينها شهدتها مصر، وظروف أوسع وأكثر عمومية وهى التحولات العالمية. والواقع أن حقل تاريخ العالم يتميز بطبيعة خاصة تجعله ينحو، غالبًا، نحو التركيز على المستوى الأعم الأوسع. فى حين أن هذه الدراسة تنطلق من المستوى الأضيق للظروف المحلية، ومنها إلى المستوى الأوسع للظروف العالمية. سيكون ذلك من خلال كتابة ما يمكن تسميته "تاريخ العالم من أسفل"، تاريخ يبين كيف أن مجتمعًا ما، فى الغالب شعبًا ما، عادة مجهولين، استجاب لتلك الظروف العالمية، وكيف تأثروا بها، وربما أسهموا فى تشكيلها.

نحن الآن بحاجة إلى إعادة النظر فى هذه الموضوعات. ومن ثم، يجب دراستها فى ضوء الاتجاهات الرئيسية للفترة من ١٥٠٠ وحتى ١٨٠٠م، تلك الفترة التى شهدت توسعا كبيرا فى التجارة، ومن ثم كيف نحدد موقع مصر فى إطار هذه التغيرات. لقد شهدت مناطق عدة من العالم تحولات مهمة، كان أحد أسبابها نمو التجارة العالمية، نتيجة لتطور الطرق البحرية التى ربطت ما بين مناطق متباعدة من العالم، وسهلت الاتصال فيما بينها، ومن ثم تضاعف حجم التجارة وازدادت كمية البضائع المتداولة عبر العالم. ونمو الأسواق وازدياد حجم الطلب على البضائع الاستهلاكية، تبعه بالضرورة زيادة فى إنتاجها. كذلك اندمجت المناطق البعيدة فى تلك الدوائر التجارية، بما فيها أمريكا التى أصبحت، للمرة الأولى، جزءًا من تلك الدوائر التجارية. لقد تميزت تلك الفترة، بأنها فترة تبادل كثيف على مستويات عدة، تخطت المستوى التجارى إلى مستوى التبادل الثقافى؛ إذ تبودلت تقنيات مختلفة بين الأقاليم، وانتقلت موضات من إقليم إلى آخر وبالعكس.

على أن دراسة موضع مصر فى منظومة تاريخ العالم، وأثره فى التطورات اللاحقة، لايزال موضوعا غير مطروق بما فيه الكفاية، ومتأخرًا كثيرا عن غيره من الموضوعات. فعلى سبيل المثال، ظل الباحثون يرددون لفترة طويلة، كيف تأثرت مصر باكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح فى القرن الخامس عشر، واستوطانهم فى الهند، ومن ثم تحولت طرق تجارة التوابل بين الهند وأوروبا إلى

الطريق الجديد بدلا من العبور عن طريق مصر، مما أثر على تجارة الترانزيت بالبحر الأحمر، وسبب ذلك فى تدهور الاقتصاد المصرى. ولكن أثبتت دراسات أندريه ريمون أن تجارة البن أصبحت القوام الرئيسى لتجارة البحر الأحمر، وحلت محل تجارة البهارات التى كانت متصدرة فى الفترة السابقة[١].

وعلى الرغم من أن القليلين يدعمون هذه الفكرة، فإنها استبدلت بأفكار أخرى سلبية عن هذا العصر. منها تحليلات أخرى تشرح كيفية تدهور وضع مصر الاقتصادى خلال تلك الفترة، من خلال الإشارة إلى التدهور الذى لحق عامة بمنطقة جنوب حوض البحر المتوسط، بدءًا من القرن السادس عشر. ويعتمد هذا التحليل بشكل رئيسى على أن هذه المنطقة عانت بشدة، نتيجة للتطور الاقتصادى الملحوظ الذى حققه شمال أوروبا؛ فعلى سبيل المثال، التطور الاقتصادى الذى حققه الهولنديون فى القرن السابع عشر، مكن أمستردام فى الشمال، من شغل المكانة القديمة للبندقية فى الجنوب. علاوة على ذلك، كان لتوسع قوى شمال أوروبا باتجاه شمال أمريكا وجنوبها أثر فى تطور التجارة وازدهارها عبر الأطلنطى. ومن ثم بدأت أهمية حوض البحر المتوسط تتوارى، بعد أن تسحبت بعيدا عنها طرق التجارة الدولية[٢] على أن هذه الرؤى تبالغ فى تبسيط الأوضاع، ولا تضع فى اعتبارها تطورات مهمة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر. والواقع أن العثمانيين والصفويين والمغول انخرطوا فى

---

(1) Raymond, Andre, Artisans et Commerçants au Caire au XVIIIe siècle, 2 vols. (Damascus: Institut francais de Damas, 1974).

أندريه ريمون: الحرفيون والتجار فى القاهرة فى القرن الثامن عشر، جزآن؛ ترجمة: ناصر أحمد إبراهيم وباتسى جمال الدين، مصر: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥م. (المشروع القومى للترجمة، ٨١٨، ٨١٩).

(2) Richard Rapp, "The Unmaking of the Mediterranean Trade Hegemony: International Trade Rivalry and the Commercial Revolution," The Journal of Economic History 35, no. 5 (1975): 499-525.

علاقات اقتصادية نشيطة فى القرون السابقة على الاستعمار، سواء كانت علاقات فيما بينهم، أو مع مناطق أخرى فى العالم. على أن الصورة النمطية لكتابة تاريخ العالم تستبعد عادة هذه الإمبراطوريات الكبرى الثلاث من متن الرواية.

طريقة أخرى لتحليل، أو تبرير، التدهور الذى شهدته المنطقة هى نموذج "المركز والأطراف" الذى اقترحه وتولى شرحه إيمانويل والرشتين[1] Immanuel Wallerstein، وهذا النموذج يضع أوروبا فى المركز وبقية العالم فى الأطراف. ويستخدم البعض هذا النموذج بوصفه طريقة أخرى لفهم وضع جنوب حوض البحر المتوسط فى إطار تاريخ العالم فى الفترة من ١٥٠٠ وحتى ١٨٠٠م. على أنه يسود اعتقاد بين الباحثين على عدم ملاءمة هذا النموذج لوضع الدولة العثمانية؛ حيث لم تكن الدولة العثمانية فى موقع الأطراف قبل القرن التاسع عشر. وبالنسبة لمصر، لم يكن لأى قوة أوروبية أى هيمنة فى المنطقة فى تلك الفترة، ولم تكن أوروبا قد أصبحت بعد قوى صناعية تسعى إلى الوصول إلى المواد الخام الرخيصة، أو تسعى لفتح أسواق لمنتجاتها، مثلما حدث فى القرن التاسع عشر. كذلك لم تكن أوروبا هى مركز تدفق العلوم والمعارف والتقنيات والموضة.

كانت هناك قضيتان رئيسيتان حددتا ملامح علاقة الدولة العثمانية بتاريخ العالم الحديث. القضية الأولى هى التجارة. وتشير الدلائل إلى أن مصر قد تأثرت بأكثر من طريقة بالتوسع الذى شهدته التجارة العالمية. وعلى الرغم من أن مصر كانت منخرطة فى التجارة الدولية قبل هذه الفترة بكثير، وكانت تقوم بدور حيوى فى عمليات التبادل التجارى بين الشرق والغرب، فإن القرن السادس عشر شهد تغييرات رئيسية فى هذا المجال. ففى هذا القرن كانت مصر منطوية تحت لواء الدولة العثمانية المترامية الأطراف، مما وفر لها، وشجعها على، إقامة علاقات تجارية قوية مع المراكز التجارية فى حوض البحر المتوسط، وبخاصة مع إستانبول. وتزايد نشاط مصر التجارى فى

(1) Immanuel Wallerstein, The Modern World System (Berkeley: University of California Press, 2011). Chapter 1-135.

تلك الفترة مع التوسع فى تجارة البن، والتى أصبحت بضاعة تجوب أنحاء العالم، وتدار بواسطة تجار القاهرة. كان هؤلاء التجار يمدون أجزاء عديدة فى الدولة العثمانية وأوروبا بكميات كبيرة من البن. وزاحم البن البهارات، وكاد أن يأخذ مكانتها كأغلى سلعة يتداولها التجار. ومن خلال دراسته لتجارة البن والبهارات والمنسوجات الهندية فى القرن الثامن عشر، أوضح أندريه ريمون أهمية هذا القطاع الاقتصادى والمكاسب التى كانت تُجنى من ورائه.

علاوة على ذلك، كان هناك توسع فى الشبكات التجارية التى تأثرت بها الدولة العثمانية ككل، ومصر باعتبارها جزءًا من هذه الدولة؛ حيث ارتبطت تلك الشبكات المختلفة بشبكات تجارية أوسع كانت نشطة عبر كل من المحيط الهندى والمحيط الأطلنطى. وتبين دراسة محمد بلوط ***Mehmet Bulut***، تلك الروابط التى كانت قائمة بين الدولة العثمانية وتجارة الأطلنطى فى القرن السابع عشر(١) وعلى إثر انتشار تجارة البن فى القرن السابع عشر، كان أول عهد لأوروبا وأمريكا بالقهوة، ومن ثم عرف البن القادم من اليمن عبر البحر الأحمر، مرورا بمصر، طريقه إلى كل من أوروبا وأمريكا، وانتشرت، وازدهرت، على إثره المقاهى فى مدن أوروبية عديدة. وفى المقابل عرف الدخان القادم من أمريكا طريقه إلى سكان الدولة العثمانية. وحاز المنتجان، البن والدخان، شهرة واسعة وازداد الطلب عليهما بشدة. من ناحية أخرى، دخل الذهب والفضة، المستخرجان من مناجم وسط أمريكا وجنوبها، منظومة التجارة بين أوروبا والدولة العثمانية وآسيا. كذلك عرفت الأقمشة المصنوعة فى مصر طريقها إلى الكاريبى؛ حيث استخدمت بوصفها ملابس للعبيد، وهذا الموضوع سيطرح بالتفصيل فى الفصل الثالث من هذا الكتاب. وهذا التحول من البضائع النفيسة إلى البضائع الشعبية يعد مؤشرا على التوسع التى شهدته التجارة آنذاك. كل هذه الأمور تبين

---

(1) Mehmet Bulut, "The Role of the Ottomans and the Dutch in the Commercial Integration between the Levant and the Atlantic in the Seventeenth Century," Journal of the Ecoomic and Social History of the Orient 45, no. 2 (2002): 197-230.

التوسع الذى شهدته الشبكات التجارية التقليدية، والزيادة الكبيرة فى حجم التجارة، والذى ساعد على نموها وزيادتها الطرق البحرية، وكذلك زيادة حجم الاستهلاك.

القضية الثانية المرتبطة بتحديد ملامح الوضع الاقتصادى للمنطقة هى موضوع الهيمنة الأوروبية. ومن المعروف أنه لم تتمكن أى قوى أوروبية من السيطرة على المنطقة قبل القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من وجود عدة إمبراطوريات قوية فى العالم آنذاك؛ ففى العالم الإسلامى كانت الإمبراطوريات: المغولية والصفوية والعثمانية، وعلى الجانب الآخر الغربى كانت هناك الإمبراطوريات: الإسبانية، النمساوية (هابسبرج)، البريطانية، والروسية، ومع ذلك لم تتمكن أى منهم من بسط سيطرتها على مناطق الشرق الأوسط. كانت هناك عدة مراكز قوية، تتعاون أحيانا وتتربص ببعضها بعضًا أحيانا، لذلك كان من الصعوبة بمكان أن تتمكن أى دولة أوروبية من أن تبسط سيطرتها، أو أن تسمح القوى الأخرى لدولة ما من البروز كقوة مهيمنة وحيدة(١). على العكس من ذلك، كانت السيطرة الاستعمارية الأوروبية على المناطق الضعيفة أو غير المستقرة سياسيا أسهل وأسرع؛ ونموذج الأمريكتين يوضح ذلك، إذ كان من السهل على القوى الأوروبية أن تسيطر على الأمريكتين فى القرن السادس عشر. والواقع أن تلك المقولة غير الواضحة المعالم التى تُسمى "الغرب وبقية العالم"(*)، لا تفرق بين نوعين من الظروف والملابسات، الأولى هى تلك التى توافرت فى الأمريكتين، حيث تمكنت القوى الأوروبية، على إثر الاكتشافات الكبرى، من أن تبسط سيطرتها على مناطق

(1) Charles Parker, Global Interactions in the Early Modern Age, 1400-1800 (New York: Cambridge University Press, 2010), 2-11.

(*) الغرب بقية العالم": هى إحدى المقولات المطروحة فى دراسة تاريخ الحضارات، تفترض أن الغرب تميز عن غيره بتطوير ستة مفاهيم رئيسية، وهى التنافسية، العلم، دور القانون، الطب الحديث، الاستهلاك، أخلاقيات العمل. وهذه المفاهيم هى التى أهلت الغرب ليقود، ويسود على، بقية العالم. (المترجم)

شاسعة. والثانية، هى ظروف حوض البحر المتوسط، حيث لم تحدث تلك السيطرة الأوروبية، ويرجع ذلك، إلى حد كبير، إلى وجود تلك الإمبراطوريات الكبرى. وفى القرن التاسع عشر تغيرت الظروف تماما فى ظل الاستعمار؛ حيث صار التبادل التجارى بين مستعمِر ومُستعمَر، وبهذه الطريقة تمكن المستعمرون من السيطرة أكثر على النشاط التجارى للمناطق المُستَعمَرة. ونموذج مصر وبريطانيا فى أواخر القرن التاسع عشر خير مثل لتوضيح هذين النوعين المختلفين لشكل العلاقات. لقد أوضح روجر أوين *Roger Owen*، فى دراساته لاقتصاديات القطن فى مصر، كيف تمكنت بريطانيا من السيطرة على المجالين السياسى والاقتصادى لمصر، ومن ثم سارت العلاقات التجارية على هذا النمط من السيطرة، حيث إن علاقات بريطانيا التجارية بمصر كانت سببا لتحجيم علاقات مصر التجارية، واستبعاد شركاء تجاريين آخرين لمصر. لقد كانت نسبة التبادل التجارى بين مصر وبريطانيا فى بدايات القرن التاسع عشر تشكل نسبة ١٠٪ من حجم تجارة مصر، ثم ازدادت هذه النسبة إلى ٥٠٪ فى أواسط القرن التاسع عشر، وفى الوقت نفسه كان معظم إنتاج مصر من القطن يرسل إلى بريطانيا لتشغيل مصانع النسيج هناك[١].

لقد كان الوضع مختلفا ما فيما قبل عام ١٨٠٠م، حيث كانت الأنشطة التجارية أكثر تنوعا، وكانت التبادلات التجارية تتم بين شركاء عديدين وفى اتجاهات مختلفة. يمكن اعتبار هذه الخاصية هى إحدى السمات المميزة لذلك العصر السابق على عام ١٨٠٠م، لقد تزامن التوسع فى التجارة الدولية مع تعدد الشركاء وتنوع الاتجاهات، دون أن يكون هناك قوة وحيدة تسيطر على هذا المجال.

يمكن شرح ظروف الفترة من ١٦٠٠ وحتى ١٨٠٠م من خلال رسم صورة لتنوع أساليب التبادل التجارى وطرقه بين الإمبراطوريات الثلاث: العثمانية، الصفوية،

---

(1) Roger Owen, Cotton and the Egyptian Economy, 1820-1914: A Study in Trade and Development (Oxford: Clarendon, 1969), 175.

المغولية؛ وما من شك بأنه كانت هناك علاقات تجارية مهمة بين هذه الإمبراطوريات[1] وعلى الرغم من وجود بعض الدراسات التى تعالج هذه القضية، فإن الكثير من جوانبها ما زال بحاجة إلى بحث أكثر. وما من شك بأن التجارة بين العثمانيين والمغول كانت أكثر أهمية من مثيلاتها بين العثمانيين وأوروبا. يقول أحد وكلاء شركة الهند الشرقية فى عام ١٦٩٠م إن كمية المنسوجات الهندية التى أرسلت إلى الدولة العثمانية كانت خمسة أضعاف الكمية التى يأخذها البريطانيون والهولنديون[2]. والواقع أن ندرة المصادر المتاحة، حتى الآن، حول العلاقات بين العثمانين والمغول هى التى تحد من معرفتنا حول هذا الموضوع، مقارنة بما نعرفه عن العلاقات العثمانية-الأوروبية، حيث توجد وفرة فى المصادر.

ولكننا لن نعدم طريقا للولوج إلى هذا الموضوع؛ إذ يمكننا أن نقدم أمثلة توضيحية حول التبادل التجارى بين العثمانيين والصفويين والمغول. وعلى سبيل المثال، يمكننا عن طريق دراسة النسيج أن نتبين أن العلاقات فى هذا المجال قد تخطته إلى مستويات أخرى أوسع من مستوى التبادل التجارى. فقد تم التبادل أيضا على مستوى الحرفيين والتقنيات والأفكار والموضات. ولكن لسوء الحظ، ليس لدينا صورة مكتملة عن هذا الموضوع، سوى شذرات متناثرة هنا وهناك بين سطور المصادر. ولكن من الواضح أن هذا التبادل بمستوياته المختلفة كان مهما، وكان له أثر مباشر على تلك المناطق وعلى مستوى العالم أيضا.

فعلى سبيل المثال، كان هناك حرفيون يتنقلون من مكان إلى آخر عبر هذه الإمبراطوريات مترامية الأطراف سعيا للعمل، حاملين معهم مهاراتهم إلى أماكن

---

(1) Gilles Veinstein, "Commercial Relations between India and the Ottoman Empire (Late Fifteenth to Late Eighteenth Century): A Few Notes and Hypothesis," in Merchants, Companies and Trade: Europe and Asia in the Early Modem Era, ed. Suchil Chaudhury and Michel Morineau (Cambridge: Cambridge University Press, 1999), 5-115.

(2) Scott Cameron Levi, The Indian Diaspora in Central Asia and its Trade, 1550-1900 (Leiden: Brill, 2001), 34-35; Veinstein,"Commercial Relations between India and the Ottoman Empire,"102-107.

جديدة، واستوطنوا هناك، وشاركوا فى تشكيل طوائف حرفية جديدة. ربما كان عدد هؤلاء الحرفيين المتنقلين قليلا، نظرا إلى ما عرف عن طبيعة الحرفيين بالاستقرار فى أماكن عملهم. ومع ذلك فلقد كان لهم دور فى نقل تقنيات صناعة النسيج وانتشارها من مكان إلى آخر. ومما يؤيد ذلك ما أكدته المصادر العديدة من تقليد تصميمات المنسوجات الفارسية والهندية فى كل من حلب والقاهرة وإستانبول. مثال على ذلك، ما سجله جان كلود فلاشا Jean-Claude Flachat، وهو مستثمر فرنسى عاش بضع سنوات فى إستانبول، حيث لاحظ أثناء زيارته لإستانبول فى ستينيات القرن الثامن عشر عدة أمور: أن العديد من الحرفيين الفرس قد رحلوا إلى إستانبول على إثر الاضطرابات التى ألمت بالإمبراطورية الصفوية، واستقروا هناك، ومن ثم، عرفت عاصمة الدولة العثمانية طرق إنتاج الملابس الفارسية عن طريق هؤلاء الحرفيين؛ وأن الحرفيين بجزيرة خيوس ببحر إيجة قد تعلموا تقليد الملابس الإيطالية التى تُباع فى أسواق إستانبول، وأدخلوا تعديلات عليها؛ وأن العديد من الحرفيين كانوا يصنعون الملابس وفقًا لحاجات وأذواق المناطق التى ستصدر إليها[1] يقول جاك بوشيه Jacques Peuchet (ت. ١٨٣٠م) إن صناع الملابس فى دمشق وحلب كانوا يستخدمون قطنًا مغزولاً فى الهند، بينما كان النساجون يصنعون الملابس وفق النمط البنغالى[2] وفى حلب كان النساجون يقلدون الشيلان المصنوعة فى كيرمان بفارس[3]. بينما أخذ الهنود فنون وتقنيات النسيج والصباغة من الدولة العثمانية ومن فارس[4].

---

(1) Jean-Claude Flachat, Observations sur le commerce et sur les arts, vol. 2 (Lyon: Chez Jacquenod pere et Rusand, 1766), 270-75.

(2) Jacques Peuchet, Bibliothèque commercial, vol. 2 (Paris: Chez Buisson, Juillet 1803), 39.

(3) Adolph Jerome Blanqui, Dictionnaire du Commerce et de l'industrie, vol. 1(Brussels: Imprimerie A. Cauvin, 1837), 68.

(4) Frank, ReOrient: Global Economy in the Asian Age (Berkeley: Universityof California Press, 1998), 201.

ومن مدينة تونس البعيدة، وفي الاتجاه المعاكس لخطوط هذا التبادل، وجد الطربوش طريقه إلى إستانبول فى القرن الثامن عشر، وصار غطاء الرأس الشعبى هناك(١).

ويمكن رؤية صورة مماثلة فى مصر أيضا، يظهر فيها التأثيرات والتغييرات المتعددة التى شهدتها مصر. فنرى نوعًا من الملابس كان يُصنع فى ميناء دمياط على ساحل البحر المتوسط، ومنه أخذ اسمه "الدماطى"، كان هذا المنتج يقلد فى كل من إزمير وصيدا وقبرص(٢) لقد شكل الحرفيون القادمون من ديار بكر وبلاد الشام طوائف تخصصت فى الملابس الهندية، تلك الملابس التى حازت شعبية واسعة فى أوروبا والدولة العثمانية. وكان أكثر التجار ثراءً فى القاهرة فى القرن الثامن عشر، والذين بلغت ثرواتهم ملايين البارات، هم التجار المتعاطون تجارة الملابس الهندية.

وعلى مستوى أوسع، كل هذه الأمور تثير قضية أخرى، وهى الثقل الاقتصادى لهذا الإقليم، وما اشتمل عليه من حجم الإنتاج، والتجارة، والمهارات، والخبرات. فالحيوية التى تميزت بها الأنشطة الإنتاجية والتجارية لهذا الإقليم، تقدم دليلاً إضافيا على فكرة تعدد المراكز على مستوى العالم فى الفترة من ١٦٠٠ وحتى ١٨٠٠م، وعلى عدم صلاحية فكرة القطب الأوحد المتمثل فى أوروبا بوصفها مركزًا للعالم(٣).

وبأكثر تحديد، يجب أن نفهم على وجه الدقة ونتعرف على كيفية تأثير التوسع الذى شهدته التجارة الدولية على مصر. لقد بينت الدراسات حول الأنشطة التجارية

---

(1) Suraiya Faroqhi, "Immigrant Tradesmen as Guild Members, or the Adventures of Tunisian Fez-sellers in Eighteenth-century Istanbul," in The Arab Lands in the Ottoman Era (1600-1900): In Honor of Caesar Farah, ed. Jane Hathaway (Minneapolis: Center of Early Modern History, 2009), 187-207.

(2) Suraiya Faroqhi, "Declines and Revivals in Textile Production," in Cambridge History of Turkey: The Later Ottoman Empire, 1603-1839,vol. 3, ed. Suraiya Faroqhi (Cambridge: Cambridge University Press, 2006), 366.

(3) R.J. Barendse, The Arabian Sea: The Indian Ocean World of the Seventeenth Century (New York: Sharpe, Inc., 2002), 6-7.

لمصر الأهمية المستمرة لتجارة البحر الأحمر فى الاقتصاد المصرى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، بعد استقرار البرتغاليين فى الهند بوقت طويل. وبالطبع، إننا ندين بالفضل لدراسات أندريه ريمون حول تجارة البن وتجارة المنسوجات الهندية(١) وهناك العديد من الدراسات الأخرى التى توسعت فى هذا الموضوع، وركزت على مناح شتى، مثل: طبيعة التجارة، الأنشطة التجارية للتجار وعلاقاتهم مع السلطات السياسية، تبادل البضائع، نظم الشحن، المستفيدين من هذه التجارة، الشبكات التجارية. ومن ثم ربما ما نعرفه الآن عن التجارة والتجار بالقاهرة يفوق ما نعرفه عن معظم المدن الأخرى فى الدولة العثمانية.

ومع ذلك، فإن ما نعرفه يمثل جانبًا واحدًا من الصورة. فإذا تحولنا إلى أفق أرحب، سنرى أن وضع مصر يتسق مع الصورة الكبرى للعالم فى ذلك العصر. ومن زاوية أخرى، يمكننا أن نركز على الآثار الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لتلك التجارة. وهذا المنهج مفيد لأنه لا يركز على التجار بوصفها عملية لتبادل البضائع فقط، بل محركًا لحركة الناس، ولانتقال التوجهات والأنماط، ولتبادل الموضات والخبرات. باختصار كانت التجارة هى القاطرة التى تربط الأقاليم بعضها بعضًا.

الترابط والتوجهات المشتركة على الصعيدين الإقليمى والدولى

كان من نتيجة التوسع فى العلاقات التجارية الدولية أن أصبح العالم أكثر اتصالاً من ذى قبل، ووجود ذلك التقارب والاتجاهات المشتركة على الصعيدين الإقليمى والدولى، يدفعنا إلى طرح بعض أسئلة حول كيفية فهم مصر فى إطار التجارة الدولية. يمكن النظر إلى هذه القضية من خلال ما سُمى بنموذج "الترابط"، حيث اعتبره بعض المؤرخين إحدى سمات بدايات العصر الحديث. وكان Joseph Fletcher جوزيف

---

(١) أندريه ريمون: الحرفيون والتجار فى القاهرة فى القرن الثامن عشر.

فليتشر من أوائل المؤرخين الذين قالوا بذلك. وما من شك بأن كل بلد كان له تاريخه الخاص وخصوصيته فى تلك الفترة؛ فبلاد مثل: الهند، والصين، وفرنسا، وإنجلترا كانت لها هذه الخصوصية، إلا أنه، حسبما يقترح فليتشر، كان هناك شيء مشترك يربط ما بين هذه البلدان، وهى تلك التوجهات التى شهدتها تلك البلدان فى فترة زمنية معينة، ومعاصرة إلى حد كبير. على أن تلك الروابط والتوجهات التى ربطت تلك البلدان كانت إما نتيجة الاتصال المباشر بين تلك الدول، أو حدثت استجابة لنفس الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى شهدتها تلك البلدان، دونما اتصال مباشر فيما بينها(١). ويمكن متابعة نفس طريقة التفسير هذه فى عمل *Bayly* بايلى "نشأة العالم الحديث"؛ حيث يرى بايلى أن إحدى سمات مجتمع القرن التاسع عشر هى زيادة الترابط والاندماج. ويصف بايلى الفترة السابقة على القرن التاسع عشر، فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، بأنها فترة "عولمة بدائية"، أو مرحلة مبكرة من العولمة، وتكونت شبكات بفعل الانتشار الجغرافى للأفكار من مواقعها المحلية إلى مستويات إقليمية ودولية أوسع(٢).

تسارع وتيرة التتجير(*)

على الرغم من أن تلك الدراسات المذكورة أعلاه تخلو من الإشارة إلى مصر وأوضاعها، فإن دراسة الأحوال الاقتصادية والاجتماعية أو الثقافية تشير إلى أنه كانت هناك، فى بعض المجالات، اتجاهات فى مصر يوجد لها نظائر شبيهة فى أماكن أخرى، سواء فى الدولة العثمانية، أو الهند، أو فى جنوب شرق آسيا، أو فى أوروبا.

(1) Joseph Fletcher, "Integrative History: Parallels and Interconnections in the Early Modern Period, 1500-1800," Journal of Turkish Studies 9(1985): 37-57.

(2) Bayly, The Birth of the Modern World, 41-42

(*) المقصود بالتتجير هو ظهور تأثير زيادة الأنشطة التجارية على ثقافة المجتمع. (المترجم)

وأن هذه الظواهر المتشابهة، التى برزت فى مناطق متباعدة جغرافيا، يحتمل بشدة أنها كانت نتيجة لأحد العوامل المشتركة التى شهدتها هذه المناطق فى نفس الوقت. وما شهدته مصر، شأنها شأن مناطق عدة فى العالم، من النشاط التجارى المكثف نتج عنه زيادة فى عمليات التتجير. ولقد قمت فى دراسة سابقة بتتبع ظاهرة التتجير كأحد التوجهات التى يمكن أن نجد لها نظائر معاصرة فى مصر، والهند، وجنوب شرق آسيا[1] وفى هذا الكتاب، تناولت هذه القضية مجددا، فى محاولة لاستشراف أبعاد وسياقات أخرى لهذه الظاهرة. يمكن أن نلاحظ أيضا تلك التوجهات المشتركة فى حالة الحرفيين الذين يتنقلون ما بين إقليم وآخر حاملين معهم مهاراتهم؛ ويمكن بالأكثر تحديدا أن نلاحظ ذلك فى مجال اللغة، حيث يمكننا ملاحظة التغير الذى حدث فى استخدام لغة مكتوبة أقرب إلى اللغة المنطوقة، وكيفية حدوث ذلك فى عصر واحد تقريباً، فى مناطق مختلفة، مثل مصر ومناطق فى أوروبا، وفى الهند. وبينما يشير هذا الأمر إلى إمكانية وجود بعد عالمى مشترك فى جوانب عديدة مختلفة، فإنه يدلل أيضا على وجود ازدواجية فى كيفية التأثير فى ظروف محلية، حيث توجد جوانب تأثرت بعوامل عالمية، وأخرى كانت أقل تأثراً بتلك العوامل.

لقد أدى ازدياد حجم التجارة الدولية إلى التوسع الهائل فى استخدام النقود. ونرى ذلك بوضوح فى مراكز التجارة والإنتاج فى مصر والأناضول ومناطق مختلفة من الدولة العثمانية؛ حيث انتظمت عمليات التبادل التجارى وتعاظمت. وعلى سبيل المثال، أظهرت الدراسات الخاصة بالبلقان، أن تركات القرن الثامن عشر كانت تتضمن نقوداً أكثر من البضائع والممتلكات العينية[2] وفى دراسة حول تاريخ النقود فى الدولة العثمانية، يلاحظ شوكت باموك Sevket Pamuk وجود وفرة فى البهارات بعد القرن السادس عشر، ووفرة فى النقود خلال القرن الثامن عشر، مكنت سكان الريف من

---

(1) Nelly Hanna, Artisan Entrepreneurs in Cairo and Early Modern Capitalism(1600-1800) (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 2011).

النسخة العربية (نللى حنا: حرفيون مستثمرون، بواكير تطور الرأسمالية فى مصر؛ ترجمة: كمال السيد، القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١١م.)

(٢) نللى حنا: حرفيون مستثمرون، ص٢٩٤

التعامل النقدى، ومن ثم كان الحرفيون يحصلون على أجورهم فى الريف نقدا. ولكن هذا لا يمنع من وجود فترات شحت فيها النقود[1].

من ناحية أخرى، انتشرت ظاهرة وقف النقود فى مدن صغيرة بالأناضول بشكل كبير، وهذه الظاهرة تشير إلى أن أناسا عاديين توفرت لديهم نقود تزيد عن حاجاتهم الأساسية، ومن ثم قاموا بوقفها، وهذا جانب آخر يبين وفرة النقود آنذاك. كان نظام وقف النقود يقوم على إقراض هذه الأموال مقابل فائدة، وتكون هذه الفائدة هى مصدر تمويل الوقف[2]. وتوجد نماذج مشابهة لذلك فى مناطق أخرى. ويمكن رصد عمليات التنجير فى الهند أيضا؛ حيث احتلت الهند المكانة الأولى فى تصدير المنسوجات لبقية أجزاء العالم، وأدى تدفق الأموال على الهند إلى أن صار التعامل بالنقود هو أساس الاقتصاد. وأظهرت دراسة Frank Perlin فرانك بيرلين أن تداول النقود والتعامل بها صار هو المعول عليه فى المناطق الريفية والحضرية بالهند على السواء[3]. ونفس الملاحظة سجلها أنطونى ريد Anthony Reid فى دراسته حول جنوب شرق آسيا فى بدايات العصر الحديث؛ حيث تبين له أن الضرائب، فى أماكن مثل بورما وتايلاند، كانت تُدفع نقداً بدلا من الضرائب العينية، وخصوصا بعد منتصف القرن الثامن عشر. والجدير بالذكر أن عدداً من تلك الدراسات قد بينت أن التعاملات النقدية انتشرت بين الناس العاديين، ولم تقتصر على أولئك الذين كانت لهم علاقة ما بالتجارة الدولية.

والواقع أنه يوجد بعد آخر لعملية التنجير، يبدو أنه صار سمة وتوجهاً فى تلك الفترة؛ وهو أن العلاقات النقدية تجاوزت البنى التجارية إلى ما سواها، وظهر ذلك جليا فى ظاهرة ما يعرف ببيع الوظائف، أو ما سُمى فى مصطلح ذلك العصر "الفروغ عن الوظائف"، وانتشرت هذه الظاهرة فى مصر ومناطق أخرى من الدولة العثمانية فى

---

(1) Sevket Pamuk, A Monetary History of the Ottoman Empire (Cambridge: Cambridge University Press, 2000)-xix.

(2) Jon Mandaville, "Usurius Piety: The cash Waqf Controversy in the Ottoman Emipire "Internionai Jowmal of Middie East Studies 10, no 3 (Aug. 1979) : 289 - 308.

(3) Frank Perlin, "Monetary Revolution and Socitetal Change in the Late Medieval and Early Modern Times: A review Article, "The Journal of Asian Stuies 45, no % (Nov, 1986): 1037-49: Washants, Markets and Commerce in Early Modern Southern India, " Journal of the Economis and sacial History of the orient 53 (2010) 271 .

أواخر القرن السابع عشر. وبمقتضى هذا النظام يحق للأشخاص الذين مُنحوا شغل وظائف مختلفة فى مؤسسات الوقف، أن يتنازلوا "يفرغوا" عنها إلى آخرين مقابل مبلغ من المال، وطال هذا الأمر أيضا طائفة العسكر حيث يمكن للأشخاص الذين يشغلون وظائف اسمية فى طوائف العسكر أن يتنازلوا عنها بالبيع إلى أشخاص آخرين[١]. وبين كينيث كونو Kenneth Cuno فى دراسته أن الأعيان اعتبروا المناصب والوظائف سلعة تجارية تُباع وتُشترى شأنها شأن البضائع الأخرى. ومن جانبها حاولت الدولة أن يكون لها دور فى ضبط هذه العملية[٢] من ناحية أخرى، تبين سجلاتها ووثائقها التركات وكيفية تحول الوظائف إلى سلع وممتلكات؛ ففى تركات أثرياء التجار مثل الشرايبى، أو كبار رجال الدين، مثل الشيخ محمد شنن (تولى مشيخة الأزهر فيما بين عامى ١٧١١ و١٧٢٠م)، نجد ضمن قوائم جرد التركات وتقييمها مرتبات الوظائف التى كانت فى حوزتهم، وقومت هذه المرتبات شأنها شأن الممتلكات الأخرى، وكأنها ملكية خاصة[٣]. مثل هذه الممارسات صارت شائعة فى القرن الثامن عشر. كذلك دخل نظام الالتزام هذا السوق أيضاً، وصار يُباع ويُشترى مقابل المال؛ حيث يحوز الملتزم هذا الالتزام مقابل دفع مبلغ من المال، وكذلك يحق له إسقاطه لشخص آخر مقابل مبلغ مالى، وما بين المبلغ الذى اشترى به الالتزام والمبلغ الذى باع به الالتزام يتحقق الربح، وعلى ذلك دخل الكثيرون مجال الالتزام على أنه مجال للتجارة.

ولم يسلم من هذه العملية، نظام الطوائف التقليدية، وهى أساسا مؤسسات تنظيمية، تشرف مهنيا وأخلاقيا على أفراد الطائفة، وليس لها علاقة بالمال واستثماراته، ولكن شهد القرن الثامن عشر مستوى معيناً من التحول إلى المعاملات

---

(١) نللى حنا : حرفيون ومستثمرون ، ص ٣٠٠.

(2) Kenneth M. Cuno, "Ideology and Juridical Discourse in Ottoman Egypt: The Use of the Concept of Irsad," Islamic Law and Society 6, no.2 (1999): 136-63.

(3) Cuno, "Ideology and Juridical Discourse," 139.

النقدية فى مناطق مختلفة من الإمبراطورية العثمانية. ففى الأناضول كانت الطوائف المهنية تمتلك أوعية نحاسية تؤجرها مقابل مبالغ مالية، ثم تستخدم الطائفة عائد هذه العملية فى أغراض أخرى؛ مثل إقراض جزء من هذه الأموال إلى بعض أعضاء الطائفة الذين يرغبون فى توسيع أعمالهم وتطويرها. ثم تستخدم فوائد هذه القروض فى أعمال خيرية داخل الطائفة؛ كأن تُعطى مساعدة للفقراء من أعضاء الطائفة[1]. وشهدت بعض الطوائف الغنية بالقاهرة، مثل طوائف النساجين والمعصرانية، تطورا مماثلا؛ حيث تغيرت قواعد العقوبات داخل نظام الطوائف؛ كانت العادة الجارية داخل الطوائف أن يُعاقب عضو الطائفة الذى يخالف قواعدها بالطرد من عضوية الطائفة، ولكن فى القرن الثامن عشر استُبدلت هذه العقوبة بعقوبات مالية يدفعها العضو المخالف بديلا عن طرده، وأصبحت قواعد الغرامات المالية ضمن منظومة الطائفة. من ناحية أخرى أضيفت شروط جديدة للترقى داخل الطائفة؛ فبينما كان على الحرفى الذى يرغب فى الترقى إلى رتبة معلم داخل الطائفة أن يجتاز امتحانا مهنيا، يبرز خلاله مهاراته التى تؤهله للترقى؛ أضيف شرط جديد لشروط الترقى، وهو أن يدفع هذا العضو مبلغا من المال، أو يقدم أوعية نحاسية لتستفيد منها الطائفة فى تأجيرها مقابل أموال.

وربما كانت هذه الممارسات، أى التحول إلى المعاملات النقدية، تأثرا بما حدث فى الدولة العثمانية ككل؛ حيث بدأت الدولة العثمانية منذ حوالى منتصف القرن السادس عشر، فى استخدام نظام العقوبات المالية "الغرامات" بديلا عن العقوبات الشرعية المنصوص عليها. ففى بعض الجرائم، مثل السرقة أو الزنا، استُبدلت عقوبات قطع اليد والرجم بغرامات مالية. ويقول سامى زبيدة Sami Zubaida إن الفقهاء الأوائل رفضوا بشدة العقوبات المالية بديلاً عن الحدود، ولكنها صارت فى العصر العثمانى أحد مصادر الدخل الرسمية لخزينة الدولة[2]. إن هذه الممارسات الحكومية تقدم مثالاً آخر

---

(1) Baer, "The Waqf as a Prop for the Social System (Sixteenth toTwentieth Centuries)," Islamic Law and Society 4, no. 3 (1997): 284-85.

(2) Sami Zubaida, Law and Power in the Islamic World (London: I.B. Tauris, 2003), 112.

على مدى شيوع التعاملات النقدية فى مؤسسات الدولة والمجتمع. والخلاصة أن الاتجاه نحو التعاملات النقدية اتخذ أشكالاً متعددة فى الدولة العثمانية، ولم يقف تأثيره فقط عند الدولة ومؤسساتها، بل تخطاه إلى العسكر، والتجار، بل حتى الأفراد العاديين[1] وهذا الاتجاه هو انعكاس لظاهرة التعاملات النقدية التى سادت فى مناطق مختلفة من العالم.

وعلى ذلك، برز هذا التوجه نحو التعاملات النقدية بشكل أو بآخر فى مناطق مختلفة من العالم، وما من شك أن تدفق سبائك الذهب والفضة من أمريكا إلى أوروبا كان له دور رئيسى فى شيوع هذا التوجه؛ حيث أتاحت هذه الوفرة النقدية لأوروبا استخدام النقود فى تجارة البحر المتوسط وآسيا، كذلك ساهمت فى توفير كميات كبيرة من البهارات، المشتراة نقدا.

كان لزيادة حجم ومستوى التبادل التجارى عبر العالم نتائج أخرى مست جوانب مختلفة فى الاقتصاد والثقافة. حيث صاحب هذه العملية أنماط أخرى من التبادل: إذ حدث أيضا تبادل للأفكار والتوجهات، وكذلك الناس الذين يتنقلون كتجار أو حرفيين. كذلك انتقلت التقنيات والموضات عبر طرق التجارة. كما كان لعملية التتجير آثار غير مباشرة على المجتمع؛ حيث أن عملية التتجير من شأنها أن تذيب الفواصل بين طبقات المجتمع، وكلما كان المجتمع تجاريا أتيحت فرص أكبر للحراك الاجتماعى. من بين تلك الآثار أيضًا زيادة الاتجاه نحو الثقافة التجارية. ويرى بيتر جران Peter Gran أن مصر شهدت فى القرن الثامن عشر ظهور ثقافة تجارية عملية استطاعت أن تجد لها مكانًا داخل منظومة الثقافة الأكاديمية[2] لقد وفرت عمليات التتجير سياقا ملائما

---

(1) Hanna, "Guild Waqf: Between Religious Law and Common Law," in Held in Trust, ed. Pascale Ghazaleh (Cairo: American University in Cairo Press, 2011), 165-89.

(٢) بيتر جران: الجذور الإسلامية للرأسمالية، مصر ١٧٦٠- ١٨٤٠م؛ ترجمة: محروس سليمان، القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٣م، ص ١١٧-١١٨.

للتوسع فى كتابة نصوص باللغة العامية؛ وبينما كانت هذه اللغة فى طور التشكل والاعتراف بها فى القرن السابع عشر، صارت ضمن المنظومة الثقافية فى القرن الثامن عشر.

النتائج المترتبة

ترتبت على تلك الظروف والأحوال نتائج، يمكن شرحها بطرق عدة. ربما أفضل طريقة لشرح هذه النتائج هو تتبع موضوع إنتاج المنسوجات فى القرنين السابع عشر والثامن عشر؛ إذ إن موضوع إنتاج المنسوجات يشرح لنا بدقة كيفية اندماج مصر فى الأسواق العالمية، وتأثرها بالاتجاهات والموضوعات السائدة فى العالم آنذاك.

المحلى يكتسب بعدا دوليا :

كان إنتاج النسيج من أهم الأنشطة الاقتصادية فى مصر، وتزايد الطلب على المنسوجات المصرية فى الأسواق العالمية. والواقع أن مهنة إنتاج المنسوجات كانت من أكثر المهن ارتباطا بالأسواق الخارجية؛ لعب التجار، الذين يجوبون العالم، دور الوسطاء الذين يعرف من خلالهم حرفيو النسيج توجهات الأسواق الخارجية، والأنواق والمنتجات المطلوبة، والأنواع الرائجة والأخرى الراكدة. ومن ثم يطوع الحرفيون منتجهم وفق حاجات الأسواق الخارجية. والمثال الواضح على ذلك هو المنسوجات الهندية، فبعد أن تزايد الطلب عليها، قام الصناع بتقليدها فى مناطق مختلفة حول العالم. وهذا يبين من ناحية وعى الصناع بحجم الطلب على أنواع بعينها فى الأسواق الخارجية، ومن ناحية أخرى، يبين كيفية انتشار الموضات عبر العالم. ورصد كريستوفر بايلى Christopher Bayly أمرًا شبيهًا بذلك؛ ففى دراسته حول ظهور العالم الحديث

فى القرن التاسع عشر، لاحظ أن الناس فى مناطق مختلفة من العالم، وبصفة خاصة النخب الاجتماعية، مع الاختلاف الشديد فى خلفياتهم الثقافية، يهتمون باتباع موضات متشابهة[١] وبالرغم من أن بايلى يشير فى هذا الصدد إلى القرن التاسع عشر، حينما بدأت موديلات الملابس الأوروبية تحظى بشعبية فى دول مختلفة، فإن هذه الظاهرة يمكن تتبعها فى عصور سابقة، وقت أن سيطرت الأقمشة الهندية على تجارة النسيج العالمية. ولقد بين جورجيو رويللو Giorgio Riello كيفية انتشار المنسوجات الهندية عبر العالم، وكيف أن الأقطان الهندية كانت تُباع فى كل أرجاء العالم، فعلى سبيل المثال لا الحصر كانت الأقطان الهندية تُباع فى إيران، وإثيوبيا، والكونغو، وشرق إفريقيا. ولم يقف الأمر عند ذلك، بل كانت التقنيات والموديلات الهندية يقوم بتقليدها الحرفيون فى مراكز إنتاج النسيج فى أوروبا، وآسيا، والدولة العثمانية. والواقع أن المنتجات القطنية أصبحت أحد مجالات الاستثمار والتجارة على مستوى العالم[٢].

كانت المنسوجات الهندية تصنع كذلك فى إستانبول، ودياربكر، وحلب، والقاهرة، ومدن أخرى فى الدولة العثمانية. وفى أوروبا بدأت محاولات تقليد الملابس الهندية، ومن أوائل تلك المحاولات كانت فى مارسيليا فى منتصف القرن السابع عشر؛ عندما حاول ملاك المصانع فى مارسيليا تقليد الأقمشة الهندية، كمحاولة للحد من عمليات الاستيراد من الدولة العثمانية ومن الشرق عامة[٣] وللقيام بذلك استعان ملاك المصانع بحرفيين عثمانيين.

---

(1) Bayly, The Birth of the Modern World, 12-17.

(2) Giorgio Riello and Tirthankar Roy, eds. How India Clothed the World: The World of South Asian Textiles, 1500-1850 (Leiden: Brill, 2009), 4. Chapter 2 -137.

(3) Olivier Raveaux, "Spaces and Technologies in the Cotton Industry in the Seventeenth and Eighteenth Centuries: The Example of Printed Calicoes in Marseilles," Textile History 36, no. 2 (Nov. 2005): 131-45.

ويقول أثناسيوس جيكاس Athnasios Gekas إن الدولة العثمانية لعبت دورًا مهما فى استيراد تقنيات إنتاج المنسوجات، وكذلك موديلاتها من الهند، ثم فى مرحلة تالية، انتقلت هذه التقنيات والموديلات من الدولة العثمانية إلى أوروبا، وبخاصة إلى فرنسا وأمبراطورية النمسا (هابسبرج)[1] ولم يقتصر دور الدولة العثمانية على كونها وسيطًا انتقلت من خلاله تقنيات النسيج من الهند إلى أوروبا، بل كانت لها ابتكاراتها الخاصة فى تقنيات المنسوجات، ومجالات أخرى كانت مطلوبة فى الأسواق الأوروبية. وفى مرحلة ما، أصبحت هذه التقنيات متبعة فى نظام الصناعة الأوروبى، وصارت جزءًا منها.

ويبدو أن هناك عددًا من الطوائف المهنية بالقاهرة تخصصت فى صناعة الأقمشة الهندية، واستهدفت بإنتاجها الأسواق المحلية وكذلك الأسواق العالمية. ويظهر ذلك من خلال ما رصدناه فى المصادر الفرنسية، من الزيادة الملحوظة لكمية الأقمشة المصدرة من مصر إلى فرنسا فى القرن الثامن عشر؛ حيث كانت ترسل أنواع مختلفة من الأقمشة المصرية إلى الموانئ الفرنسية، بما فيها ملابس منتجة فى مصر ولكن تصميماتها وموديلاتها هندية الطابع. كذلك وصلت الأقمشة المصرية إلى مناطق بعيدة مثل منطقة الكاريبى، وبخاصة الأقمشة الرخيصة أو الخشنة التى كانت مخصصة للعبيد. وهذا يوضح كيفية استجابة المنتجين لطلب الأسواق الخارجية، حيث تنتج أنواعًا مختلفة من الأقمشة تلائم حاجة الأسواق فى أماكن بعينها. وهذه الأمور تُظهر الحاجة إلى مراجعةُ معظم الكتابات التى تناولت تاريخ النسيج الإسلامى خلال هذا العصر. وما من شك أن دراسة النسيج تختلف اختلافا بينا، وتؤدى إلى نتائج مختلفة، باختلاف طريقة النظر إليها، وفى الغالب، تتم دراسة النسيج العثمانى فى سياق تاريخ الفن الإسلامى، ولكن من المؤكد أن الأمور ستختلف إذا تم النظر إليها من خلال التاريخ الاقتصادى، وآليات الأسواق وحاجاتها.

---

(1) Athanasios Gekas, "A Global History of Ottoman Cotton Textiles,1600-1850," EUI Working Papers, No. 2007/30, European University Institute, Max Weber Programme (San Domenico di Fiesola, Italy: Badia Fiesolana, 2007), 1-12.

من ناحية أخرى، ما زالت دراسة الآثار المحتملة للتجارة على المجتمع، بحاجة إلى مزيد من الجهد؛ فعملية التتجير قد يكون لها أثر فى العلاقات الاجتماعية، بعدما مهدت التعاملات النقدية الطريق إلى حراك اجتماعى أكبر. ويمكن رصد تأثيرها فى مجالات الحياة الثقافية، حيث أصبحت الفوارق الطبقية أقل حضورا، وأكثر مرونة. ويظهر هذا التأثير بشكل جلى فى مجال اللغة، وبخاصة ذلك الاتجاه نحو استخدام اللغة العامية فى القرن السابع عشر. ولدينا عدد كبير من النصوص فى ذلك العصر لم تلتزم بقواعد اللغة العربية السليمة. ويبدو أن الفترة من القرن الخامس عشر تقريبا وحتى القرن السابع عشر تشكل فترة مهمة فى التحولات اللغوية فى أوروبا ومصر ومناطق من جنوب شرق آسيا. وصاحب عملية التحول هذه الاتجاه نحو استخدام لغة مكتوبة أقرب إلى لغة الكلام.

اتخذ هذا التحول أشكالاً عدة، وكانت هناك عوامل كثيرة وراء هذا التحول فى كل بلد. على أن هذا التحول فى التواصل عبر الكتابة لا يمكن دراسته فقط على أنه قضية لغوية، ولكنها عملية مرتبطة بتطورات تاريخية لا بد أن توضع فى الاعتبار، ولا يمكن عزل هذه الظاهرة عن سياقها الاجتماعى. ويجب النظر إليها بوصفها جزءًا من عملية تحول أعمق تركت آثارها على المجتمع والاقتصاد. والتحول إلى العامية، سواء كان فى أوروبا أو مصر أو الهند، يعنى أن أناسًا من خارج النخب المتعلمة والدينية أصبح بإمكانهم التعامل مع اللغة المكتوبة. وبالرغم من أن كل بلد كانت لديها ظروفها الخاصة التى أدت إلى هذا التطور، فإنه كانت هناك نتائج متشابهة فى تلك البلاد (فيما يتعلق بمصر، انظر الفصل الثانى من هذا الكتاب). ولكن لم يكن من قبيل المصادفة أن تشهد تلك المناطق نفس التطور فى نفس العصر تقريبا. ومن غير المحتمل أن يكون هذا التغير قد حدث فى إقليم ما، ثم تأثرت به بقية الأقاليم. ولكن يمكن أن نقترح بأن هذه الأقاليم المختلفة قد تأثرت جميعها بعامل مشترك، وهو نمو وتسارع عملية التتجير التى شهدتها مناطق مختلفة من العالم.

فى أوروبا، حدث التحول من اللاتينية إلى لغات محلية أخرى: الإيطالية، والفرنسية. كذلك ظهرت نسخ شعبية للإنجيل فى القرن السادس عشر، أصبحت فى

متناول قطاع عريض من المسيحيين العاديين. وما من شك فى أن ظهور المطبعة كان عاملا أساسيا، إلى جانب اللغة، فى حدوث هذا التطور فى أوروبا. ومنذ ذلك العصر أصبح استخدام لغة مفهومة من قبل الأفراد من خارج المؤسسات التعليمية أمرا ضروريًا. وعلى ذلك ظهرت الكتابات العلمية التى تستهدف قطاعات من الناس خارج مؤسسات التعليم، وتستخدم لغة محلية، وكتابات جاليليو (ت. ١٦٤٢م) كتبت باللغة الإيطالية بديلا عن اللاتينية.

وتقريبا حدث هذا التحول فى نفس هذه الفترة فى الهند، ولكنه لم يُدرس حتى الآن بطريقة كافية. وتشير دراسة بولوك Sheldon Pollock، إلى أن الكُتّاب، فى أجزاء متفرقة من جنوب آسيا حوالى عام ١٥٠٠م، كانوا يكتبون الأعمال الأدبية بلغات محلية، بدلاً من اللغة السنسكريتية التى ظلت مهيمنة على مجال الأعمال الأدبية لقرون طويلة[١]. وعلى سبيل المثال، كتب بابور Babur، مؤسس الأسرة المغولية التى حكمت الهند عام ١٥٦٢، مذكراته بلغة تركية عامية (لهجة شمال شرق إيران)[٢]. وبينت دراسات أخرى حول الهند فى القرن الثامن عشر، وجود أدلة طبية كتبت باللغة الفارسية بدلاً من السنسكريتية، كمؤشر آخر على عمليات التحول إلى اللهجات المحلية، وهو ما اعتبره بعض المؤرخين دليلاً على تدهور الدولة المغولية بالهند[٣].

وشهدت مصر أيضًا، وإلى حد ما بلاد الشام، هذا التحول؛ حيث استخدمت لغة عامية مكتوبة تسمى "اللغة العربية الوسطى" وسميت بذلك لأنها تجمع ما بين اللغتين العامية والفصحى. وبالرغم من أن اللغة العربية الوسطى ليست حديثة العهد فى مصر؛ إذ توجد ثمة إشارات إلى استخدامها قبل القرن السابع عشر بقرون. ولكن التطور

---

(1) Sheldon Pollock, "The Cosmopolitan Vernacular," The Journal of Asian Studies 57, no. 1 (Feb. 1998): 6-37.

(2) Janin Hunt, The Pursuit of Learning in the Islamic World, 610-2003 (Jefferson, NC: McFarland, 2005), 114.

(3) Seema Alavi, "Colonizing the Body?" in Different Types of History, ed. Bharati Ray (Delhi: Pearson Education India, 2009), 126-28.

المهم الذى حدث فى القرن السابع عشر هو اكتساب هذا المستوى من اللغة بعض الشرعية، وكتبت بها نصوص أكاديمية. واعتبر البعض هذا التطور مظهرا سلبيا ينتقص من مكانة اللغة العربية الفصحى، لغة القرآن، واللغة التى تتباهى بها مؤسسة الأزهر، حيث يفد طلاب العلم إليها من شتى أرجاء العالم الإسلامى لتلقى علوم اللغة على يد أساتذة الأزهر.

توقفت بعض الدراسات عند ظاهرة الاتجاه نحو اللغات المحلية العامية، وتعاملت معها على أنها ظاهرة فردية تختص بلغة ما، أو إقليم بعينه، ولكن من المفيد أن تُدرس هذه الظاهرة على أنها توجه عام له تجلياته فى أماكن ولغات مختلفة عبر العالم. وإذا درسنا هذه الظاهرة من هذا المنظور ستظهر عناصر معينة يمكن أن تسهم فى رسم تلك الصورة المعقدة المتعددة الجوانب لهذه الظاهرة.

والفصل الأول من هذا الكتاب، عالج بالتفصيل العوامل التى كانت وراء تطور اللغة العربية الوسطى فى القرن السابع عشر فى مصر. وبالرغم من دراستنا للعوامل الخاصة بمصر، والتى أسهمت فى هذا التطور، فإننا لا يمكن أن نتجاهل السياق الأوسع لهذه الظاهرة فى مناطق أخرى من العالم فى نفس الفترة تقريبا، حيث شهدت اللغات الفارسية والهندية والأوروبية تطورات مماثلة. ومن بين العوامل المتعددة التى كانت وراء هذه الظاهرة فى أقاليم مختلفة، كان هناك عامل مشترك شكل هذا التوجه على مستوى العالم، وهو الظروف التجارية التى شهدها العالم فى تلك الفترة. وهنا تشترك مصر مع غيرها من الأقاليم فى التوجهات العالمية التى برزت آنذاك.

نقل الخبرات

هناك طرق أخرى يمكن من خلالها أن نتعرف على موقع مصر داخل إطار التحولات التى شهدها هذا العصر، وكذلك موقعها فى إطار تاريخ العالم الحديث. كان لزيادة وكثافة حجم التجارة الدولية أثر كبير فى زيادة تبادل الخبرات والتقنيات، وحدث

هذا التبادل ونقل الخبرات بين العثمانيين والصفويين والمغول. وهناك أيضا بعد إضافى لهذا التبادل تمثل فى نقل الخبرات من أقاليم غير أوروبية إلى أوروبا. وتبين الدراسات الحديثة حول الهند وأندونيسيا وأمريكا الجنوبية، أن المعارف كانت تتدفق وتنتقل من هذه المناطق إلى إنجلترا، وإسبانيا، وهولندا خلال الفترة من ١٥٠٠ وحتى ١٨٠٠م. من جانب آخر، اعتاد الأوروبيون على تسجيل كل مشاهداتهم للمعارف والخبرات التى صادفوها فى مختلف البلدان التى ذهبوا إليها، وسجلوا ونقلوا معارف فى مجالات شتى، وفى وقت لاحق أصبحت جزءًا من المعارف الأوروبية(١). أحد الأمثلة الموضحة لذلك هى سجلات مسح الأراضى التى قام بها الإنجليز فى الهند. فأعمال المساحة هذه كانت خليطًا من خبرات المساحين الإنجليز بتقنياتهم وآلاتهم، ومعارف السكان المحليين. ولقد بين لنا المؤرخ الهندى كابل راج Kapil Raj كيف حاول الإنجليز، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، رسم خريطة لمستعمراتهم فى الهند حتى يستطيعوا الدفاع عن حدودها، وتقدير قيمة الضرائب، وتأمين وسائل الاتصالات. واعتمدوا فى هذه العملية على الموظفين والعمال المحليين للاستفادة بخبراتهم ومهاراتهم. ويقول راج، أنه فى ستينيات القرن الثامن عشر، وأثناء القيام بعمليات المسح فى الهند، لم يكن للإنجليز أى خبرة سابقة فى مسح الأراضى عبر البلاد، ولم يكن هناك حتى ذلك الوقت أى مسح مفصل للجزر البريطانية(٢). ومن ثم كانت نتيجة هذا المسح عبارة عن مزيج من الخبرات الإنجليزية والهندية. هذه النظرة حول تبادل المعارف والخبرات أوحت لباحثين آخرين بالسير فى نفس هذا الاتجاه وإجراء مزيد من البحوث فى مجالات أخرى(٣). وأنا بدورى خصصت الفصل الرابع من هذا الكتاب لدراسة هذا الموضوع.

---

(1) Frank, ReOrient, 191-95.

(2) Kapil Raj, "Colonial Encounters and the Forging of New Knowledge and National Identities: Great Britain and India, 1760-1850." Osiris, 2nd ser., 15 (2000): 127-28.

(3) Helene Blais, "Les enquetes des cartographes en Algerie ou les ambiguites de l'usage des saviors vernaculaires en situation coloniale,"Revue d'histoire modem et contemporaine 54, no. 4 (Oct.-Dec. 2007):70-85.

بالنسبة لمصر، تناولت دراسات عديدة جانبين من جوانب نقل الخبرات بين مصر وأوروبا. وحظى عصر محمد على (١٨٠٥-١٨٤٨م) بالنصيب الأكبر من الاهتمام فى هذا المجال. وقد عُرف عن محمد على تبنيه لسياسات إصلاحية فى عدة مجالات، استعان فيها بخبرات أوروبية وأدمجها فى مشروعاته الإصلاحية، وفى نفس الوقت عين خبراء أوروبيين فى مجالات عديدة. وعندما أقدم محمد علىّ على إنشاء نظام جديد للمدارس، استلهم النمط الفرنسى. وعندما شرع فى إنشاء مستشفيات جديدة استقدم الطبيب الفرنسى كلوت بيك ليترأس هذا المشروع. وعندما أنشأ محمد على مصانع جديدة استعان بعمال مهرة من مختلف البلدان لتشغيل هذه المصانع. وسار على نهجه حفيده الخديوى إسماعيل (ت. ١٨٩٥م)، فعندما فكر الخديوى إسماعيل فى بناء دار أوبرا بالقاهرة استعان بالمعماريين الإيطاليين لتنفيذ هذا المشروع. ويمكن أن نرصد قائمة طويلة بالمشروعات والمجالات التى استعانت فيها الأسرة العلوية الحاكمة بمصر بخبرات أوروبية. وهذه المجالات تناولتها دراسات عديدة.

كانت الحملة الفرنسية (١٧٩٨-١٨٠١م) محطة أخرى مهمة فى تاريخ تبادل الخبرات بين مصر وفرنسا؛ إذ كانت حملة نابليون سببا مباشرا لزيادة الاهتمام بمصر من قبل الفرنسيين. وتبعا لذلك ظهر فى فرنسا ما عُرف باسم Egyptomanie "الولع بمصر"، وترك هذا الولع بصماته على معظم الفنون الفرنسية(١). والواقع أن تأثير مصر وعلم المصريات على الثقافة الفرنسية كان تأثيرا متعدد الجوانب، مس نواحي مختلفة من الحياة الثقافية فى فرنسا. على أن اهتمام الفرنسيين بمصر انصب بالأساس على العصر الفرعونى، وبعض الاهتمام بمصر المعاصرة فى القرن التاسع عشر، فحين لم ينل العصر العثمانى أى اهتمام من قبل الفرنسيين. وعلى إثر الحملة

(1) Jean-Marcel Humbert, L'Égyptomanie: la passion de l'Égypte. Paris: Les Musees de la ville de Paris. 2000.

الفرنسية، تزايد الاهتمام بعلم المصريات، وظهر الولع بعلم المصريات فى فنون فرنسية مختلفة. حيث استدعت واستلهمت فنون عدة التقاليد المصرية القديمة، وظهر ذلك بوضوح فى الأثاث، والرسومات الشرقية، والموضات النسائية والفنون.

وتوجد دراسات عديدة قيمة تناولت الجوانب المتعددة للولع بالمصريات الذى ساد فى فرنسا بعد الحملة الفرنسية. ولكن الجانب المطروح هنا لم ينل حظه من الاهتمام، ولم يكتب عنه إلا قليلاً، وهو الاقتصاد. وهو موضوع لا يتعلق بالطباع والأجواء المثيرة التى كان يبحث عنها الأوروبيون فى الشرق. كان الغرض من اهتمام الأوربيون هذه المرة هو الخبرات والمهارات التقنية لطرق صباغة المنسوجات؛ كيف تُصبغ المنسوجات بألوان زاهية وتستمر دون تغيير، كيف نتعلم طريقة تنظيم العمل اليومى التى يتبعها حرفيو القاهرة فى صباغة المنسوجات، وكيفية تطبيق هذا النظام فى فرنسا. هذه المرة كان نقل الخبرات يتم فى الاتجاه الآخر، من الجنوب إلى الشمال، من مصر وأجزاء أخرى من الدولة العثمانية إلى فرنسا.

إن بعض جوانب الخبرات والمهارت فى إنتاج المنسوجات التى انتقلت إلى فرنسا، تمثل انتقال تقنيات حرفيى الشرق إلى فرنسا، وإدماج هذه التقنيات فى بعض أهم الصناعات الفرنسية. وهذا يعنى أن تبادل المعارف التقنية والعلمية بين أوروبا وباقى أجزاء العالم لم يكن طريقًا ذا اتجاه واحد، بل كان طريقا ذا اتجاهين. وهذا الفصل من هذا الكتاب يتناول كيفية تبادل خبرات ومعارف لا نعرف عنها الكثير، وبخاصة انتقال بعض التقنيات من مصر إلى فرنسا، والتى نعتقد أنه أصبح لها أثر واضح فى المنتجات الصناعية الفرنسية، وهى صباغة الأقمشة. وبالرغم من أن طرق العمل كانت تقليدية، فإن التفاصيل التى سنعرضها لممارسات الحرفيين تبين كيف كانت التطورات التى شهدها القرن الثامن عشر، هى الأساس لبعض التطورات التى حدثت فى القرن التاسع عشر. كانت هذه التطورات تحدث من أسفل إلى أعلى، على عكس تطورات القرن التاسع عشر التى تميزت بأنها من أعلى لأسفل.

وفى ضوء تلك التطورات الحادثة فى مناطق مختلفة من العالم، كان انتقال تقنيات الصباغة من الدولة العثمانية ومصر إلى فرنسا وأوروبا، يشكل جزءا من المشهد

العالمى الذى تميز بانتقال الخبرات من إقليم إلى آخر. وهذا التبادل الذى اتخذ طريقه من الجنوب إلى الشمال يمكن وضعه فى إطار التدفق الكبير الذى شهده هذا العصر فى تداول التقنيات والخبرات. والهدف من ذلك هو إيضاح أن تداول هذه المعرفة من مصادر مختلفة، وفى اتجاهات مختلفة، كان جزءًا من نمط أصبح شائعا فى القرن التاسع عشر.

ودراسة هذا الموضوع بهذه الطريقة يتطلب عدة أمور، أولا، الحاجة إلى مراجعة الأفكار التى سيطرت على طريقة فهم تاريخ المنسوجات فى مصر، والتى صورت الفترة من القرن السادس عشر وحتى الثامن عشر على أنها فترة تدهور. وجاء هذا الوصف عن طريق مؤرخى الفن الذين تعاملوا مع هذا المنتج على أنه منتج فنى فقط، ومن ثم قارنوه بالمنتجات الفنية السابقة واللاحقة. وهذا الأمر يحتاج مراجعة، فإنتاج النسيج كان إنتاجا مبدعا عبر كل العصور، ولو بطرق مختلفة.

ثانيًا، نحن بحاجة إلى إعادة دراسة العصر اللاحق (القرن التاسع عشر) فى ضوء التطورات التى شهدتها تلك الفترة (ق١٦-١٨). وهذا يتطلب مناقشة سياسات محمد على الإصلاحية والصناعية، وكيفية الربط ما بين إنتاج النسيج فى القرن الثامن عشر فى إطار تقليدى يتولاه الحرفيون، وإنتاج مصانع النسيج فى القرن التاسع عشر الذى يقوم به عمال بأجر. خاصة وأن أحد أهم مصانع النسيج التى أنشأها محمد على تخصصت فى إنتاج المنسوجات الهندية، وهى المنسوجات التى كانت عماد الإنتاج فى القرن الثامن عشر. ويذكر كلوت بك فى مذكراته فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، أن مصنع المنسوجات هذا كان ينتج شهريا ثمانمائة قطعة فاخرة من المنسوجات الهندية، والتى بمقدورها أن تنافس مثيلاتها المنتجة فى ألمانيا وإنجلترا، ومن ثم قل إلى حد كبير استيراد هذه المنسوجات من خارج مصر[1]. وربما كان عمال المصانع هذه قد تدربوا قبل التحاقهم بالمصانع داخل نظام طوائف الحرف، ومن المحتمل أيضا أن بعض تقنياتهم انتقلت إلى نظام المصنع.

---

(1) A.B. Clot Bey, Aperçu general sur l'Égypte, vol. 1 (Brussels: Societe Belge de Librairies, 1840), 224.

والقضية هنا هى أن المصانع التى تأسست على النمط الأوروبى فى أوائل القرن التاسع عشر، ربما اقتبست تقاليد محلية موجودة بالفعل فى هذا المجال. والواقع أن إنتاج المنسوجات الهندية بلغ مرحلة متطورة فى القاهرة فى القرن الثامن عشر قبل ظهور مصانع النسيج، وكانت المنسوجات المنتجة فى القاهرة مطلوبة فى الأسواق الخارجية. هنا يمكن أن نضع أيدينا على نوع من التهجين بين نظامين مختلفين بشكل أساسى، أو وجودهم فى آن واحد، هما نظام المصنع، والثانى تقاليد الحرفيين قبل ظهور المصانع. وبنفس الطريقة كان هناك مصدران لإنشاء المصانع الحديثة فى مصر، الأول اعتمد على الخبرات الأوروبية، والثانى على الخبرات والممارسات المحلية. ولكن لايزال أمام الدراسات الأكاديمية شوط طويل لتقطعه، لكشف النقاب عن هذا الموضوع.

خلاصة

عودة إلى السؤال الأساسى المطروح فى بداية هذا الفصل، وهو محاولة إيجاد طرق بديلة للمناهج التى اتخذتها الدراسات الأوروبية حول تاريخ المناطق غير الأوروبية. وفى هذا السياق تعتمد الدراسة الحالية على الإنتاج المتزايد فى الحقل الأكاديمى لباحثين بدأوا يبحثون عن طرق بديلة لإعادة التفكير فى منهج المركزية الأوروبية. أحد هذه الطرق، وليس الوحيد، هو أن نكتب تاريخا لمصر يضع فى اعتباره التطورات التى شهدها العالم خلال تلك الفترة. أو كيف نفهم تاريخ مصر فى إطار تاريخ العالم.

ويمكن أن نلخص الإجابة عن هذا السؤال فى بضع نقاط:

أولاً، علينا أن نفهم التاريخ السابق على العصر الاستعمارى بمصطلحاته الخاصة، بدلاً من دراسته كتمهيد للاستعمار، ومن ثم نبحث عن كيفية تطابقه مع توجهات أساسية فى تاريخ العالم. وهذه الطريقة لدراسة تاريخ الفترة من ١٥٠٠ وحتى ١٨٠٠م توفر عدة مميزات للمؤرخين. إحدى هذه المميزات أنه يقدم بديلاً لنموذج

"صعود الغرب" الذى نحتته المركزية الأوربية، ومن ثم يمكن توضيح أن مصر، شأنها شأن مناطق أخرى فى الدولة العثمانية، وفى الهند وفى جنوب شرق آسيا، كانت جزءا من التوجهات التى شهدها العالم، وأن بعض هذه التوجهات كانت هى أساس التطورات اللاحقة. وأن مصر، وما يسمى دول العالم الثالث، كانت بطريقة أو بأخرى جزءًا من عمليات تشكل تاريخ العالم الحديث؛ والدليل على ذلك أن السمات التى تناولناها سابقا فى هذا الفصل قد أسهمت فى نهاية المطاف فى ميلاد العالم الحديث. وفكرة أن أوروبا فقط كانت صاحبة الدور الأول والوحيد فى إنشاء العالم الحديث، يمكن الرد عليها بطرق مختلفة من خلال هذا المنهج. ويسمح هذا المنهج أيضا للمؤرخين بالربط بين ما قبل العصر الحديث، والعصر الحديث، من خلال توضيح كيف أن الاتجاهات التى صارت مهيمنة فى القرنين التاسع عشر والعشرين، كان لها جذور فى العصر السابق عليهما. ومن ثم يمكن أن نعيد تقييم الروابط بين هذا العصر والتطورات اللاحقة فى القرن التاسع عشر.

ثانيًا، يطرح هذا الكتاب قضية منهجية حول تاريخ العالم؛ حيث إن تاريخ العالم لم يكن فقط قصرا على الأكاديميين أو المثقفين أو العلماء. فتاريخ العالم يتتبع الخطوط العريضة للتوجهات، والتى كان لها تأثير واسع على أجزاء كبيرة من العالم. وهذا الكتاب يتتبع بعض من هذه الخطوط العريضة، مثل عملية التتجير. كما أنه يستحضر الأناس العاديين إلى هذا المشهد، سواء كانوا قد تأثروا واستشعروا التغييرات الجارية فى العالم، أو كان لهم إسهاماتهم الخاصة فى هذه التغيرات. ومثال على هؤلاء الناس العاديين، الكثير من الحرفيين ومن طوائف الحرفيين، الذين كانت لهم أساليبهم فى صناعة منتجاتهم سواء بالابتكار أو التعديل، ولم يتم ذلك فى معامل بحثية، ولكن كان يتم عن طريق الممارسة اليومية وطريقة المحاولة والخطأ. يمكن ملاحظة ذلك فى مصر على المستوى الأوسع وكذلك المستوى الأصغر، حيث ساهم الحرفيون وطوائفهم، عن طريق أعمالهم اليومية، فى زيادة حجم التبادلات، وتوسع الأسواق، وأدى زيادة الاستهلاك إلى تغيير أنماط وطرق عملهم.

ولكن عدم وجود أسماء لامعة لعلماء كبار أو مثقفين تجاوزت أعمالهم حدود مصر، دفع الباحثين إلى وصم هذا العصر بالتدهور! على أن دراسة انتقال الخبرات والتقنيات بين الشرق والغرب تتيح لنا رؤية الأمور من أسفل إلى أعلى، ليس فقط من خلال الأسماء الكبيرة لعلماء أو مثقفين، ولكن من خلال أيضا أناس لا نعرف أسماءهم. وهذا الكتاب يناقش بعض تلك المبادرات لأشخاص عاديين، بغرض إيضاح كيف أن هذه المبادرات قد تشكل جزءاً من عمليات تاريخية مهمة، وكيف تؤثر الظروف الإقليمية والدولية فى حياة وأعمال هؤلاء الناس.

وعلى ذلك يمكن أن نعتبر أن مصر كان لها دور، على أكثر من مستوى، فى صناعة تاريخ العالم اليوم. ويمكن هنا أن نذكر مثال الإسهامات التى قدمتها مصر فى مجال الخبرات التقنية لصناعة الأقمشة. وكيف أن هذه الخبرات دخلت ضمن صناعات إنتاج المنسوجات الحديثة فى فرنسا، بل وساهمت فى تطويرها. هذا فقط مثال من بين أمثلة كثيرة من أنواع الخبرات التى تطورت فى بلدان غير أوروبية، وأسهمت فى تشكيل العالم الحديث. ويمكن لنا أن نتجاوز روايات المركزية الأوروبية بالتركيز على روايات تأخذ فى اعتبارها هذه الإسهامات غير الأوروبية. ويمكن النظر إلى هذه الإسهامات على أنها جزء من عملية تتجه من أسفل إلى أعلى، حيث انتقلت المعارف والتقنيات، التى استنها الحرفيون فى ورشهم وعن طريق ممارساتهم اليومية، ودون اتباع طرق علمية فى تطويرها، انتقلت لتشكل جزءا من البرامج التقنية والفنية الحديثة، وكذلك المنتجات الحديثة.

وعلى مستوى آخر، كانت مصر تشكل جزءا أيضا من عمليات الترابط والتواصل التى خلقتها ظروف العصر، وأدى هذا التواصل إلى ظهور أنماط متشابهة من الممارسات فى مناطق متباعدة. وعندما صار العالم أكثر اتصالا فى القرن التاسع عشر، صارت التوجهات والممارسات والتقنيات والموضات أكثر عالمية وانتشارا. هذه العمليات أدت إلى مستوى أكبر من التقنين المعيارى لعدد من الممارسات فى القرن التالى. وعلى ذلك لا يمكن الفصل بين ما كان يجرى فى مصر فى الفترة من ١٥٠٠

وحتى ١٨٠٠م وبين دورها في تشكيل تاريخ العالم الحديث. ويصعب أن نتصور بأن مصر قد أسهمت في التطورات التي شهدها العصر اللاحق دون وجود حركة ومرونة في المجتمع والاقتصاد، وكذلك وجود مبادرات وأفكار تبناها كتاب ومفكرون، وحرفيون وتجار.

الفصل الثانى

نصوص من القرنين السابع عشر والثامن عشر

لغة عامية فى قالب علمى

مستويات اللغة ودلالاتها

يتتبع هذا الفصل ظاهرة لغوية وجدت فى مصر فى القرن السابع عشر؛ حيث ظهرت وتطورت كتابات عديدة تجمع بين أكثر من أسلوب فى الكتابة، حيث مزجت هذه النصوص بين اللغة الفصحى التقليدية واللغة العامية. وأطلق علماء اللغة على تلك النصوص، التى تمزج الفصحى بلغة الكلام المتداولة أو العامية المنطوقة وتشتمل على خصائص من كلتا الطريقتين، مسمى "العربية الوسطى". وأحيانا تكون لغتها ما بين الاثنتين، أى مستوى أقل من اللغة الفصحى وأرقى من العامية. والواقع أن "اللغة العربية الوسطى" لم تكن حديثة العهد بمصر فى القرن السابع عشر، إذ تشير البرديات المبكرة إلى استخدامها فى أوائل العصر الإسلامى. واستمر استخدامها منذ ذلك الوقت. ولكن اللافت للنظر هو ذلك التوسع الملحوظ فى استخدامها منذ بداية القرن السابع عشر.

فلقد شهدت الفترة ما بين القرن السابع عشر ونهاية القرن التاسع، كمية من الأعمال التى كتبت بتلك اللغة الوسطى، وتناولت موضوعات شتى، أدبية كانت أم علمية. ولكن الملاحظ أن هذا التطور لم ينل حظه من الدراسة والبحث من قبل المتخصصين فى اللغة العربية، ولا علماء اللغويات الذين اكتفوا بالنظر إلى هذه الظاهرة بشكل سلبى. بينما اكتفى دارسو الأدب العربى بإصدار أحكام مؤداها أن

التوسع فى استخدام اللغة العامية، وإهمال قواعد اللغة الفصحى، لهو دليل على عصر تردى كلّ من اللغة والأدب، وأنه تشويه للغة العربية وتاريخها. وتعتمد وجهة النظر هذه على المقارنة ما بين مستوى الأدب فى تلك الفترة، وبين عصور سابقة، مثل فترة القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، وما شهده خلالهما الأدب العربى من ازدهار[1]. ومن ثم يستنتجون بأن تدهور اللغة يتماشى مع التدهور الذى حاق بالمجتمع بعد فترة العصور الوسطى، ومس جوانب عديدة ثقافية من بينها اللغة. ويطرح الباحثون أسباب عدة لتفسير هذه التغييرات فى اللغة المكتوبة وتدنيها. يأتى فى مقدمة تلك الأسباب، عدم اهتمام الحكام العثمانيين بهذا المجال. أو يحملون الأزهر المسئولية؛ وذلك لتراجع دوره المؤثر فى الحفاظ على اللغة الفصحى وحمايتها. سبب ثالث يميل إلى تفسير تدهور اللغة فى إطار التدهور العام الذى لحق بالثقافة فى هذا العصر.

والسبب فى إصدار هذه الأحكام السلبية على ذلك الشكل من الكتابات هو توجه الباحثين الذين درسوا هذه النصوص؛ حيث كان هدفهم من دراسة تلك النوعية من النصوص، هو الوقوف على الأخطاء الواردة بها وتصحيحها[2]. حتى الأعمال التى قامت على نشر المخطوطات وتحقيقها، كان يتم التأكد من تصحيح النصوص وكتابتها بشكل يتفق مع اللغة الفصحى قبل إرسالها إلى المطبعة. ومن ثم لم تنل النصوص التى كتبت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر اهتمام المؤرخين، أو مؤرخى الأدب، أو حتى اللغويين؛ حيث ارتبطت هذه النصوص بأنها إنتاج عصر تدهور الأدب. ولكن لا

---

(1) J. Brugman, An Introduction to the History of Modern Arabic Literature in Egypt (Leiden: Brill, 1984). 8-9: Modern Arabic Poetry, 1800-1970: The Development of Its Forms and Themes (Leiden: Brill, 1976). 12, 217.

(٢) شوقى ضيف: تحريفات العامية للفصحى، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٤م. ص ٦-٧. كانت مهمة هذا الكتاب دراسة عميقة للخصائص اللغوية والنحوية للغة العامية، بهدف التنبيه على أخطائها وتصحيحها.

يخلو الأمر من استثناءات، حيث تحرر البعض من تلك الأحكام السابقة وأخذ يدرس هذه النصوص بمنظور مختلف. أذكر هنا مديحة دوس، وهى بالأساس متخصصة فى الدراسات اللغوية، ولكنها تحاول أن تجمع ما بين مجال اللغويات والسياق التاريخي[١].

لقد قامت مديحة دوس، بالتعاون مع هيمفرى ديفيز Humphrey Davies، بنشر مختارات من الأعمال المكتوبة باللغة العامية، كان من بينها عدد من النصوص يعود تاريخها إلى العصر العثمانى[٢]. ولكن يظل اهتمام اللغويين، الذين درسوا مثل تلك النصوص منصبا على النواحى الفنية، ومن ثم، تكون طريقة دراستهم لتلك النصوص مختلفة عن طريقة دراسة المؤرخين لها. ولعل هذا الأمر يتضح من التطورات فى كلا المجالين؛ فبينما تحرر مؤرخو العصر العثمانى من منهج التدهور الذى سيطر على الدراسات التاريخية لعدة عقود مضت، لايزال دارسو الأدب واللغة يتعاطون هذا النموذج فى أعمالهم.

وإذا قمنا بدراسة اللغة باعتبارها أحد العناصر فى عملية التطور التاريخى، واعتبارها أحد مصادر دراسة وفهم جوانب مختلفة فى المجتمع، يمكن أن تتعظم الفائدة، ونثرى مصادر الدراسات التاريخية الاجتماعية. فيمكننا أن ندرس اللغة باعتبارها أحد العوامل لكى تلقى الضوء على عصر ما، وكذلك كى نرصد التأثير المتبادل بين التاريخ واللغة. وهذا من شأنه أن يضيف بعدا جديدا لفهمنا للعصر. ومن ثم، عندما نرصد تغييرات فى اللغة، فلا يمكن تفسير هذه التغييرات فى إطار النظريات اللغوية، أو المناهج اللغوية، ولكن بالأحرى أن تُفهم فى إطار الأحوال الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية أو السياسية لهذا العصر بعينه. مثل هذه التغييرات تتطلب منا

(1) Madiha Doss, "Reflections sur le debut de l'ecriture dialectique en Egypte." Égypte/Monde Arabe 27-28 (1996): 119-46.

(٢) مديحة دوس، وهمفرى ديفيز (جمع وتقديم): العامية المصرية المكتوبة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢م.

النظر إليها فى إطار عوامل متعددة، محلية و إقليمية. فالتغييرات فى طريقة استخدام اللغة لا تظهر بغتة، أو تأتى بمعزل عن سياق أوسع، بل تكون جزءًا من صورة أوسع تتشابك فيها عناصر متعددة. وما يشغلنى هنا هو السياق الاجتماعى الذى يمكن أن يؤثر فى شكل اللغة.

وعلى ذلك، يقع على عاتق المؤرخ محاولة تفسير سبب التغيير الذى طرأ على استخدام اللغة فى حقبة بعينها، وكيفية ارتباط هذا التغيير بالسياق التاريخى لتلك الحقبة. وهنا يمكننا أن نتفق مع مقولة شيلدون بولوك Sheldon Pollock، والذى درس لغات الهند وجنوب شرق آسيا فى نفس الفترة، حيث يقول بأن معانى اللغة تتغير، وفى حالة التغير نحو استخدام مستوى من اللغة أقرب إلى اللغة المنطوقة، فإن دراسة هذه الحالة تخرج عن نطاق حقل اللغة وعلم اللغويات. وربما تندرج تحت دراسة الحدود المتغيرة للثقافة والمجتمع والسلطة، وطرق الفهم المتغيرة أيضًا(١). وفى هذا السياق، فإننى أود أن أدرس التغير الذى حدث للغة، المتمثل فى التوسع فى استخدام العامية المكتوبة، وبالأكثر تحديداً، كيفية وضع هذه الظاهرة فى سياق يأخذ فى اعتباره التطورات التاريخية الأوسع، محلية كانت أو إقليمية، تلك التطورات التى ربما كان لها أثر فى تطور اللغة. إن التوسع الذى نلحظه فى استخدام اللغة العربية الوسطى كان مرتبطًا بالتغيرات السياسية والاقتصادية لذلك العصر، تلك التغيرات التى لم تشمل لغة النصوص فقط بل تجاوزتها إلى بنية هذه النصوص ومضمونها. وعلى ذلك، لم يكن هذا التغير تغيراً لغويًا فحسب، بل كان تغيراً فى الرؤى الثقافية، وهذه الرؤى الثقافية أثرت بدورها فى أشكال وأنواع الكتابة.

وما من شك بأن دراسة زيادة استخدام هذا المستوى من اللغة من شأنه أن يضيف بعداً آخر لفهمنا لما حدث فى القرن التاسع عشر؛ خاصة وأن التغيرات اللغوية التى اعتبرت من ابتكارات القرن التاسع عشر، يجب أن تُفهم فى إطار التطورات التى حدثت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر.

1- Sheldon Pollock, "Cosmopolitan and Vernacular in History," Public Culture 12, no. 3 (2000) 591-625.

إرهاصات (جذور) هذا التغيير

إن التداخل والتزاوج بين اللغة العامية واللغة الفصحى فى النصوص المكتوبة ليس بجديد. وهناك أسباب عدة لظهور هذا التداخل. ولدينا كتابات كثيرة، قبل القرن السابع عشر، تتضمن كلمات، أو جملاً، أو حتى مقاطع كاملة باللغة العامية. وما وصلنا من النصوص العربية المكتوبة الأقدم، والمتمثلة فى برديات الفترة من القرن الثامن وحتى العاشر الميلادى، تقدم لنا نماذج مبكرة لكيفية ولوج اللغة العامية إلى نصوص اللغة الفصحى. وربما تزايد أو قل استخدام العامية عبر العصور. ولربما تم استخدامها لأغراض مختلفة فى عصور مختلفة، وفقا لسياقات وظروف مرتبطة بها. والمعنى أن استخدام اللغة العامية فى النصوص المكتوبة اتخذ أشكالاً عدة.

تشير برديات القرنين التاسع والعاشر الميلاديين إلى عدم تمكن الكُتَّاب من اللغة العربية. ومن المعروف أن عمليات التعريب لم تكن قد اكتملت بعد خلال تلك الفترة المبكرة. ومن ثم، ربما كانت اللغة المنطوقة هى الوسيلة الوحيدة للتواصل لدى بعض الناس، وهى اللغة التى اعتاد الكتاب على استخدامها. أو لم يكن هؤلاء الكتاب على درجة كبيرة من التعليم، أو كانوا متعلمين ولكنهم لا يملكون ناصية اللغة؛ إذ ربما لم تكن العربية هى لغتهم الأم[1]. كل هذه الأمور والملابسات تسمح بإمكانية وقوع أخطاء كثيرة ومتنوعة. ففى بعض الأحيان، تضمنت كتاباتهم أخطاء نحوية، وأحيانًا أخرى استخدموا كلمات وتعابير غير عربية، فى الغالب كانت مأخوذة عن اللغة الأصلية للكتاب، وهى اللغة القبطية. ولم يكن هذا الأمر حجرًا على مصر فقط؛ حيث انضوت أقاليم كثيرة تحت الحكم العربى، وكانت هذه الأقاليم تعج بلغات مختلفة، ومن الوارد أن تترك تلك اللغات المحلية آثارًا على اللغة العربية. ففى مصر دخلت كلمات قبطية كثيرة إلى اللغة العربية، وبينت دراسات برديات أوائل العصر الإسلامى فى مصر، أن الكلمات القبطية وجدت طريقها إلى النصوص القانونية والروايات التاريخية على

---

(1) Eva Maria Grob, Documentary Arabic Private and Business Letters on Papyrus (Berlin: de Gruyter, 2010), 156-58.

السواء(١). ويقول ابن خلدون (ت. ١٤٠٨م)، أن اللغة العربية المستخدمة فى شمال إفريقيا اشتملت على عناصر من لغة البربر، بينما تأثرت اللغة العربية فى بلاد المشرق باللغتين الفارسية والتركية، وفى الأناضول تأثرت بلغات الفرنج(٢).

ولكن، هناك أشخاص على درجة عالية من التعليم، ولكنهم جنحوا إلى المزج بين اللغتين العامية والفصحى، وبالطبع كانت لديهم أسباب مختلفة؛ حيث كانوا يتنقلون بين هذين المستويين تبعا لطبيعة الموضوع الذى يتناولونه، وبخاصة النصوص الخفيفة والفكاهية.

ولدينا أمثلة ممتازة لطريقة كتابة الخطابات فى النصوص المبكرة، منها على سبيل المثال المجموعة التى تولى نشرها فيرنر ديم Werner Diem، والتى توضح هذا المستوى من اللغة الذى يعج بالأخطاء النحوية، وأقرب إلى لغة الكلام. الطبيعة الشخصية، أو العفوية لبعض هذه الخطابات عكست كيفية تعبير الشخص، رجلاً كان أو امرأة، عن مشاعره. وهناك أحد الخطابات، كتبته زوجة توبخ فيه زوجها على خيانته، ويعد هذا الخطاب نموذجًا للنصوص التى اشتملت على عناصر من اللغة العامية (٣). وكذلك

---

(١) تقول جلاديز فرتنز – مورفى Gladys Franz-Murphy : إن كلمة "عرصة" المستخدمة فى العقود المبكرة، هى كلمة قبطية تعنى: "مساحة مكشوفة"

Gladys Franz-Murphy, "A Comparison of the Arabic and Earlier Egyptian Contract Formularies, Part I: The Arabic Contracts from Egypt, 3rd/9th-5th/11th Centuries," Journal of Near-East Studies 40, no. 3 (July 1981), 219

وكذلك كلمة "شراقى" هى كلمة قبطية تعنى "الأرض التى لم تصلها المياه"، وهذه الكلمة ظلت مستخدمة لقرون عديدة بعد هذا العصر.

Gladys Franz-Murphy ,"Arabic Papyrology and Middle Eastern Studies," Middle East Studies Association Bulletin 19, no. 1 (July 1985) 41-42.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، بيروت: دار العودة، ١٩٨١، ص ٤٦٤.

(3) Werner Diem, Arabische Privatbriefe des 9. bis 15. Jahrhunderts aus der östereichischen Nationalbibliothek (Wiesbaden: Harrassowitz, 1996); Werner Diem, Arabische amtliche Briefe des 10. bis 16. Jahrhunderts aus der Österreichischen Nationalbibliothek in Wien (Wiesbaden: Harrassowitz, 1996).

الحال فى الأدب الشعبى فى الفترة من القرن الثالث عشر وحتى الخامس عشر؛ حيث كانت طبيعة الموضوع تدفع كتاب الفصحى إلى إقحام عناصر من اللغة العامية فى هذه النصوص. ويمثل مثل هذا النوع من الكتابات، أشعار ابن سودون (ت١٤٦٤م). كان ابن سودون من أبناء المماليك، وفقيه متمكن من الكتابة بالفصحى، ولكن عرف عنه أنه كان مهرجاً ويتعاطى الحشيش، حسبما يذكر أرنولد فروليك Arnold Vrolijk[1]. ولأنه مطبوع على عدم الالتزام والخروج عن المألوف، كان يكتب أزجالاً هزلية، وكان أسلوب اللغة العامية الذى يستخدمه يتناسب تماما مع الموضوع الذى يتناوله، حيث البساطة والفكاهة. علاوة على ذلك، كان ابن سودون شخصًا يضيق بالقواعد والنظم، ومن ثم كان استخدامه للغة غير الملتزم بقواعد الفصحى يتسق مع سلوكه الشخصى، ومع طبيعة الموضوع الذى يكتب فيه. كان مستوى اللغة الذى يستخدمه ابن سودون بمثابة تعبير عن كيفية تحديده لموقفه تجاه مجتمعه، من خلال اللغة ومن خلال محتوى كتاباته. تلك كانت بعض سمات اللغة العربية الوسطى التى كانت مستخدمة قبل القرن السابع عشر. ثم تزايد استخدام اللغة العامية فى الكتابة بعد ذلك. ولكى نفهم هذا التغيير، علينا أن نتتبع تلك العوامل بعيدة المدى التى كانت وراء هذا التغيير، وأن ندرسها، فى إطار العوامل التى أثرت على المجتمع والثقافة بشكل عام، ومن ثم أثرت على اللغة.

لماذا حدث تغير في لغة الكتابة حوالي عام ١٦٠٠م؟

لقد كانت هناك مجموعة من العوامل السياسية والاقتصادية وراء هذا التحول الملحوظ فى استخدام اللغة العامية فى الكتابة فى حدود عام ١٦٠٠م. بعض هذه

(1) Ibn Sudun, Bringing a Laugh to a Scowling Face: A Study and Critical Edition of the Nuzhat al-nufus wa-mudhik al-'abus, ed. Arnoud Vrolijk (Leiden: School of Asian, African, and Amerindian Studies, 1998).

العوامل كانت بعيدة المدى، وبعضها الآخر قصير المدى. فالعوامل بعيدة المدى تمثلت فى التوسع فى: عمليات التتجير؛ العلاقة بين الدولة والمجتمع؛ وطبيعة بنية السلطة. بعض من هذه العوامل كانت محلية أو إقليمية، وبعضها كان مرتبطًا بظروف عالمية. ويمكن أن يؤدى تفاعل خفى بين هذه العوامل إلى أن يميل الميزان ناحية المحلى (اللغة العربية الوسطى) أو ناحية العالمى (اللغة الفصحى). لقد مست هذه العوامل جوانب عدة فى الحياة، كانت إحداها اللغة. وفى الصفحات التالية سنتناول أهم المعالم الرئيسية التى أدت إلى هذا التطور.

أهم المعالم الرئيسية وتبعاتها

سقوط العباسيين- ودفعة نحو العامية

كان سقوط الدولة العباسية عام ١٢٥٨م حدثا مهما أثر على المنطقة كلها. لقد كان تحولا كبيرا فى الجغرافية السياسية تأثر به سكان مناطق عدة، ولم يقف تأثيره عند السياسة فقط، بل شمل الثقافة، والنظرة نحو العالم، واللغة. وطالت نتائجه أيضا الحياة الدينية. ظلت شخصية الخليفة تمثل البعد العالمى للإسلام لفترة طويلة من الزمن، وكان وجوده يحفظ وحدة الأمة الإسلامية، ولو حتى بشكل رمزى. كان وجود نظام الخلافة يضفى شكلا من المركزية، وبزوالها توارت هذه الصورة الرمزية إلى الظل. وأدى اختفاء الخلافة أيضا إلى تفسخ الحدود السياسية للأمة الإسلامية، بعد أن ظهر عدد من الدويلات والكيانات السياسية رسخت وجودها فى المناطق التى كانت خاضعة للدولة العباسية.

تغيرات الجغرافيا السياسية وتأثيرها على الثقافة

كان لهذه التحولات عدة نتائج ثقافية واجتماعية؛ حيث كان هناك ميل نحو المحلية فى عدة مجالات، وبدأت الأنظار تتجه إلى الجار الأقرب، بعد فقد المركز (المتمثل فى

الخلافة). وظهر بوضوح هذا التوجه نحو المحلية كذلك فى الحياة الدينية والكتابات التاريخية، بل وحتى فى بعض نواحى الفقه. ويرى بعض الباحثين بأن المحلى صار أكثر حضورا ووضوحا مقارنة بما كان يعتبر عالميا. ودخلت اللغة هذه الحلبة؛ حيث تعاظم استخدام اللهجة المحلية فى النصوص المكتوبة.

مثَّل الدين أحد أبعاد هذا الميل نحو المحلية. فبعد سقوط الدولة العباسية، وغياب شخصيتها وما تحمله من سمات وحدة العالم الإسلامى وعالميته وكمركز للأمة الإسلامية، بدت آثار هذا الحدث الجلل تظهر على كثير من السكان فى مناطق عدة، حيث تغيرت نظرتهم إلى الأمور، ومن ثم أخذت مكانة الأولياء المحليين تزداد، وتحل محل مكانة الخليفة كمركز للحياة الدينية فى مناطق عديدة من العالم الإسلامى. وأنشئت مزارات وأضرحة فى مناطق حضرية وريفية لأولياء محليين، وصارت هذه المزارات أساسية فى حياة الناس فى تلك المناطق. وتعاظم دور رجال الدين والأتقياء المحليين، بعد أن صار الناس يقصدونهم طلبا للنصح والإرشاد.

ولم يكن من قبيل المصادفة أن تتطابق سير العديد من الأولياء المحليين مع الأحداث المأساوية التى صاحبت سقوط بغداد، وتوغل المغول فى الأراضى الإسلامية. حيث تسبب توغل جيوش المغول داخل الأراضى الإسلامية فى تدمير مناطق عديدة، وفرار الكثير من سكان هذه المناطق، بحثا عن مناطق أخرى للسكنى والإقامة. وعندما سيطرت جيوش المغول على مناطق فى الشرق نزح عدد كبير من كبار المتصوفين من تلك المناطق باتجاه الغرب، وجاء الكثير منهم إلى مصر، والتى كانت تشهد استقراراً نسبيا تحت حكم المماليك؛ حيث وجدوا الأمان والاستقرار. كما كان حضورهم إلى مصر فرصة لعدد كبير من الأتباع والتلاميذ الذين وجدوا فى هؤلاء الأولياء الملاذ، وبالفعل تتلمذ عدد كبير لديهم. ولذلك وجدنا مراكز صوفية فى القاهرة والإسكندرية وطنطا والصعيد[1]. وشهدت فترة التحول هذه عدداً من أشهر الأولياء المحليين فى مصر: عمر بن الفارض (ت ١٢٣٥م)، إبراهيم الدسوقى (ت ١٢٩٦م)، أحمد البدوى

(1) Eric Geoffroy, "La 'seconde vague': Fin XIIIe siecle-XV siecle," in Les Voies d'Allah: les orders mystiques dans le monde musulman des origins à aujourd'hui, ed. Alexandre Popovic and Gilles Veinstein (Paris: Fayard, 1996), 55-58.

(ت ١٢٧٦م)، أبو الحجاج الأقصرى (منتصف القرن الثالث عشر)، أبو الحسن الشاذلى (منتصف القرن الثالث عشر)، وغيرهم كثير. كل ذلك يعد مؤشرا على الأثر العميق الذى سببه سقوط الدولة العباسية فى تغيير الموازين والخرائط الجغرافية للمنطقة، وكذلك أثره فى حياة عدة شعوب فى المنطقة. ومع الوقت تزايدت أعداد الأولياء والأضرحة بشكل كبير؛ وفى دراسة قامت بها كاترين مايور Catherine May-eur-Jouen، ونيقولا ميشيل Nicolas Michel حول منطقة الدلتا، قاما بفحص ودراسة أحد سجلات الرزق الإحباسية تاريخه ١٥٢٧-١٥٢٨م، واستطاعا أن يحددا عدداً يقترب من المائة ولى فى حوالى ٢٧ قرية من قرى الدلتا. وبالطبع، تعكس تلك الزيادة فى أعداد الأولياء والأضرحة النمو والتوسع الذى شهدته تلك القرى آنذاك، ولكنها تعكس أيضًا الطبيعة شديدة المحلية لهؤلاء الأولياء[1]. وحازت بعض من هذه المزارات شهرة واسعة، واعتبر الأولياء الراقدون فيها بمثابة حراس وحماة المدن التى تحتضن هذه المقامات، ومازالت هذه المقامات محافظة على تلك المكانة حتى اليوم، نذكر منها مقام السيد البدوى بمدينة طنطا، ومقام أبو الحجاج الأقصرى بمدينة الأقصر.

وبالرغم من أن الخليفة استعاد بعضًا من صورته العالمية كرمز للوحدة بين المسلمين، فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، حيث صار للخليفة موقع مميز فى طقوس واحتفالات المماليك؛ فإن ذلك لم يغير من نظرة الناس العاديين إلى أضرحة ومقامات الأولياء المحليين. حيث نظروا إليهم على أنها الأقرب والأسهل للتواصل، إذ اعتاد الناس على زيارة الأولياء طلبًا للنصح والإرشاد، أو زيارة مقاماتهم طلبا للبركة. ومثل هذا الاتجاه حدث أيضاً ولكن بدرجات متفاوتة فى العراق وبلاد الشام والأناضول؛ حيث انتشرت الأضرحة فى كل مكان، وظهر الأولياء المحليون فى القرى والمدن، وأصبحت هذه المقامات محور الحياة الدينية[2].

---

(1) Catherine Mayeur-Jouen and Nicolas Michel, "Cheikhs, zawiyas et confreries du Delta central: un paysage religieux autour du XVIe siecle," in Sociétés rurales ottomanes, ed. Muhammad Afifi, Rachida Chih, Brigitte Marino, Nicolas Michel, and Isik Tamdogan (Cairo:IFAO, 2005), 139-62.

(2) Eric Geoffroy, Le soufisme en Égypte et en Syrie (Damascus: Institut francais de Damas, 1996), 205-39.

يمكن أيضا أن نلحظ هذه النتائج فى الإنتاج العلمى؛ حيث حدث تحول أيضا فى الرؤية والمنظور من العالمية إلى المحلية، وربما يُنظر إلى هذا الأمر على أنه لا علاقة له بهذا التوجه. إلا أن هذا التغير يتسق مع سياق المعطيات المذكورة سابقا والمتمثلة فى آثار سقوط الدولة العباسية على الثقافة والمجتمع. ويتجلى ذلك التغير فى النظرة نحو العالم، بشكل خاص، فى الحوليات والكتابات التاريخية، تلك النظرة التى امتد تأثيرها لقرون طويلة. نتج عن سقوط الدولة العباسية فى عام ١٢٥٨م، ظهور دويلات وكيانات سياسية أصغر توزعت عبر المناطق التى كانت خاضعة للدولة العباسية. وعلى إثر هذه الأوضاع السياسية الجديدة، تشكلت رؤية جديدة نحو العالم، تميزت بالمحلية. ظهر ذلك بوضوح فى الكتابات التاريخية والحوليات التى ظهرت خلال تلك الفترة. ومن المعروف أن العصر العباسى شهد إنتاج عدة حوليات وكتابات تاريخية اتسمت بالعالمية، منها على سبيل المثال، تاريخ الطبرى (ت. ٩٢٣م)، أو المسعودى (ت. ٩٥٦م)(١). ولكن بعد تفتت الدولة العباسية، وإعادة ترسيم الحدود السياسية، انعكس ذلك على رؤية المؤرخين، وأصبحت رؤيتهم، وتركيزهم منصبا على المحلية، وبدلاً من تلك الكتابات التى تهتم بتاريخ العالم، ظهرت كتابات تاريخية وحوليات تختص بأقاليم أو مدن بعينها. منها كتابات: تاريخ مكة المشرفة، لحمد بن محمد مكى (ت. ١٤٨٠م)(٢)، تاريخ القدس للعليمى (ت ١٥٢٢ م)(٣)، تاريخ حمص لمحمد المكى (ت.١٧٢٢٠م)، حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة لجلال الدين السيوطى (ت. ١٥٠٥م) (٤)، بغية

(1) Franz Rosenthal, A History of Muslim Historiography (Leiden: Brill, 1968), 134-36. Chapter 2 -139.

(٢) محمد بن محمد مكى: تاريخ مكة المشرفة، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.

(3) Donald Little, "Mujir al-Din al-'Ulaymi's Vision of Jerusalem in the Ninth/Fifteenth Century," Journal of the American Oriental Society 115, no. 2 (April-July 1995): 237 (author died 1522).

(٤) جلال الدين السيوطى: حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.

الطلب فى تاريخ حلب لابن الأديم (ت. ١٢٦٢م)[١]. وهذه بعض أمثلة قليلة من بين عدد كبير من الأعمال التى تضمنت تواريخ محلية. وظهر هذا الأمر بصورة أوضح فى بلاد الشام؛ حيث خصصت كتب لتواريخ عدد من المدن الشامية. بينما كان التركيز فى مصر منصبا على مدينة القاهرة، وأوضح مثال على ذلك كتاب المقريزى "الخطط"، فهو كتاب عن المدينة نفسها، عن أحيائها وشوارعها وأسواقها ومبانيها فى زمن المؤلف، ويفيض فى ذكر تواريخ هذه الشوارع والمنشآت. وأثناء الحديث عن تاريخ المبانى قد يتحدث المؤلف عن الأحداث والأشخاص الذين كان لهم علاقة بهذه المبانى أو الأماكن؛ والقوام الرئيسى للكتاب ومنطق تأليفه هو الجغرافيا الحضرية للقاهرة، وليس حولية تاريخية. وفى كل الأحوال، انحصرت رؤية المؤرخين فى حيز جغرافى ضيق، وغالبا ما كان هذا الحيز الجغرافى هو المدينة التى يعيش فيها المؤرخ[٢].

ظهر أيضا هذا التأرجح بين المحلى والعالمى فى مجال الفقه. وكانت القضية المثارة هى موقع العرف – وهو بطبيعته محلى الطابع– داخل منظومة الفقه الإسلامى. ظهر الإسلام أولا فى الجزيرة العربية، ومنها انتشر إلى أرجاء واسعة عبر العالم. واعتنق الإسلام شعوب شتى من أعراق مختلفة، ويتحدثون لغات مختلفة. ومن الناحية النظرية، كانت الشريعة الإسلامية عالمية ويجب تطبيقها على كل المسلمين بغض النظر عن أجناسهم ولغاتهم.

والنظرية التقليدية للمذهب الحنفى، والتى فصلت معالمها فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، لم تعترف بالعرف كأحد مصادر التشريع، وحتى وإن كان قد أُخذ به فى الممارسات الفعلية فى المحاكم. وحسبما يقول نويل كولسون Noel Coulson: "لم تعترف النظرية الفقهية التقليدية بالممارسات العرفية."[٣] ولكن يبدو أن تلك النظرية

(1) David Morray, An Ayyubid Notable and His World: Ibn al-Adim and Aleppo as Portrayed in His Biographical Dictionary of People Associated with the City (Leiden: Brill, 1994).

(2) Chase Robinson, Islamic Historiography (Cambridge: Cambridge University Press, 2003), 134-40.

(3) Noel Coulson, "Muslim Custom and Case Law," Die Welt des Islam, n.s. 6, 1, no. 2 (1959): 14-15.

التقليدية قد طالها التغيير أيضا فى القرن السادس عشر. وتشير كتابات عدد من العلماء المتأخرين إلى أن العرف اعتبر ضمن مصادر التشريع فى المذهب الحنفى. كان ابن نجيم المصرى الحنفى (ت. ١٥٦٣م) هو الشخص الذى ارتبط اسمه بنظرية شرح فيها مبررات قبول العرف كأحد مصادر التشريع[1]. والمبدأ الذى استند عليه ابن نجيم فى قبوله للعرف يقوم على أن العرف، حتى وإن كان عبارة عن ممارسات محلية مختصة بجماعة معينة من الناس، يعد مصدراً صحيحاً للأحكام، وتعد صحيحة قانونا فى إطار هذه الجماعة من الناس، حتى وإن كان المسلمون لا يأخذون بها فى أماكن أخرى. واعتبر ابن نجيم أنه من المقبول أن يحكم القاضى فى حالة تتعلق بعرف إحدى الجماعات، حتى وإن كانت هذه الممارسات تختلف عن الممارسات المألوفة على المستوى العالمى للمسلمين. ومن ثم فإن العرف المأخوذ به فى القاهرة صار ملزما لأهل القاهرة فقط، شأنه شأن الفقه؛ دون أن يكون واجب التطبيق على مستوى العالم الإسلامى[2]. "المعروف عرفا كالمشروط شرعا".

وفى فترة متأخرة جاء ابن عابدين (ت ١٨٣٦م)، وهو فقيه شامى معروف عاش فى دمشق، وكان له باع طويل فى الفقه الحنفى. قال ابن عابدين إن العرف يمكن أن يتغير من عصر إلى عصر، ومن ثم فما وقع يصير عرف جماعة معينة فى عصر بعينه. وفرق ابن عابدين أيضا بين نوعين من العرف: الأول وهو العرف المتبع بين كل أفراد جماعة بعينها "العرف الخاص"، والعرف السائد بين جميع المسلمين "العرف العام"[3].

---

(1) Gideon Libson, "On the Development of Custom as a Source of Law in Islamic Law," Islamic Law and Society 4, no. 2 (1997): 140-41.

(٢) ابن نجيم: الأشباه والنظائر على مذهب أبى حنيفة النعمان، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٥، ص.٤٠، ١٠٥.

Haim Gerber, Islamic Law and Culture 1600-1840 (Leiden: Brill, 1999), 105-10; Wael Hallaq, "A Prelude to Ottoman Reform: Ibn Abidin on Custom and Legal Change," in Histories of the Modern Middle East: New Directions, ed. Israel Gershoni, Y. Hakam Erdem, and Ursula Wokock (Boulder, CO: Lynne Rienner, 2002), 42-52.

(٣) ابن عابدين: مجموعة رسائل ابن عابدين، بيروت: إحياء التراث العربى، د.ت، ص ص ٤٤-٤٨.

كذلك كان الحال لدى علماء بلاد الشام فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، منهم على سبيل المثال، خير الدين الرملى، مفتى الرملة الذى قامت جوديث تاكر Judith Tucker بدراسة حوله، كانوا يضعون فى اعتبارهم العرف المحلى وهم يصدرون فتاوى[1]. وبعبارة أخرى، فكرة قيمة وأهمية العرف المحلى كانت موضع نقاش بين هؤلاء العلماء الذين رغبوا فى إدماجها ضمن نظرية الفقه الإسلامى.

إن المناقشات العلمية المختلفة حول اعتبار العرف كمصدر من مصادر الفقه تظهر القيمة والأهمية التى أولاها الباحثون للممارسات المحلية. والأكثر أهمية هو توقيت تلك المناقشات؛ حيث إنها ظهرت فى نفس الوقت الذى بدأ يتزايد فيه الاهتمام بالشأن المحلى، وتزايد أهميته وقيمته فى مجالات أخرى. وبالرغم من أن هذه المناقشات كانت فى أوساط الأكاديميين، وظهرت فى أعمال من غير المحتمل أن يقرأها أحد من خارج الوسط الأكاديمى؛ ولكن إذا وضعت فى سياق تطورات أخرى موازية تسير فى نفس الاتجاه، فإنها تشكل بعدا مهما كجزء من اتجاه أوسع وأشمل يرتبط بإعادة تنظيم المنطقة بعد سقوط بغداد.

هكذا، وفى مجالات مختلفة، لا ترتبط ظاهريا بعضها ببعض، وجدنا تلك الأمثلة المختلفة كتجليات لظاهرة مماثلة، وهى ذلك التحول الثقافى الواسع النطاق الذى شهدته المنطقة، والذى نتج عنه تحول من العالمية إلى المحلية. ويمكن اعتبار هذا التحول هو أحد العوامل المسببة لهذا التغير الذى حدث على مستوى اللغة، والمتمثل فى زيادة استخدام اللغة العامية المحلية. وبعبارة أخرى، كانت اللغة أيضا موضوعا لنفس هذه التوجهات التى غيرت وجهتها من العالمية إلى المحلية، ومن ثم كانت الظروف مهيئة لصعود مكانة اللغات واللهجات المحلية، وزيادة استخدامها فى النصوص المكتوبة. لقد تزامن التغير فى استخدام اللغة مع عدد من التغيرات الأخرى فى مجال الثقافة، وهذا يمثل أحد أبعاد تغير أعمق كان يحدث بالمنطقة.

(1) Judith Tucker. In the House of the Law: Gender and Islamic Law in Ottoman Syria and Palestine (Berkeley: University of California Press, 1998), 16-17.

تجليات هذا التغير في النصوص المكتوبة

كيف تجلى هذا التغير فى النصوص المكتوبة فى ذلك العصر؟ لاحظ الباحثون زيادة استخدام اللغات العامية فى الشعر الشعبى بداية من القرن الثالث عشر، وفى الغالب كان يتم المزج بين العامية والعربية الفصحى(١). ومن أهم النماذج المعروفة لهذا الاتجاه ابن دانيال (ت ١٣١١م)، وهو أيضا أكثر كتاب القرن الثالث عشر الذين حظيت كتاباتهم بدراسات مستفيضة، وهو طبيب عيون ولد بالموصل وانتقل إلى مصر، ربما هرباً من أهوال نتائج الغزو المغولى. ألف ابن دانيال ثلاث مسرحيات لخيال الظل، أهمها مسرحيته المسماة "طيف الخيال" والتى يحكى فيها قصة إحدى الحملات المملوكية التى قامت بغلق الخمارات وبيوت الدعارة، والقبض على المثليين. يغوص عمل ابن دانيال فى أعماق الواقع الاجتماعى، ويصور مظاهر حياة الطبقات الدنيا كالشحاذين والمشعوذين وغيرهما، فى قاهرة القرن الثالث عشر. والعمل كُتب، بشكل ما، بالعربية الفصحى، ولكنه استخدم أيضا اللغة العامية لأغراض الهجاء والألفاظ الفاحشة؛ كذلك استخدمها، فى الغالب بطريقة ساخرة، ليعبر عن اختلافه مع السلطات والنمط المؤسسى. لقد كان ابن دانيال معارضاً للسلطة وللشكل المؤسسى، ومن ثم كان استخدامه للغة تعبيرا عن ذلك، وامتدادا لوجهات نظره وآرائه(٢).

---

(1) Marguerite Larkin, "Popular Poetry in the Post-Classical Period," in The Cambridge History of Arabic Literature, vol. 6, Arabic Literature in the Post-Classical Period, ed. Roger Allen and D.S. Richards (Cambridge: Cambridge University Press, 2006), 193-94.

(2) M.M. Badawi, "Medieval Arabic Drama: Ibn Daniyal," Journal of Arabic Literature 13 (1982): 83-107; Li Guo, "Paradise Lost: Ibn Daniyal's Response to Baybar's Campaign against Vice in Cairo," Journal of the American Oriental Society 121, no. 2 (April-June 2001): 219-35.

الدولة واللغة

هناك أيضًا علامة بارزة، أبرزتها قضية اختراق اللغة العامية للنصوص المكتوبة في القرن الخامس عشر. وهذ المرة يرتبط الأمر بنظام الدولة، والمقصود هنا الدولة المملوكية التي حكمت مصر وبلاد الشام. لقد استخدمت الدولة المملوكية لغتها الخاصة التي تعكس سلطتها ومكانتها، ولم تكن فقط لغة سلطة، بل كانت نموذجا لثقافة رفيعة. والنموذج المعبر لتلك اللغة يتمثل في كتاب القلقشندي (ت. ١٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الإنشا. وكتاب القلقشندي يعد نموذجا لكتب الأدلة والتدريبات التي كان على الكتاب المرشحين للعمل في ديوان الإنشاء أن يلموا بها، ويلتزموا بقواعدها. ومعظم هذه الكتب تتضمن تعليمات وتوجيهات لكيفية كتابة الوثائق الديوانية. وكان يُشترط في الكتاب الذين يعملون في الديوان أن يتحلوا بمهارات متعددة، منها على سبيل المثال الشئون المالية وعلم الحساب، ولكن كان الشرط الأساسي أن يكون متمكنا من اللغة العربية، ليس هذا فحسب بل أن يكون صاحب أسلوب بليغ في الكتابة. كما كان تحسين الخطوط وتجويدها جزءًا رئيسيًا في تدريب الكتبة. وعندما كان القلقشندي يعمل في ديوان الإنشاء في العصر المملوكي، ألف كتابه: صبح الأعشى، ليكون بمثابة دليل للكتبة المبتدئين، وليتحقق من أن الكتبة قد بلغوا مرحلة التمكن والسيطرة على اللغة، والبلاغة في الكتابة[1].

صارت الدولة المملوكية أقوى إمبراطورية في العالم الإسلامي. وحققت تطورا ملحوظا على المستوى الإداري، حتى صارت جهازا غاية في التنظيم والتعقيد. وكان ديوان الإنشاء أحد أهم أقسام الجهاز الإداري للدولة. على أن تنظيم ديوان الإنشاء لم يقف عند حد القواعد واللوائح التي تحدد نظام العمل والسلوك، بل وضعت قواعد للغة

(1) Adrian Gully, Epistles or Grammarians: Illustrations from the insha Literature," British Journal of Middle East Studies 23, no. 2 (Nov. 1996): 147-48; Maaike Van Berkel, A Well-mannered Man of Letters or a Cunning Accountant: Qalqashandi and the Historical Position of the katib," Masaq: Islam and the Medieval Mediterranean 13 (2001): 87-95.

المستخدمة، والتى تعكس التراتبية والثقافة الرفيعة. والمعنى، أن لغة الإدارة كانت مرتبطة بطبيعة الإمبراطورية. وهناك بعض المراسلات الصادرة عن ديوان الإنشاء، التى كانت موضع دراسة ونشر، وحتى وإن كانت صادرة فى أواخر القرن الخامس عشر، فإنها ظلت تحافظ على قواعد تراتبية اللغة. وهناك وثيقة نشرها جون وانسبرو John Wansbrough وهى عبارة عن رسالة من السلطان قايتباى (ت١٤٩٦م) إلى دوق البندقية، تبين الأهمية التى كانت تولى لبروتوكول اللغة، والتى تضمنت ألقابًا شرقية تعظيمية مطولة ومدحًا، ومقفاة[١].

من ناحية أخرى، طرح كتاب ومفكرو ذلك العصر رؤى شبيهة، تضع شروطًا مشابهة لما يجب أن يتصف به الأدباء. ويحدد ابن نباتة (ت. ١٣٦٦م) السمات النموذجية التى يجب أن يتصف بها الأديب، وهى أن يكون خبيرا فى اللغة والنصوص القديمة والشعر. وهى صفات مشابهة لتلك التى وضعها القلقشندى لما يجب أن يكون عليه الكاتب[٢]. كان هناك أيضا تطابق بين اللغة التى وضعها القلقشندى، وبين لغة الصكوك الصادرة فى عصره (القرن الخامس عشر)؛ ويفسر عماد أبو غازى هذا التطابق بأنه تأثير القواعد الديوانية على كتابة تلك الصكوك، والذى تمثل فى كثرة الألقاب والصفات التبجيلية الطويلة والمركبة التى صاحبت أسماء الأشخاص، كان الغرض من ذلك هو التعريف الدقيق للأشخاص، ولكنها فى نفس الوقت تسير وفق البروتوكولات المحددة لكتابة الصكوك والتى تعكس تراتبية السلطة والنفوذ[٣].

---

(1) John Wansborough, A Mamluk Letter of 877/1473," Bulletin of the School of Oriental and African Studies 24, no. 2 (1961): 200-13.

(2) Thomas Bauer, Mamluk Literature: Misunderstandings and New Approaches," Mamluk Studies Review 9, no. 2 (2005): 105-32; Jo Van Steenbergen," Qalawunid Discourse, Elite Communication and the Mamluk Cultural Matrix: Interpreting a Fourteenth-century Panegyric," Journal of Arabic Literature 43, no. 1 (2012): 1-28.

(3) Emad Abou Ghazi, Observations sur la langue a travers l'etude des actes notaires de l'epoque mamelouke," Égypte/Monde Arabe 27-28 (1996): 147-56.

وإلى جانب مكانته باعتباره مؤسسة إدارية حكومية مهمـة، فإن ديوان الإنشاء ظل لفترة طويلة يضع قواعد الكتابة؛ وبخاصة قواعد ونماذج الإنشاء الأدبي، وكان كُتّاب الديوان هم النموذج لما يجب أن يكون عليه المتعلم تعليما أدبيا. ارتبطت اللغة بالسلطة، وبالإمبراطورية؛ وعكست الرسائل الرسمية التي سطرها الكتاب سلطة السلطان. إن الأهمية التي اتخذتها اللغة في علاقات السلطة عامة، وفي الإدارات الحكومية وديوان الإنشاء بوجه خاص، قد عكست سلطة الإمبراطورية وقوتها[1]. ويمكن الربط ما بين اللغة المستخدمة في ديوان الإنشاء وبين الثقافة الرفيعة لذلك العصر.

كانت هناك نقطة تحول مهمة في موضوع ولوج اللغة العامية إلى النصوص المكتوبة، عندما بدأت الدولة المملوكية في طور التحلل والزوال. وعند منتصف القرن الخامس عشر، تكاثرت وتتابعت أزمات الدولة المملوكية، وسرى الوهن في أوصالها، وبدأ التذمر من سلوك الإدارة، واتهمها البعض بأنها تساهلت في شروط ومؤهلات موظفيها، ومن ثم تسرب إلى دواوينها موظفون غير مؤهلين، ولم يكونوا على المستوى المطلوب من التعليم، وفي بعض الأحيان تولى بعض الحرفيين وظائف ديوانية. ويمثل هذا الاتجاه حالة أبي الخير النحاس (ت. ١٤٥٩م)، الذي بدأ حياته حرفيًا (نحاسًا)، ثم تدرج في المناصب الحكومية حتى صار، حسب تعبير المؤرخ ابن تغري بردي، "أكثر الناس نفوذا في المملكة"[2].

كان ذلك عرضا لتغيرات أخرى. حيث حدث تغير آخر في بنية هيراركية الإدارة، حيث كان رجال القلم يشكلون قمة هذه التراتبية، ولكن هذه الفئة بدأت تتاكل بدورها، بعد أن انخرط فيها أشخاص أقل كفاءة، وبنهايات العصر المملوكي قل نفوذ رجال القلم ودورهم في المنظومة الإدارية. وبالمثل، كان مصير ديوان الإنشاء، حيث انتهى

1- Bruna Soravia, Les manuels a l'usage des fonctionnaires de l'administration ("Adab al-Katib") dans l'Islam classique," Arabica 52, no. 3 (July 2005): 425-26.

2- Richard Mortel, The Decline of Mamluk Civil Bureaucracy in the Fifteenth Century: The Career of Abul-Khayr al-Nahhas," Journal of Islamic Studies 6, no. 2 (1995): 174; Doris Behrens Abuseif, Craftsmen, Upstarts and Sufis in the Late Mamluk Period, Bulletin of the School of Oriental and African Studies 74, no. 3 (October 2011): 375-95.

دوره بوصول العثمانيين إلى مصر عام ١٥١٧م، حيث كان الديوان الرسمى للدولة فى مدينة إستانبول. وبنهاية ديوان الإنشاء، اختفت المؤسسة المرجعية فى علوم الإنشاء الأدبية، والتى كانت تقدم وترعى هذا الفن. ومن ثم قل بشكل ملحوظ عدد هؤلاء الكتاب المحترفين للغة الراقية المؤسسية، بعد أن تحولت أنشطة مؤسسة الإنشاء إلى إستانبول. على أن البقية التى استمرت فى ممارسة علم الإنشاء، كانوا يمثلون فئتين: الأولى، هى تلك التى استمرت فى العمل فى الهيكل الإدارى لمصر فى العصر العثمانى، بعد أن تقلصت مكانته وحجم العمل فيه. والثانية، أولئك الذين عملوا بخدمة وجهاء أو أثرياء؛ وبالإجمال فقدت فئة الكتبة مكانتها الاجتماعية. ونادرا ما يرد ذكر هؤلاء الكتاب فى حوليات القرنين السابع عشر والثامن عشر، فى حين كانوا ملء السمع والبصر فى حوليات القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

بعد سقوط الحكم المملوكى فى عام ١٥١٧، بدأت فى الصعود ثقافة إمبراطورية عثمانية بعد أن انتقل الجهاز الإدارى للدولة من القاهرة إلى إستانبول عاصمة الإمبراطورية. فبعد نجاح الحملات العسكرية التى قادها السلطان سليم (ت. ١٥٢٠م)، والتى كان من نتائجها احتلال مصر وبلاد الشام، وكذلك حملات السلطان سليمان (ت. ١٥٦٦م)، توسع الجهاز الإدارى للدولة فى إستانبول وصار أكثر تعقيدا. وصاحب ذلك تطور مماثل فى مجال الكتابة، كانعكاس لارتباط الإمبراطورية بالكتابة واللغة. ونتج عن ذلك تزايد عدد الحوليات العثمانية بعد أن ترسخت أقدام الإمبراطورية العثمانية. وأصبحت هناك وظيفة رسمية مسماها "مؤرخ البلاط العثمانى". وكتبت حوليات كثيرة، مثل حوليات كمال باشا زاده (ت. ١٥٣٤م)، وغطى تاريخه المكون من عشرة مجلدات، تواريخ عشرة سلاطين. وربما كان أهم مؤرخى البلاط العثمانى هو المؤرخ مصطفى نعيمة (ت. ١٧١٦م)[1]. أما حوليات أواخر القرن السادس عشر، فقد استخدمت

1- Gabor Agoston and Bruce Masters, Encyclopedia of the Ottoman Empire (New York: Facts on File, 2009), 154.

أسلوبًا أدبيا بلاغيا، وتقول كريستينا وودهيد Christine Woodhead، إنه كان متأثرا بقوة بالأدب الفارسي، وإن هذه الحوليات كانت تهدف إلى أن تكون "صوت البلاط"(١).

والمفارقة أن التطور الذي شهدته اللغة في عاصمة الإمبراطورية العثمانية خلال ذلك العصر، تبدو على النقيض مما كان يحدث في القاهرة عندما كان النظام المركزي المملوكي في القاهرة آخذا في الزوال. ففي عاصمة الإمبراطورية العثمانية كانت هناك لغة رسمية آخذة في التشكل في حدود عام ١٦٠٠م، اعتمادًا على جذرها الأقدم وهو العامية التركية للأناضول. كانت اللغة العثمانية في مرحلة التطور إلى لغة رسمية كلغة للإدارة والأدب. كانت لغة تلبي احتياجات الإمبراطورية وجهازها الإداري، لغة منقحة ورسمية، ومختصة بجمهور محدد؛ ومن ثم فهي تعكس السلطة والتراتبية. وبالإضافة إلى ذلك، كان على العاملين في دوائر البلاط العثماني أن يعرفوا اللغة الفارسية، وأن يكونوا قد نالوا قسطا من تعلم الأدب، ومن ثم يمكنهم أن يقدروا الشعر وحسن الخط.

مع نهايات القرن الخامس عشر، بدأت الإمبراطورية المملوكية في التآكل التدريجي، وبدأت تتآكل معها مظاهر قوتها، المتمثلة في التراتبية القوية، والتركيز على الطقوس والبروتوكول واللغة. كان انتقال مركز الإمبراطورية من القاهرة إلى إستانبول، يعني تحول القاهرة من عاصمة الإمبراطورية إلى عاصمة إقليمية. ومن ثم فقدت الرموز والمظاهر والتراتبيات الخاصة بالسلطة والإمبراطورية بعضًا من قوتها.

ونتج عن هذا التغير نتائج عديدة، يمكن تتبع إحداها في مجال كتابة الحوليات. لقد جمعت الحوليات التاريخية المملوكية، والتي وصفها طريف الخالدي وصفا دقيقا بأنها "حوليات إمبراطورية بيروقراطية"، ما بين المعرفة التاريخية والسلطة(٢). فعلى سبيل المثال، تميزت الحوليات التي كُتبت في أوائل القرن الخامس عشر، بأنها تبدأ في بداية كل عام تؤرخ له، بذكر قائمة بأصحاب المقامات الرفيعة في الإمبراطورية، بنظام تراتبي؛ حيث تبدأ بذكر اسم السلطان، ثم بعده كبار رجال الدولة في ترتيب تنازلي.

---

(1) Christine Woodhead, Reading Ottoman Sehnames: Official Historiography in the Late Sixteenth Century." Studia Islamica 104-105 (2007): 67-68.

(2) Tarif Khalidi, Arab Historical Thought in the Classical Period (Cambridge: Cambridge University Press, 1996), 183-84.

لقد كانت التراتبية شيئًا مهما فى ذلك العصر، انعكس على طريقة كتابة الحوليات. أما فى بداية القرن السادس عشر، لم نجد هذا النمط من الكتابة، فنجد المؤرخ ابن إياس قد سار على النهج التقليدى فى رصد هذه الهيراركية فى بدائع الزهور، ثم تحول عنها فى المجلد الأخير من حولياته؛ حيث كانت الهيراركية قد تفككت. وفى دراسته عن أواخر العصر المملوكى وبدايات العصر العثمانى، كما جاءت فى حولية ابن إياس، يرصد بنيامين ليلوش Benjamin Lellouch تغيراً فى اللغة مرتبطًا بالتآكل الذى لحق ببنية السلطة المملوكية. حيث إن ضياع هذه التراتبية دفع إلى استخدام لغة مباشرة غير بروتوكولية. وصار الحديث المباشر واللغة العامية أكثر استخداما عند ابن إياس وهو يحكى قصة سقوط المماليك وزوال سلطتهم[1]. يظهر ذلك أيضًا فى عمل اثنين من كتاب الحوليات فى أواخر القرن الخامس عشر، حيث تنقلا ما بين العامية والفصحى فى كتاباتهم؛ فنجد ابن الصيرفى فى كتابه نزهة النفوس يمزج ما بين العامية والفصحى، وكذلك الحال عند ابن الحمصى[2]. هؤلاء الكتاب كانوا بمثابة النذير لما سيأتى بعدهم من كتابات بشكل عام، وحوليات القرنين السابع عشر والثامن عشر بشكل خاص، حيث زاد استخدام اللغة العامية فى تلك الكتابات.

سيظهر فى القرون التالية كيفية سيطرة هذا النهج على الحوليات التاريخية، وستظهر آثار انفصال تلك الحوليات عن السياق الإمبراطورى فى مضمونها ولغتها. حيث ستتخذ رؤية كتاب الحوليات اتجاهًا آخر، بعد أن توارت مكانة الإمبراطورية. ومن ثم، لم تكن الحوليات التى كتبت فى مصر وبلاد الشام فى القرنين السابع عشر والثامن عشر حوليات إمبراطورية، ولم تكن موجهة لتعكس السلطة الإمبراطورية،

(1) Benjamin Lellouch, Le telephone arabe au Caire au lendemain de la conquete ottomane: on-dits et rumeurs dans Ibn Iyas," Revue du monde musulman et de la Méditerranée 75-76 (1995): 117-30.

(2) Carl Petry, Protectors or Praetorians: The Last Mamluk Sultans and Egypt's Waning as a Great Power (Albany: State University of New York Press, 1994), 6-8.

كمثيلاتها فى العصر المملوكى. ونتيجة لذلك، تغيرت أيضا طريقة تصوير هذه الحوليات للمجتمع. حيث كان هناك اتجاه للتركيز على الأحداث اليومية العادية للناس العاديين. ويتضح هذا الاتجاه بالأكثر فى الحوليات الشامية. إذ نجد أمثلة على ذلك فى عمل ابن الطوق (ت. ١٥٠٩م)، وهو كاتب محكمة (موثق) شامى، عاش فى دمشق أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر. وأول ما يلفت النظر فى عمل ابن طوق هو الحضور الطاغى للراوى. يتحدث ابن طوق عن الشجارات العائلية، ويخبر قراءه بأن زوجته وأبناءه قد ذهبوا إلى الحمام العام[1]. لقد كان عمل ابن طوق عبارة عن يومياته الشخصية، وكذلك رصده للأحداث العامة التى شهدها بنفسه. ومن خلال هذه المذكرات سجل ابن طوق مواقف وأحداثًا كثيرة تتعلق بأصدقائه، وجيرانه وأسرته؛ وفى روايته للأحداث مال ابن طوق إلى كتابة لغة أقرب إلى لغة الكلام اليومية. كما تميزت طريقته فى الكتابة بدرجة كبيرة من التلقائية، وعدم التقيد بالتقاليد الرسمية للكتابة، ويبدو أن هذا الشكل غير الرسمى من الكتابة كان من خصائص الكتابة بالعامية.

ويظهر هذا الاتجاه أيضا، بدرجات متفاوتة، فى كتابات الكتاب الشاميين المتأخرين، مثل البديرى الحلاق (ت. ١٧٦٢م)، وابن كنان (ت. ١٧٥٤م). تسجل هذه الكتابات أحداثًا عامة ذات طابع سياسى، مثل تعيين والٍ جديد، أو كوارث طبيعية، مثل الزلازل أو الأوبئة. ولكن الجديد فى هذه الكتابات هى اهتمامها بتسجيل وقائع وأحداث كثيرة ذات طبيعة خاصة، وتوسعت فى هذا المجال. وعلى سبيل المثال سجلوا أحداث وفاة الأقرباء، أو خروجهم فى نزهة مع صديق، أو زيارة عائلية[2]. يتحدث

---

(1) Stephan Conermann and Tilman Seindensticker, "Some Remarks on Ibn al-Tawq's (d. 905/1509) Journal. al-Ta'liq, vol. 1 (885/1480- 890/1485)," Mamluk Studies Review 11, no. 2 (2007): 121-35.

(2) Dana Sajdi, "A Room of His Own: The 'History' of the Barber of Damascus (fi. 1762)," MIT Electronic Journal of Middle East Studies 3 (Fall 2003): 19-35;

محمد بن كنان الصالحى: يوميات شامية؛ نشر وتحقيق أكرم حسن العلبى، دمشق: دار الطباع، د. ت؛ ابن الطوق، شهاب الدين أحمد: يوميات شهاب الدين أحمد بن طوق؛ نشر وتحقيق الشيخ جعفر المغير، ثلاثة مجلدات، دمشق: المعهد الفرنسى للشرق الأدنى، ٢٠٠٠-٢٠٠٤م.

البديرى الحلاق، عن مهنته الحلاقة، فى إطار حديثه عن تاريخ دمشق خلال الفترة من ١٧٤١م إلى ١٧٦٢م، ويأتى على ذكر أخبار عن حلاقين آخرين، ثم يذكر معلمه الذى تلقى عنه مهنة الحلاقة، وأخبارًا أخرى عن طائفة الحلاقين بدمشق. كذلك الأمر عند ابن كنان، فبالإضافة إلى تسجيله للأحداث العامة والسياسية، سجل ابن كنان معلومات كثيرة لها طبيعة شخصية أكثر، فمثلا يتوقف عند زواج ابن الخطيب، ويذكر حفل زواج كان قد دُعى إليه، أو حفل زواج ابنه ونص الدعوة التى أرسلها إلى أصدقائه، وكذلك زيارته إلى أحد أصدقائه، أبى يوسف على، وقضاءه خمس ليال فى ضيافته، واستمتاعه بتفتح الزهور وهو هناك[١]. لقد تضمنت هذه الكتابات إشارات إلى الذاتية: ذات المؤلف أو أسرة بعينها. لقد بدا واضحا أن هذا السياق كان مرتبطا بكتابة يطغى فيها الجانب الشخصى. وهذه الكتابات الشخصية كانت متصلة بزيادة استخدام لغة غير رسمية. وهذا الأمر يعنى لدى بعض هؤلاء الكتاب أن مستوى اللغة قد نزل إلى مستوى آخر أقل؛ مستوى أقرب إلى لغة الكلام، حتى ولو كان ذلك على حساب صحة اللغة وسلاستها[٢].

علامة أخرى بارزة، اللغة والتجارة

تحدثنا عن عوامل محلية وإقليمية كانت لها تأثيرات على طرق كتابة النصوص، ولكن كانت هناك أيضا بعض العوامل الدولية التى ظهرت فى الفترة ما بين ١٥٠٠ و١٨٠٠م، كانت لها آثار أيضا.

---

(١) محمد بن كنان الصالحى: يوميات شامية؛ نشر وتحقيق أكرم حسن العلبى، دمشق: دار الطباع، د. ت. ص ٤٣٨، ٤٧٨.

(2) Nelly Hanna, "The Historiography of Ottoman Egypt: History or Entertainment?" in The Historiography of Islamic Egypt (c. 950-1800), ed. Hugh Kennedy (Leiden: Brill, 2001), 237-50.

فالتغير الذى لحق باللغة فى مصر فى حدود عام ١٦٠٠م، كان جزءاً من تحولات أوسع مست دولا عديدة عبر العالم. كان لهذا التغير نظائر فى عدد من الأقاليم عبر العالم، ووقعت جميعها فى نفس الفترة الزمنية تقريبا، أى خلال فترة قرنين أو ثلاثة قرون فى الفترة من ١٥٠٠ وحتى ١٨٠٠م. وعلى ذلك يمكن ربط هذا التطور بالتحولات الأوسع نطاقا التى شهدها العالم خلال هذه الفترة؛ حيث تأثرت مناطق عدة، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، باتساع وازدهار التجارة الدولية. فيما يتعلق بالهند وجنوب آسيا، بين لنا شيلدون بولوك Sheldon Pollock أن الكُتاب فى مناطق مختلفة فى جنوب آسيا تحولوا إلى استخدام اللغة المحلية فى الأغراض الأدبية، بدلاً من اللغات ذات الطابع العالمى، مثل اللغة السنسكريتية التى كانت هى المهيمنة على الأعمال الأدبية لقرون عديدة[(١)]. كانت هناك بالطبع عوامل سياسية واقتصادية وثقافية وراء هذا التحول عن استخدام لغة واحدة جامعة، وهى السنسكريتية، وهذه العوامل كانت لها نظائر مشابهة فى مصر وبلاد الشام، حيث بدأت اللغة العربية الوسطى تحظى باهتمام متزايد وتكتسب شكلا من الشرعية والقبول. وبدءًا من القرن السادس عشر، وبالأكثر فى القرن الثامن عشر، كان هناك زيادة فى حجم التجارة الدولية، وبخاصة التجارة بين المناطق المتباعدة جغرافيا. وفيما يتعلق بمصر، كانت هناك زيادة ملحوظة فى تجارة الترانزيت الخاصة بالبضائع الشرقية، وبالتحديد البن، والذى صار بضاعة شهيرة فى كل المناطق، وكذلك المنسوجات الهندية، والتى تزايد الطلب عليها فى الإمبراطورية العثمانية وأوروبا. كان من جراء ذلك أن كون تجار البن والمنسوجات الهندية ثروات هائلة مكنتهم من الارتقاء فى السلم الاجتماعى[(٢)]. كان هناك أيضا

---

(1) Sheldon Pollock, "The Cosmopolitan Vernacular," The Journal of Asian Studies 57, no. 1 (Feb. 1998): 6-37.

(٢) لا تزال دراسة أندريه ريمون حول الحرفيين والتجار هى المرجع الرئيسى عن تجارة البن العابرة فى مصر فى تلك الفترة.

زيادة فى حجم التجارة فى البضائع المحلية. كل ذلك يعنى أن هذه الظروف أتاحت لأناس كثيرين أن يكون لهم علاقة ما، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، مع التجارة. ويعنى أيضا أن الزيادة فى حجم الأنشطة التجارية استلزم بالضرورة تزايد أهمية تنظيم السجلات التجارية المالية، وأهمية مهنة مسك الدفاتر والكتبة المؤهلين لهذه المهنة. ويقول بيتر جران Peter Gran إن هناك علاقة ما بين التطور الذى شهدته القاهرة فى القرن الثامن عشر فى مجال الثقافة التجارية، وما بين الزيادة فى استخدام لغة عملية فى المجال الأكاديمى. إن زيادة النشاط التجارى كانت له آثار تخطت مجال الاقتصاد وطالت مجالات أخرى، وبشكل خاص، أثرت فى الثقافة وبنية المجتمع[١].

كان التوسع فى حجم التجارة من بين مجموعة من العوامل التى ارتبطت بالتحول الذى شهدته اللغة فى مناطق مختلفة من العالم، والمتمثل فى الاتجاه نحو اللغات المحلية. وعمليات التحول هذه التى رصدناها فى مصر، كان لها نظائر مشابهة، فى نفس الوقت تقريبا، فى مناطق أوسع عبر العالم. بالطبع كان لكل منطقة ظروفها الخاصة التى أفضت إلى هذا التغيير. وفيما يتعلق باللغات التى كانت مرتبطة بالكتابات الدينية، مثل اللاتينية والسنسكريتية، توارت هذه اللغات وحلت محلها اللغات المحلية فى هذا المجال، فرأينا ظهور الكتاب المقدس بلغات عامية مع انتشار البروتستانتية فى أوروبا فى القرن السادس عشر. وتبع ذلك ظهور أعمال عديدة كتبت بالفرنسية والإيطالية، بدلا من اللاتينية. وعلى سبيل المثال، بدأ العلماء يستخدمون اللغات المحلية فى كتاباتهم: استخدم جاك بيلتييه Jaques Peltier اللغة الفرنسية ليكتب كتابا فى الجبر، بينما كتب جاليليو (ت. ١٦٤٢م) باللغة الإيطالية. على أنه يمكن فهم التحول إلى اللغات المحلية بأنه كان محاولة للوصول إلى جمهور أوسع من القراء، وإذاعة معلومات مفيدة بدلا من حفظها سرا، كما جرت العادة فى العصور السابقة.

---

(١) بيتر جران: الجذور الإسلامية للرأسمالية، ص ١١٦، ١١٧.

وفى نفس الوقت تقريبا بدأ كتاب كثيرون فى الهند فى التحول إلى استخدام لغات محلية فى الأعمال الأدبية، بديلاً عن اللغة السنسكريتية ذات الطابع العالمى الجامع. ومع هذا الاتجاه المتزايد نحو استخدام اللغات المحلية فى الأعمال الأدبية، فإن اللغة السنسكريتية ظلت، شأنها شأن اللغة العربية الفصحى، محافظة على مكانتها كلغة التواصل الأكاديمى، وكلغة النصوص العلمية والأكاديمية(١).

وينطبق هذا الوضع، إلى حد كبير، على اللغة العربية الفصحى. حيث ظلت العربية الفصحى هى النمط الغالب فى الكتابة، ولم تتمكن النصوص التى تجمع ما بين الفصحى والعامية، من إزاحة العربية الفصحى عن مكانتها. وعلاوة على ذلك، ظلت أنماط معينة من الكتابة لا تكتب إلا باللغة الفصحى، وهى تلك الكتابات المرتبطة بالعلوم الدينية. وبعيدا عن الكتابة الأكاديمية والعلوم الدينية حدث التحول من اللغة الفصحى إلى اللغة العربية الوسطى فى العديد من الموضوعات الأخرى.

ويبدو أن هذا الاتجاه نحو اللغات المحلية قد تخطى الحدود الجغرافية؛ حيث نجد نظائر مماثلة فى مناطق متباعدة جغرافيا، ولا تربط بينها حدود مشتركة. وليس بالضرورة أن تكون قد تأثرت ببعضها بعضًا، ولكن بالأحرى تعرضت هذه المناطق المتباعدة لنفس المؤثرات.

كانت هناك بعض العوامل التى أدت إلى تلك الكثافة غير العادية فى استخدام اللغة العربية الوسطى، فى حدود نهاية القرن السادس عشر وبدايات القرن السابع عشر. لقد كان هذا الأمر عرضًا من أعراض التغييرات العميقة التى شهدها المجتمع؛ حيث أصبح هذا النمط من التواصل كتابة نمطا شاملا يستخدمه قطاع عريض من الناس بعد أن كان قاصرا فى السابق على قطاعات بعينها من المجتمع. ومن ثم يمكن لنا أن نعتبره انعكاسًا لتحولات اجتماعية معينة.

---

(1) Sheldon Pollock, "The Language of Science in Early Modern India," in Forms of Knowledge in Early Modern Asia, ed. Sheldon Pollock (Durham, NC: Duke University Press, 2011), 7, 36-37.

يمكن لنا أن نلاحظ عددا من التطورات فى طرق استخدام اللغة العربية فى النصوص المكتوبة، فى بدايات القرن السابع عشر. حيث لم يقف الأمر عند انتشار اللغة العامية فى هذه النصوص، بل أصبحت أيضا تُستخدم فى أشكال وأنماط مختلفة من الكتابة، بواسطة جماعات اجتماعية مختلفة، بما فيهم أناس كانوا جزءا من المؤسسات التعليمية. واكتسبت اللغة العامية شرعية ما بوصفها لغة التواصل المكتوب؛ وهذا يعنى وجود إمكانيات أوسع فى طرق استخدامها كلغة تواصل مكتوبة. ويعنى أيضا أن التواصل كتابة أصبح متاحا بدرجة أكبر لقطاعات اجتماعية من خارج المؤسسات والنخب المتعلمة. من ناحية أخرى، كان توافر مستوى من اللغة يمكن التعامل بها بين قطاعات عريضة من المجتمع سببا لزيادة فرص الكتابة عن أمور عادية، سواء عن الناس العاديين أو عن موضوعات متعلقة بهم.

وعلى ذلك يمكن القول إن الاتجاه نحو قبول نصوص تستخدم لغة عامية بوصفها طرق تواصل شرعية يرجع إلى تاريخ أقدم مما افترضه شمويل موريه Shmuel Moreh؛ حيث يقول موريه إن الكتاب العرب بدأوا فى العصر الحديث فى استخدام تعبيرات عامية أو لهجات محلية فى كتاباتهم، تأثرا بالأدب الأوروبى. ويقول أيضًا إن الكتابة بالعامية لم تحظ بقبول أو شرعية إلا متأخرا جدا؛ حيث إن الأدب الشعبى والفولكلور كانا منبوذين فيما قبل العصر الحديث. ويربط موريه هذا التطور فى اللغة بحداثة القرن التاسع عشر، ويدعي بأن التطور الذى شهدته العامية العربية كان أوروبى المنبع[1]. والواقع أن تاريخ النصوص المكتوبة باللغة العربية الوسطى أكثر تعقيدا مما يُعتقد، ويعود تاريخها إلى قرون عديدة قبل القرن التاسع عشر. ولكن هذه النصوص لم تحظ بقبول وشرعية إلا فى القرن السابع عشر، أى قبل القرن التاسع عشر بمائتى عام. وهى كانت بالتأكيد المصدر لتلك التطورات التى يشير إليها موريه، والتى حدثت فى نهاية القرن التاسع عشر.

لقد تأثرت مناطق مختلفة من العالم بالتجارة، وظهرت فى تلك المناطق ثقافة تجارية، أتاحت نوعا ما من المرونة بين المشتغلين بالعلم وبين قطاعات أخرى فى

(1) Shmuel Moreh, Studies in Modern Arabic Prose and Poetry (Leiden: Brill, 1987), 63-64.

المجتمع، وهذا بدوره أثر فى عالم الكتابة. وخلال القرنين أو القرون الثلاثة اللاحقة، نلاحظ كثرة وجود أشخاص من خارج المؤسسات التعليمية انخرطوا فى مجال الكتابة. ففى بلاد الشام، ظهرت عدة كتابات تاريخية فى القرن الثامن عشر، كتبها أناس من خارج جماعة العلماء[١]. كان من بين هذه الأعمال التاريخية عمل البديرى الحلاق الذى ذكرناه سابقا؛ حيث كتب تاريخا لمدينة دمشق فى القرن الثامن عشر. وفى القاهرة هناك عمل عن الحرف فى القرن السابع عشر، بلغة عامية صرفة، يُعتقد أن مؤلفه أحد المشتغلين فى العلاج بالأعشاب[٢]. كذلك ظهرت فى القاهرة فى القرن الثامن عشر سلسة من الحوليات اصطلح على تسميتها "الحوليات العسكرية"، أو حوليات الدمرداشى، يعتقد أنها كتبت بواسطة أشخاص من الفرق العسكرية. ولقد لاحظ دانيال كريسيليوس Daniel Crecelius أن حوليات الدمرداشى كُتبت بلغة عامية مشحونة بالأخطاء الإملائية والأسلوبية، كما أن كاتبها استعار كلمات عديدة من اللغتين التركية والفارسية، وهذا بدوره يشير إلى مستوى معين من التعليم لدى كاتبها[٣]. واستنتجت مديحة دوس أيضا، من خلال دراستها لمخطوطة القنلى، وهى إحدى الحوليات العسكرية فى القرن الثامن عشر، أن الأخطاء الإملائية العديدة وطريقة بنية الجمل تشير إلى المستوى التعليمى المحدود لمؤلف هذه المخطوطة، والذى ربما لم يتجاوز التعليم الأساسى المتمثل فى الكتاب[٤]. كل هذه الأمور تشير إلى

---

(1) Bruce Masters, "The View from the Province: Syrian Chronicles of the Eighteenth Century," Journal of the American Oriental Society 114, no. 3 (July-Sept. 1994): 353-62.

(2) Doris Behrens Abuseif, "Une polémique anti-ottomane par un artisan au Caire au XVIIe siècle," in Études sur les villes du Proche-Orient, XVI-XIXe siècles: Hommage à André Raymond, ed. Brigitte Marino (Damascus: IFEAD, 2001), 55-63.

(3) Al-Damurdashi's Chronicle of Egypt, 1688-1755, Al-Durra al-Musana fi Akhbar al-Kinana, translated and annotated by Daniel Crecelius and Abd al-Wahhab Bakr (Leiden: Brill, 1991), 8-9.

(4) Madiha Doss, "Military Chronicles of Seventeenth-century Egypt as an Aspect of Popular Culture," in Proceedings of the Colloquium on Logos, Ethos, Mythos in the Middle East and North Africa, ed. K. Devenyi and T. Ivanyi (Budapest: Ötvös Loránd University Chair for Arabic Studies and Csoma de Koros Society, Section of Islamic Studies, 1996), 76.

الطرق المختلفة التى سلكتها اللغة العامية للولوج إلى النصوص المكتوبة. وتباينت هذه الطرق ما بين نصوص كتبها أشخاص على درجة عالية من التعليم، ولكنهم اختاروا أن يكتبوا نصوصًا بالعامية مع بعض فصول بلغة عربية سليمة، إلى نوع من العامية يحمل سمات مستوى ضعيف من اللغة.

كان هناك أيضا تطور مرتبط بهذه الظاهرة، وهو أن كتابات تلك الفترة بدأت فى الاهتمام بالأمور العادية وبالناس العاديين، وهذا التطور سيفضى إلى استخدام مستوى من اللغة أقرب إلى لغة الكلام الدارجة. من ناحية أخرى، بينت دراسة حديثة قامت بها كل من رشيدة شيح Rachida Chih وكاترين مايور Catherine Mayeur-Jouen أن كتابات المناجاة الذاتية كانت أكثر ارتباطا بالتصوف فى مصر فى العصور الوسطى والعصر العثمانى، ويبدو أن هذا الاتجاه شهد زيادة فى القرن الثامن عشر[1]. لم تكن الكتابات الشخصية والحكى الذاتى قصرا على أعمال الصوفية، ولكن نجدها مبثوثة فى فقرات داخل أنواع مختلفة من الكتابات. ويمكن أن نجد السير الذاتية داخل القواميس والمعاجم والتراجم وكتب التاريخ، متناثرة بين أشكال أخرى من المعلومات، مصوغة بلغة أقرب إلى لغة الكلام الدارجة[2]. وهناك تطور مماثل حدث فى أوروبا أيضا، وهو ظهور طرق مختلفة لكتابة الرسائل، ونصوص السير الذاتية، واليوميات والحكى الذاتى، ونسب الباحثون هذا التطور إلى أمور عدة: ظهور حركة الإصلاح البروتستانتية، عصر التنوير، بروز مفهوم الدولة، انتشار معرفة القراءة والكتابة، وانتشار الكتب[3].

---

(1) Rachida Chih and Catherine Mayeur-Jouen, "Le soufisme ottoman: Mise en perspective des enjeux historiographiques," in Le Sufisme à l'époque ottomane, ed. Rachida Chih and Catherine Mayeur-Jouen (Cairo: IFAO, 2010), 30.

(2) Nelly Hanna, "Self Narratives in Arabic Texts 1500-1800," in The Uses of First Person Writings: Africa, America, Asia, Europe, ed. François- Joseph Ruggio (Brussels: Peter Lang, 2013), 139-54.

(3) Philippe Aries, "Introduction," in A History of Private Life, Passions of the Renaissance, trans. from French by Arthur Goldhammer, ed. Roger Chartier (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1989), 2-4.

كان ذيوع العامية وانتشارها سببا لنشوء توتر بين فريقين مختلفين: الفريق الأول، وهو الفريق الداعم للحفاظ على أصالة اللغة العربية الفصحى ونقائها، ذلك المستوى من اللغة ذى الجانب العالمى الذى يمكن أن يفهمه كل مستخدمى اللغة العربية عبر العالم. والفريق الثانى، وهو فريق تبنى الموقف النقيض ودعم الشكل المحلى للغة، والذى من شأنه أن يوسع قاعدة الجمهور الذى يستخدم اللغة المكتوبة، وهذا الفريق لم يلق بالا بدقة اللغة وسلاستها. وظهر هذا الخلاف بطرق غير مباشرة فى بعض نصوص أواخر القرن السادس عشر أوائل القرن السابع عشر.

العامية فى قلب الأعمال الأدبية

بعيدا عن تلك المناقشات النظرية، سواء تلك المؤيدة أو المعارضة لاستخدام اللغة العامية، أو إدراجها كلغة مقبولة، توجد لدينا كثرة من تلك النصوص التى زاوجت ما بين العربية الفصحى والعامية. ويتجسد ذيوع اللغة العامية فى تلك الأشكال المختلفة من العامية التى وجدت طريقها إلى أعمال ذات طبيعة أكاديمية. كانت القواميس والمعاجم أحد هذه الأنماط الأكاديمية التى غزتها اللغة العامية، ولكنها لم تكن الوحيدة، حيث هناك أنواع أخرى من الكتابات تأثرت بهذا التحول نحو اللغة العامية، وهى كتب الحوليات والتواريخ، وبدرجة أقل بعض وثائق المحاكم الشرعية.

تزايد قواميس اللغة العامية

كانت إحدى السمات المميزة لتلك الفترة هى زيادة اهتمام الباحثين بقضية اللغة العامية، وتمثل هذا الاهتمام فى العدد الكبير من القواميس والمعاجم التى تناولت اللغة العامية. والواقع أن تاريخ اللغة العربية يحفل بظاهرة مماثلة فى بدايات العصر الإسلامى؛ فبعد اتساع رقعة العالم الإسلامى، تلاقت اللغة العربية مع لغات أخرى، ونتج عن هذا التلاقى دخول كلمات ومصطلحات غير عربية إلى اللغة العربية. وفى

حدود القرن العاشر الميلادى أولى بعض الباحثين اهتماما بهذا الأمر، وتصدوا لرصد هذه الألفاظ الدخيلة، وألفوا قواميس لغوية لحصر هذه المفردات الغريبة عن اللغة العربية، والتنبيه على تجنب استخدامها، حيث اعتبروها أشكالاً فاسدة من اللغة. كان اهتمام هؤلاء الباحثين هو الحفاظ على نقاء اللغة العربية وأصالتها، وعزل كل ما هو غريب ودخيل على اللغة الفصحى.

على أن الاهتمام بهذه القضية قل تدريجيا فى القرون اللاحقة، حتى إننا لا نجد إلا عدداً قليلا جدا من هذا النوع من القواميس فيما بعد القرن العاشر الميلادى. وعاودت هذه القضية الظهور من جديد فى حدود النصف الثانى من القرن السادس عشر. وظهر عدد كبير من القواميس والمعاجم التى تعالج قضية اللغة العامية. منها القاموس الذى ألفه رضى الدين يوسف بن حنبل (ت. ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م) ينتقد فيه لغة العوام[١] وعلى العكس منه ألف يوسف المغربى (ت. ١٠١٩هـ/ ١٦٤٠م) قاموسا يدافع فيه عن اللغة العامية. ثم جاء البكرى ليختصر قاموس المغربى، ويقصره فقط على الكلمات التى يستخدمها المصريون، ولها أصول فى اللغة الفصحى[٢]. وهناك أيضاً آخرون ألفوا قواميس لغوية ومعاجم تعالج قضية اللغة العامية، منهم الفقيه والقاضى شهاب الدين الخفاجى (ت. ١٦٥٩م)[٣]، ومحمد أمين المحبى (ت. ١١١١/١٦٩٩م)[٤]. انصب اهتمام قاموسين من هذه القواميس على لغة أهل مصر، واختلفا فى مواقفهما تجاهها؛ منهم من وافق عليها (المغربى) ومنهم من لم يوافق عليها (المحبى).

---

(١) رضى الدين يوسف بن حنبل: بحر العَوَّام فيما أصاب فيه العوام؛ تحقيق شعبان صالح، القاهرة: دار الثقافة العربية، ١٩٩٠م.

(٢) محمد بن أبى السرور الصديق الشافعى(ت ١٠٨٧هـ): القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب؛ تحقيق: هشام عبد العزيز وعادل العدوى، القاهرة: أكاديمية الفنون، ٢٠٠٦م.

(٣) شهاب الدين أحمد الخفاجى: شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل؛ تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجى، القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث، ٢٠٠٣م.

(٤) محمد أمين المحبى: قصد السبيل فيما فى اللغة العربية من الدخيل، مجلدان، تحقيق: عثمان محمد السينى، الرياض: مكتبة التوبة، ١٩٩٤م.

من بين تلك القواميس المختلفة، سنركز بعض الشيء على قاموس يوسف المغربي (ت. ١٦١٠م) "رفع الإصر عن كلام أهل مصر"، والذى حظى بنشرة حديثة بواسطة الباحثة الهولندية إليزابيث زاك Elisabeth Zack[1]. بدأ المغربي حياته حرفيا، كما يخبرنا هو عن نفسه، ومن ثم كان يعرف الكثير عن عالم الحرفيين، واللغة التى يستخدمونها فيما بينهم، سواء فى الأحاديث العادية أو عند الحديث عن الجوانب المهنية. وبعد فترة ترك المغربى عالم الحرفيين وانخرط فى دراسة العلوم الدينية بالأزهر، وهنا بعد إضافى فى شخصية المغربى؛ إذ دخل دوائر عالم العلم والتعليم. إضافة إلى ذلك، عرف المغربى اللغتين التركية والفارسية. كل ذلك أهله للترقى فى السلم الاجتماعى، ومن ثم اعتاد على المجالس والصالونات الأدبية لعلية القوم. وعلى الرغم من هذا التنوع فى الخبرات الحياتية والمعرفية، فإن موقف المغربى من اللغة كان واضحا؛ حيث استساغ شكلا من اللغة كان أكثر مرونة وقابلية فى الاستخدام، ومن ثم كان قاموسه بمثابة دفاع عن هذا المستوى من اللغة، وهى اللغة المنطوقة أو لغة أهل القاهرة.

تزايد الاهتمام بالقواميس اللغوية، وظهرت فى فترة زمنية قصيرة نسبيا عدة قواميس. وهذا التوجه له دلالة مهمة، إذ يعكس الجدل المحتدم آنذاك حول قيمة اللغة العامية فى مقابلة الفصحى؛ وهو أيضًا انعكاس لذلك الصراع أو التوتر بين ما هو محلى وما هو عالمى. وهذا الجدل يمكن أن يُفهم بأكثر من طريقة، فعلى المستوى الأوسع يمكن أن يمثل هذا الجدل أحد تجليات التحول نحو المحلية؛ حيث اعتبرت اللغة العامية أحد الأشكال المحلية للغة المنطوقة، فى مقابلة الفصحى، والتى كانت، من الناحية النظرية، مفهومة للمتحدثين بالعربية فى كل مكان. يمكن أيضًا أن يُفهم على أنه انعكاس لمستوى آخر من التوتر سببه ذلك التوسع الكبير فى عمليات التتجير التى

(1) Elisabeth Zack, "Colloquial Arabic in the Seventeenth Century: Yusuf al-Magribi's Egyptian Arabic Word-List," in Approaches to Arabic Dialects, ed. Martine Haak, Rudolf de Jong, and Kees Versteegh (Leiden: Brill, 2004), 373-90.

ميزت ذلك العصر. حيث انحاز هؤلاء الذين دعموا واستفادوا من عمليات التجير إلى مستوى من اللغة أكثر مرونة وأقل رسمية حتى تستقطب جمهورًا أوسع من الناس. فى مقابلة توجه تقليدى تتبناه المؤسسات التعليمية يهدف إلى الحفاظ على نقاء اللغة الفصحى فى شكلها التقليدى الأصيل. ومن ثم، يعد ظهور عدة قواميس مهتمة باللغة العامية فى فترة قصيرة زمنيا، انعكاسًا لتزايد قيمة الثقافة التجارية وأهميتها، والتى تمثلت فى التوسع فى استخدام اللغة العامية، أو اللغة العربية الوسطى فى الكتابة. يعكس أيضا أهمية الاهتمام بهذا التوجه، والذى شمل قطاعًا معينًا من المجتمع، سواء كانوا من المؤيدين أو المعارضين.

كانت هناك مقولة تتردد غالبا بين الباحثين، بأنه لم يكن هناك حوليات أو كتب تاريخ فى الفترة الممتدة ما بين ابن إياس فى بداية القرن السادس عشر، والجبرتى فى نهاية القرن الثامن. وكتب بيتر هولت Peter Holt مقالة قصيرة لدحض هذه المقولة، عدد فيها كتبًا تاريخية وحوليات ألفت فى تلك الفترة المزعومة. ولكن يشير هولت أيضًا إلى أن مستوى معظم هذه الكتابات كان متواضعا، سواء فى محتواها أو لغتها. ومن ثم لم تكن القضية عنده هى قضية عدم وجود هذه الكتابات، بل بالأحرى جودتها ومستواها(1).

وهذه هى إحدى القضايا التى أثيرت بين الباحثين مؤخرا، وهى أن العديد من حوليات العصر العثمانى كتبت بلغة هزيلة، أو أنها استخدمت اللغة العامية بدرجات متفاوتة. ويقول بعض الباحثين إن ذلك كان سببًا فى عدم نشر هذه الحوليات، وإن عددا من هذه المخطوطات تم نشره بعد تصويبه وتصحيحه.

من بين هذه المخطوطات مخطوطة مجهولة المؤلف والعنوان، وهى تدور حول تاريخ مصر فى القرن السابع عشر. تستخدم هذه المخطوطة اللغة العامية على نطاق واسع،

(1) Nelly Hanna, "The Chronicles of Ottoman Egypt: History or Entertainment?" in The Historiography of Islamic Egypt (c. 950-1800), ed. Hugh Kennedy (Leiden: Brill, 2001), 238.

وتظهر لغتها عدم إلمام مؤلفها باللغة العربية الفصحى، وفقا لما يقوله قمر الزمان يوسف Kamaruzaman Youssef الذى قام بدراسة هذه المخطوطة. وتوصل قمر الزمان إلى نتائج مماثلة بعد دراسته حولية أخرى مجهولة المؤلف فى نفس الفترة، تحمل عنوان "زبدة اختصار تاريخ مصر المحروسة"، حيث يمتلئ النص باللهجة العامية والمصرية، وكثرة الأخطاء الإملائية والنحوية[1]. سمى بيتر هولت تواريخ تلك الفترة بـ "التواريخ الشعبية" ووصفها بأنها كتبت بـ "عامية مخزية"[2]. ويشير بوجه خاص إلى عمل الغنيمى "نزهة الإعلام" (حوالى عام ١٦٣٠م)، وأنه كتب "بعامية فظيعة."[3] حتى عبد الرحمن الجبرتى، ذلك المؤرخ الكبير، والذى كان مثل والده على علاقة وثيقة بالأزهر، لم يتبع على الدوام قواعد اللغة العربية الفصحى، واستخدم أيضا أحيانا اللغة العامية، ولم يتورع عن استخدام ألفاظ خادشة للحياء، والتى ظلت باقية فى النص المطبوع، على الرغم من التصويبات والتصحيحات التى قام بها الناشرون.[4] يوجد الكثير من هذه النوعية من الكتابات، ولكنها لم تُنشر بعد، ولا يعرفها كثير من المؤرخين إلا من خلال أدلة المخطوطات العربية وفهارسها.

---

(1) Kamaruzaman Yusoff, "An Overview of the Ms., 'The Paris Fragment,' on the History of Ottoman Egypt in the Seventeenth Cent ury," Islamic Quarterly 48, no. 3 (2004): 222-37 and "An Overview of the Ms. Zubdat Ikhtisar Tarikh Muluk Misr al-Mahrusa,'"Islamic Studies 41, no. 2 (Summer 2002): 319-33.

(2) Peter Holt, "The Career of Kucuk Muhammad (1676-1694)," Bulletin of the School of Oriental and African Studies 26, no. 2 (1963): 270.

(3) Peter Holt, "Ottoman Egypt (1517-1798): An Account of Arabic Historical Sources," in Political and Social Change in Modern Egypt, ed. P.M. Holt, 3-12 (London: Oxford University Press, 1968), 6.

(4) Nagendra Kr. Singh and A. Samiuddin, eds., Encyclopedic Historiography of the Muslim World, vol. 1 (Delhi: Global Vision, 2003), 494.

وثائق المحاكم الشرعية

نوع آخر من الكتابات تصادفنا فيه العامية المكتوبة، هو سجلات المحاكم الشرعية. كان لمعظم مدن الإمبراطورية العثمانية سجلات للمحاكم الشرعية، وكانت هذه السجلات مخصصة لتسجيل كل القضايا والأنشطة اليومية للمحكمة. وتحتوى هذه السجلات على أنواع عديدة مختلفة من الوثائق القانونية: دعاوى، نزاعات، عقود زواج، قضايا أحوال شخصية، أوقاف، حجج لأنواع أخرى من التصرفات. ومن المفترض أن تكون هذه الوثائق القانونية قد كتبت بلغة عربية فصحى. تدرب كتاب المحكمة الذين صاغوا تلك الوثائق، على استخدام قوالب قانونية معينة. وكان على هؤلاء الكتاب أن يلموا بقواعد علم الشروط، وهو ذلك العلم الذى يقدم صنياغات وقوالب جاهزة لمختلف أنواع العقود والتصرفات. ومن المفترض أن هؤلاء الكتاب كانوا يهتدون بصيغ ومفردات علم الشروط وهم يكتبون الوثائق القانونية، سواء كانت عقود زواج، أو عقود بيوع وإيجارات، أو وقفًا، أو دعاوى ونزاعات.

وبمطالعة سجلات المحاكم يتضح لنا أن هذه القوالب قد اتبعت بدقة فى تلك الصكوك. حيث كانت هناك مجموعة من القواعد الملزمة لكتابة عقد زواج، على سبيل المثال، حيث يتعين على الكاتب أن يبدأ الوثيقة بطريقة معينة تسمى فى المصطلح الوثائقى "البروتوكول الافتتاحى" ثم متن العقد والمعلومات والبيانات الواجب ذكرها، والتى تتحقق معها صحة العقد القانونية، ثم البروتوكول الختامى للعقد. والعقود المسجلة فى سجلات المحاكم اتبعت هذه القوالب. ومع ذلك، نرى أن تلك العقود التزمت بلغة منضبطة فى الأجزاء البروتوكولية (الافتتاحى والختامى). بينما متن النص تضمن مستوى مختلفًا من اللغة. فنجد بعض الوثائق تتضمن تعابير ومفردات عامية، وفى بعض المناسبات ترد مفردات وتعابير تعبر عن لغة الحديث الدارجة(١). ويظهر هذا النمط بشكل خاص فى وثائق الدعاوى، حيث تكون هناك مساحة لنقل مضمون دعوى المدعى بألفاظه هو. كذلك تضمنت نصوص وثائق المحاكم كلمات غير عربية استعيرت

(1) Nicolas Michel, "Langues et ecritures des papiers publics dans l'Egypte ottoman." Égypte/Monde Arabe 27-28 (1996): 148-51.

من اللغة التركية، ثم عربت، منها على سبيل المثال "أوضة، أو أودة" بمعنى غرفة. أو كلمات عربية أضيفت لها نهايات تركية، مثل خردة، خردجي. بالرغم من أنه لم تكن هناك دراسة ممنهجة للغة المستخدمة فى سجلات المحاكم، فإنه من الواضح أن استخدام كلمات وتعابير عامية كان ممارسة عادية فى المحكمة.

لقد لاحظ عدد من الباحثين أن سجلات المحاكم الشرعية، فى مناطق مختلفة من الإمبراطورية العثمانية، استخدمت بين الحين والآخر لغة ضعيفة لا ترقى إلى مستوى اللغة الفصحى، ولكن لا توجد دراسات أكاديمية لهذا التوجه، ولا توجد محاولات لوضعه فى سياق توجه إقليمى. فعلى سبيل المثال لاحظ مانديفيل Mandaville أن اللغة العربية المستخدمة فى سجلات المحاكم الشرعية فى بلاد الشام والأردن تتضمن كلمات وتعابير عامية، فى حين أن الحالات التى كتبت باللغة التركية تتضمن أخطاء فى الإملاء والقواعد وبنية الجمل، وأرجع مانديفيل هذه الأمور إلى أن الكتاب كانوا على دراية متواضعة باللغة التركية[1]. وأحيانا عندما يكون الأمر متعلقا بتسجيل نص شكوى المدعى، ينقل كاتب المحكمة الدعوى بألفاظها، كما نطق بها المدعى، حتى وإن تضمنت ألفاظًا بذيئة ومبتذلة. نذكر منها حالة يعود تاريخها إلى عام ١٠٤٩هـ/ ١٦٣٩م، مسجلة بسجل محكمة بنى سويف، حيث يتهم رجل رجلا آخر بأنه سبه قائلاً: "يا عرص يا ابن القحبة يا ملفق"[2]، وفى حالة أخرى يرد النص على الوجه التالى، وأخبر زوجته "إن بتى هذه الليلة بمنزل والدتك هذا فانتى طالق بالتلاتة."[3] بالرغم من أن هذه الاقتباسات المباشرة لا ترد بكثرة فى سجلات المحاكم، فإن تسجيلها بهذا الشكل يهدف إلى جعلها أقرب إلى لغة الكلام الدارجة.

(1) Jon Mandaville, "The Ottoman Court Records of Syria and Jordan," Journal of the American Oriental Society 86, no. 3 (July-Sept. 1966): 313.

(٢) خالد سيد مرزوق (محقق): من وثائق بنى سويف فى العصر العثمانى، سجل من محكمة الباب العالى، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١٢ (سلسلة دراسات وثائقية، ٥) ص ٢١٨.

(٣) سجلات محكمة الباب العالى بدار الوثائق القومية بالقاهرة، سجل رقم ١٢٩، م ٤٧٥، ص ١٢٥ (١٠٦١هـ/١٦٥١م).

والخلاصة أنه فيما بعد عام ١٦٠٠م كانت اللغة العامية حاضرة بقوة فى الحوليات التاريخية، وسجلات المحاكم، والخطابات الرسمية، والوثائق الحكومية؛ بمعنى أنها كانت حاضرة تقريبا فى كل أنماط الكتابة، باستثناء النصوص المتعلقة بالعلوم الدينية، مثل الفقه والتقاليد، والتفاسير، وما إلى ذلك من فروع. لقد انتشرت اللغة العامية فى أنماط أكاديمية وغير أكاديمية من الكتابة، وأصبحت شكلا مقبولا من أشكال التواصل بالكتابة.

طريقة مبتكرة في استخدام اللغة العامية

منهجيات المغربي

يمكن تتبع سمات مبتكرة حدثت فى حدود عام ١٦٠٠م وبصفة خاصة سمات مهمة فى تاريخ اللغة العامية المكتوبة. وهناك عملان مهمان يوضحان هذه المبتكرات، الأول هو عمل يوسف المغربى، صاحب قاموس العامية الذى ذكرناه سابقا، والثانى هو عمل يوسف الشربينى المسمى "هز القحوف"، وهو أحد أشهر الأعمال فى نهاية القرن السابع عشر. ويمكن من خلال هذين العملين أن نرى بعضًا من هذه الطرق المبتكرة فى استخدام اللغة العامية، والمناهج المختلفة التى طبقوها فى استخدام هذه اللغة[1].

كان الهدف من قواميس العامية التى كتبت فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، هو فرز وتحديد الكلمات التى ليس لها أصول عربية، وعمد مؤلفا هذه

---

(1) Nelly Hanna. "History from Below, Dictionary from Below," in Innovations in Islam, Traditions and Contributions, ed. Mehran Kamrava (Los Angeles: University of California Press, 2011).

نللى حنا: ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية (ق ١٦م- ق ١٨م)؛ ترجمة: رءوف عباس، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٣، ص ١٩٦، ١٩٧.

القواميس إلى عزل هذه المفردات الدخيلة، وتنقية اللغة العربية منها. وهناك أيضا قواميس خصصت للتعريف بأخطاء العوام، سميت "لحن العامة" كان الهدف من تأليفها هو الحفاظ على نقاء اللغة العربية الفصحى. بينما انتهج قاموس المغربى نهجا مخالفا تماما؛ حيث قصد المغربى من تأليفه قاموسا للغة العامية أن يرسخ قدم هذه اللغة ويكسبها شرعية، وهو فى هذا السياق منهج مبتكر غير مألوف. والمثير فى الأمر أن رأى المغربى فى اللغة العامية كان مدعوما بمنهجه فى تناول الموضوع. ومن أجل هذا الغرض، اتبع المغربى منهجا مغايرا لمنهج القواميس التقليدية السابقة عليه. ففى تلك القواميس التقليدية، مثل قاموس ابن منظور أو الفيروزآبادى، اتبع مؤلفوها منهج الإسناد فى تعريف الكلمات، بأن يسرد عدداً من المصادر السابقة التى تناولت شرح هذه الكلمة. ومن ثم يتم شرح تعريف الكلمة فى ضوء المتوارث من التعريفات فى القواميس والنصوص الأقدم.

وعلى الرغم من أن المغربى يشير فى الغالب إلى مثل هذه القواميس القديمة، مثل قاموس الفيروز آبادى، فإنه استخدم أيضا طريقته الخاصة فى تعريف الكلمات. حيث كان مصدره فى عمله اللغة التى سمعها، وكما يتحدثها الناس، بغض النظر عن كونها تتفق أو لا تتفق مع اللغة الرسمية للكتب. اعتمد المغربى هذا المنهج، وعلاوة على ذلك، بنى المغربى تعريفه للكلمة على: "هذا ما سمعته"، أو "هذا كما يقولوها." كان مصدره فى تعريف الكلمات هو اللغة الدارجة، أو اللغة كما كان يستخدمها الناس، وليس فقط كما عرفها أسلافه. وفرق هذا المنهج بين الكلمات المستخدمة فى مصر، وتلك التى يستخدمها المغاربة، وتلك التى يستخدمها الأتراك. وضح المغربى أن كلمة بعينها قد تحمل معنى معينا عندما يتفوه بها أحد الأشخاص من أهل القاهرة، وتحمل معنى مغايراً إذا تفوه بها شخص مغربى. سمح له هذا المنهج أيضا بالتمييز بين الكلمات التى يستخدمها الخاصة، والكلمات التى يستخدمها العامة، بمعنى آخر، قسم المغربى المفردات وفقا للطبقة الاجتماعية، كل ذلك اعتمد بالأساس على ما سمعه هو. لم يكن عمل المغربى فقط منهجًا جديداً لطريقة دراسة اللغة، ولكنه كان تغيراً واضحًا فى

الموقف من اللغة. ابتكر هذا المنهج لكى يعطى مصداقية ووزنًا للغة المنطوقة، ولربطها بالنص المكتوب بهذه الطريقة الأسهل فى التعبير.

كتاب هز القحوف للشربيني

العمل الآخر البارز الذى كتب بالعامية فى القرن السابع عشر هو كتاب يوسف الشربينى الشهير. عندما كُتب هذا العمل فى حدود عام ١٦٦٠م بواسطة يوسف الشربينى، عنوانه هز القحوف. كل من درس الأدب العربى يعرف بأمر هذا الكتاب، وهو كتاب ضخم فى عدة مئات من الصفحات، وحظى بنشرات عدة فى فترات متباعدة، وأخيرا ظهرت نشرة حديثة مع ترجمة إلى اللغة الإنجليزية، قام بها همفرى ديفيز Humphrey Davies. وهو من بين الأعمال الأدبية القليلة جدا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر الذى حظى بالنشر أو الدراسة، حيث لا تزال غالبية أعمال «هذه الفترة مخطوطات محفوظة بالمكتبات. ولقد أشار كثير من الباحثين إلى تفرد كتاب هز القحوف»، وكان التفرد والتميز بسبب موضوعه، والذى يتمثل فى: الفلاحين فى الدلتا، وهو موضوع متميز غير مطروق من قبل، كذلك كان وجه التميز من وجهة نظر الباحثين أيضاً اللغة العامية المستخدمة فى الكتاب. ولكننا الآن نعرف أن استخدام اللغة العامية كان أمرا عاديا، وغير متفرد فى القرن السابع عشر، وأن اللغة العامية كانت مستخدمة بكثرة فى أنواع مختلفة من الكتابة، أدبية كانت أم أكاديمية.

وعلى الرغم من ذلك يظل هذا الكتاب غير عادى، ومتفرداً، بين تلك النصوص العديدة التى نعرفها، والتى استخدمت اللغة العامية. والتفرد هنا يأتى من أمر وحيد، وهو طول هذا النص، والذى بلغ فى أحدث نشراته قرابة الأربعمائة وخمسين صفحة، وبالتأكيد هو أطول نص كتب باللغة العامية. وحسبما يقول همفرى دافيز صاحب أحدث نشرة وترجمة لهذا العمل، يمكن اعتبار هز القحوف "أغنى مصدر قبل القرن التاسع عشر لدراسة اللغة المصرية." ولقد وجد دافيز فى هز القحوف قرابة السبعمائة

فقرة مكتوبة بالعامية[١]. وعلى الرغم من أن المعلومات الواردة بالكتاب تشير إلى أن مؤلفه كان متعلما، ودرس بالأزهر، وكان على دراية بالأعمال المهمة باللغة العربية، فإنه استخدم العامية بكثافة أكثر من كل معاصريه.

يعد العمل أيضا عملاً مبتكرا؛ حيث إنه تضمن عدة فقرات من كلام الفلاحين المباشر، وهو ما اعتبره بعض الباحثين لهجة الفلاحين، ونقل بدقة كلمات الفلاحين، وهى مختلفة عن لهجة القاهريين، التى وردت فى فقرات أخرى بالعامية فى الكتاب. ويقول الشربينى إنه استخدم نوعين من العامية: إحداهما اللغة الدارجة فى المدينة، والأخرى لغة أهل الريف[٢].

إن تحليل التطورات التى حدثت منذ عام ١٦٠٠م تقريبا تبين أنه كان هناك أكثر من مستوى فى العمل. الأول هو ذلك الجدل الصريح الذى عبر عنه هؤلاء الذين فضلوا الكتابة باللغة العامية، أو هؤلاء الذين اعتقدوا أن العامية لها نفس قيمة العربية الفصحى ووزنها. لقد كانوا قلة، ويعد يوسف الشربينى أحد أوائل الممثلين لهذا التيار. وبعد قرابة قرن من الزمان، اتخذ كاتب آخر يسمى محمد حسن أبو ذاكر نفس هذا الموقف، ولكن بتعبيرات أقوى وأوضح. وكتب أبو ذاكر مقطوعات نثرية فى حدود عام ١٧٥٠م، أوضح فيها أنه توجد جوانب إيجابية عديدة فى اللغة العامية، ودافع أبو ذاكر عن الشكل الحر للغة، والذى يسمح للكاتب بأن يعبر بسلاسة عما يريد أن يقوله. واعتبر أبو ذاكر أن اللغة ينبغى أن تكون مرنة وأن تعكس المعنى، بدلا من أن تتقيد بقواعد اللغة ونحوها. دافع أبو ذاكر بإخلاص عن التعبير الحر، وعن لغة متحررة غير مقيدة بأغلال القواعد الصارمة للتعليم المدرسى، ولا بالزخارف والمحسنات المرتبطة

(1) Humphrey Davies, ed., Yusuf al-Shirbini's Kitab Hazz al-Quhuf bi-Sharh Qasid Abi Shaduf (Brains Confounded by the Ode of Abu Shaduf Expounded), vol. 1 (Leuven: Peeters, 2005), xxxiii-xxxiv.

(2) M. Peled, "Nodding the Necks: A Literary Study of Shirbini's "Hazz al-Quhuf," Die Welt des Islam, n.s. 26, nos. 1-4 (1986): 57.

بقواعد الأدب رفيع المستوى. تخطت رؤية أبى ذاكر للعامية حدود اللغة؛ حيث اعتبرها بمثابة تعبير اجتماعى. لقد ساعدته اللغة على التعبير عن مواقفه، وكيفية تقبله للآخرين حوله. كتب أبو ذاكر بمستوى يمزج ما بين الفصحى والعامية، مستخدما بنية ومفردات الكلام المنطوق، وحـاول أن ينظـر، ولو قليلا، لطريقته فى الكتـابة هذه. مَثَّل كل من أبى ذاكر فى القرن الثامن عشر، والمغربى فى القرن السابع عشر الصوت الواضح المسموع للغة العامية، والدليل على شرعية نصوص العامية[1].

على الرغم من قلة أولئك الذين دافعوا عن استخدام لغة مرنة، فإن مستوى الممارسة يبرز صورة أخرى. فهناك أناس لم تكن تآلف المغربى أو أبا ذاكر، ولكنهم كانوا يستخدمون مزيجا من العامية والفصحى فى الكتابة، ربما كانت دوافعهم للكتابة بالعامية هى نفس الأسباب التى عبر عنها كل من الكاتبين، ولكنهم كتبوا بالعامية أيضًا تأثرًا بعوامل مجتمعية ساهمت فى ترسيخ توجه نحو العامية المكتوبة. وهذه العوامل كما شرحناها سابقا هى: التحول إلى المحلية فى مقابلة العالمية، وتآكل وجود الإمبراطورية، وأنماط الكتابة والأدب التى وضعها الجهاز الإدارى للدولة المملوكية، وازدياد عملية التتجير التى صاحبت ازدهار التجارة الدولية. ومن ثم، بدأ بعض الكتاب، فى القرن السابع عشر، يولون اهتماما باللغة المنطوقة وتحويلها إلى شكل مكتوب، ومن ثم ارتفعوا بالعامية حتى حازت درجة من القبول والشرعية. على الرغم من أن المغربى كان هو الصوت الوحيد فى بدايات القرن السابع عشر، بين علماء اللغة، المدافع عن العامية، فإننا نجد أن الكلام الدارج المباشر، واللغة العامية قد وصلت إلى القواميس والمعاجم والحوليات، والرسائل والوثائق القانونية، فهذا يعنى أن ما حدث فى الواقع هو الوضع فى الاعتبار وجهات نظر المغربى. ومن ثم، يمكننا القول بأن اللغة العامية قد أحرزت خطوة إلى الأمام فى القرن السابع عشر نحو قبولها شكلاً شرعيا من أشكال التواصل المكتوب. وحتى دون أن نربط ما بين استخدام العامية

---

(١) نللى حنا" ثقافة الطبقة الوسطى، ص ١٩٥.

المكتوبة وجماعات بعينها، يمكننا أن نتتبع بعض التوجهات فى القرنين السابع عشر والثامن عشر.

اللغة والطبقة

فى بدايات القرن السابع عشر، كانت اللغة العربية الوسطى مرتبطة بطبقة الذين تلقوا تعليما أوليا. واستمر توصيف اختراق العامية للنصوص المكتوبة على أنه دليل على محدودية تعليم الذين يستخدمونها. ولكن بعد أن حاز هذا المستوى من اللغة درجة من الشرعية، ذاع استخدامه بين طبقات مختلفة فى المجتمع.

عمالقة القرن الثامن عشر

فى القرن الثامن عشر، بدأ بعض من كبار المثقفين فى إدماج اللغة العامية فى كتاباتهم، إشارة إلى أن هذا المستوى من اللغة قد صار أحد الأشكال المعتبرة للغة العربية. ظلت العربية الفصحى هى الشكل الرسمى لكتابة العلوم الدينية، كالفقه والحديث والتفسير، ولكن فى الأعمال الأخرى، حازت اللغة العامية على درجة كبيرة من الشرعية.

وفى تلك الفترة كان الأزهر يتباهى بالدراسات اللغوية، ويفد إليه طلاب العلم من مناطق أخرى من العالم الإسلامى لكى يدرسوا علوم اللغة العربية؛ حيث بعض من أفضل المتخصصين فى اللغة العربية كانوا يقومون بالتدريس فى هذه المؤسسة. وربما يمكن فهم الأمر على أنه أمر متناقض أن تحظى اللغة الفصحى بهذا الاهتمام، وفى نفس الوقت تصبغ الشرعية على مستوى آخر من اللغة. ولكن لم يكن فى الأمر أى تناقض بعيون المعاصرين. وإلا سيكون من الصعوبة بمكان تفسير كيف أن بعضاً من هؤلاء المفكرين الكبار لم يستشعروا أى غضاضة فى استخدامهم للغة العامية.

من بين هؤلاء الكبار كان عبد الرحمن الجبرتى صاحب عجائب الآثار. فعلى الرغم من انتمائه، كوالده حسن الجبرتى، إلى نخبة العلماء المرتبطين بالأزهر، فإنه استخدم لغة تضمنت تعابير ومفردات عامية عديدة. وسجل الجبرتى فى حولياته الأشعار التى ألفها بعض معاصريه، من بينهم الشاعر الساخر الشيخ حسن البدرى الحجازى. وحفظ لنا الجبرتى معظم ما نعرفه عن شعر الحجازى. وهنا أيضا أورد الجبرتى الأشعار الحديثة التى استخدمت اللغة العامية بكثافة[1]. من ناحية أخرى ألقى كتاب الجبرتى الضوء على ظاهرة أخرى فى تلك الفترة؛ حيث كثيرا ما يشير الجبرتى إلى الرسائل المتبادلة بين المماليك، رسائل تسمى "التذاكر" أو "المكاتيب". وهذه الأنواع من الرسائل لم تكن فى شكل الرسائل التقليدية، بل كانت فى معظمها رسائل يتبادلونها لإخبار بعضهم بعضًا عن تطورات أو أخبار جديدة، أو للتحذير من أخطار قادمة. وعلى سبيل المثال، يحكى الجبرتى أنه فى أثناء الحرب الدائرة بين البيوت المملوكية عام ١١٢٣/١٧١١م، كان يتم التواصل كتابة بين الأحزاب المختلفة، لتبادل المعلومات حول الأوضاع، أو للتحذير من الخروج للشارع والبقاء فى المنزل، أو لإيقاف الحرب[2]. بعض من هذه الخطابات وصلت إلينا وهى قيد الدراسة الآن، ويقوم على نشرها ناصر إبراهيم. وهذه الخطابات كتبت بطريقة تستخدم العامية. وهذا أمر منطقى، أولاً، لم يكن جميع المماليك يعرفون اللغة العربية، ولم يكن جميعهم يألفون العربية الفصحى. ثانيا، يمكن أن نستنتج مما ذكره الجبرتى عن هذه المراسلات أنها كانت عبارة عن مذكرات قصيرة لنقل معلومة إلى صديق أو زميل، ولم تكن فى شكل الرسائل المنمقة التى تُتبع تقاليد معينة فى كتابتها[3]. لم يحاول الجبرتى أن يصحح اللغة المستخدمة فى هذه الأنواع المختلفة من الكتابات.

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، مجلد١؛ تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٩٨م، ص ص ٥٢-٥٥.

(٢) السابق، مج١، صص ٧٥-٧٦.

(٣) بعض هذه الرسائل وصلت إلينا، ويقوم على نشرها ناصر إبراهيم. وأكد لى ناصر أن اللغة المكتوبة بها هذه الرسائل تستخدم تعبيرات عامية.

هناك أيضًا مفكر آخر كبير فى القرن الثامن عشر، وهو مرتضى الزبيدى (ت. ١٧٩١م)، رجل على جانب عظيم من العلم، ومن بين علماء الأزهر المرموقين، ألف قاموسه الشهير تاج العروس فى ثمانية عشر مجلدا، وهو فى حقيقة الأمر ليس قاموسا فحسب بل يعد موسوعة علمية، وهو العمل الأكبر فى اللغة العربية. ولايزال هذا القاموس يعد أداة رئيسية فى اللغة العربية، ولكن للأسف، لم ينل حظه الكافى من الدراسة والعمل، سواء من قبل اللغويين أو المؤرخين، بالرغم من المجالات العديدة التى يتيحها هذا العمل للبحث والدراسة. كان الزبيدى عالما متبحرا فى علوم العربية الفصحى، ومتمكنًا لا مثيل له فى فقه اللغة[١]. ولكنه أدرج فى قاموسه عددًا كبيرًا من الكلمات العامية، قاربت على الألف كلمة، حسبما أشارت دراسة حديثة لعبد الجواد راغب[٢]. لم يقتصر الزبيدى على الكلمات العامية المتداولة فى القاهرة، بل أورد كلمات عامية كانت مستخدمة فى مناطق عديدة من البلاد الناطقة بالعربية التى سافر إليها الزبيدى، مثل اليمن، موطنه الأصلى. يعد هذا القاموس انعكاسا لتصور الزبيدى للعالم الإسلامى، ولقيمة البعد المحلى فى هذه الصورة. لم يتوقف الأمر على إيراده للكلمات العامية، ولكنه لم يتناولها بالنقد أو السخرية، ولم يعلق عليها بشكل سلبى أو يصفها بأنها أخطاء يجب تصويبها. على العكس، ضمن الزبيدى قاموسه هذه الكلمات العامية لأنها أصبحت راسخة داخل منظومة اللغة المكتوبة، ومن ثم قبل الزبيدى بصحتها. كان قاموس الزبيدى هو القاموس الأساسى المعول عليه لمدة قرنين من الزمان، ومن ثم يجب أن يُفهم ورود كلمات عامية فى مثل هذا القاموس فى سياق الأحوال الاجتماعية والاقتصادية لعصره. لقد كان عمل الزبيدى نتاجا لتطورات بدأت فى التشكل منذ القرن الثالث عشر، حتى أثمرت فى النهاية عن هذا الوليد.

---

(1) Stefan Reichmuth, The World of Murtada al-Zabidi (1732-91): Life, Networks and Writing (Oxford: Gibb Memorial Trust, 2009), vii.

(٢) عبد الجواد إبراهيم راغب: لغة العامة فى تاج العروس، القاهرة: مكتبة الآداب ٢٠٠٨.

لم يستنكف هؤلاء العلماء الكبار، الذين تربعوا على قمة الهرم الفكرى والتعليمى، من إدماج عناصر من اللغة العامية، بدرجات متفاوتة، فى كتاباتهم. وعلى الجانب الآخر من المشهد، كان من الطبيعى أن يستخدم اللغة العامية المكتوبة، أناس عاديون، لم يكونوا ضمن أى من مؤسسات التعليم، أو لم يكن لهم أى ارتباط بها.

الكتابة من أجل الناس العاديين

على الرغم من أن كلا من يوسف المغربى ويوسف الشربينى قد كتبا عمليهما بلغة بسيطة سهلة، متخففة من قواعد الفصحى ومعاييرها،. فإن العملين طويلان، ومن غير المحتمل أن يكونا قد عمدا إلى هذا النمط من اللغة لكى يتمكن من قراءته عموم الناس. وعلى الرغم من أن كتاب هز القحوف للشربينى يعج بالنكات والسخرية لتسلية القارئ، فإنه يشتمل على بعد فكرى، لا يظهر من الوهلة الأولى. ولكن هذا لا يمنع من وجود بعض النصوص التى كتبت بالعامية فى تلك الفترة، والتى كانت تستهدف هؤلاء القراء العاديين؛ حيث تميزت هذه النصوص بصغر حجمها وبساطة لغتها. فنجد على سبيل المثال أن طرائف جحا، قد تم نقلها من الشكل الشفاهى المحكى إلى الشكل المكتوب، وكذلك الأمر بالنسبة لكتب الحكايات والطرائف، وهذه الأعمال كان الغرض منها الترفيه والتسلية[1].

ويوجد لدينا أدلة إضافية على هذا النوع من الكتابات، الذى كُتب لكى يقرأه الناس العاديون، وهو أيضا دليل على مدى انتشار الكتابات العامية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر. هذه المرة هى كتابات منتشرة بين بعض الطوائف الدينية. أحد هذه الأمثلة قصة نثرية، كُتبت كلماتها باللغة العربية ولكنها مكتوبة بالأبجدية العبرية. ويعتقد هايكى بلفى Heikki Pelvi، الذى درس هذا المخطوط، أن هذا النص مأخوذ من الأدب الشفاهى الذى كان شائعا فى الوجه البحرى، حيث يسير النص على نهج

---

(١) نللى حنا: ثقافة الطبقة الوسطى، ص ١٨٦.

القصاصين المحترفين الذين كانوا يجوبون الأنحاء ليقصوا على مسامع جمهورهم السير والحكايات. النص كتب أساسا باللغة العامية، ولكنه تضمن عبارات قليلة جدا باللغة العربية الفصحى[١]. وهذا النموذج يبين أن انتشار اللغة العامية لم يقف عند حد الأعمال الأكاديمية، أو تلك الأعمال التى كانت تستهدف جمهورا من المتعلمين، بل انتشر أيضا بين جمهور آخر خارج مؤسسات التعليم، والجمهور هذه المرة كان من بين أعضاء الطائفة اليهودية بالقاهرة، ومعظم أعضاء هذه الطائفة معروف عنهم اشتغالهم بالتجارة والحرف. المخطوطة التى تتضمن هذا النص صغيرة، خمس عشرة صفحة، والنص قصير، واللغة سهلة وبسيطة. ونجد هذا النمط أيضا لدى الأقباط؛ حيث كُتبت سير القديسين باللغة العامية أيضا، وفى شكل الحكاوى التى يتلوها القصاصون، وكانت تُقرأ على مسامع الناس بأسلوب الحديث المباشر حتى تؤثر فى السامعين[٢]. سواء كانت هذه النصوص يقرؤها الناس أو تُتلى على مسامعهم، استخدمت لغة بسيطة سلسة يمكن أن يفهمها الشخص العادى، وكان الهدف من استخدام هذا المستوى من اللغة هو الوصول إلى جمهور أوسع.

كان هناك اعتقاد يتم التأكيد عليه مرارا بوجود قطيعة وانفصال ما بين اللغة العامية، بوصفها لغة غير المتعلمين أو أنصاف المتعلمين، واللغة الفصحى بوصفها لغة النخب المتعلمة؛ إلا أن تلك التطورات بعيدة المدى التى تتبعناها، تشير إلى عدم صوابه، وهشاشة حججه. وما من شك بوجود نصوص معينة كتبت باللغة الفصحى، كانت تتطلب مستوى معينًا من التعليم لفهمها والتعامل بها، ومن ثم كانت عصية على أولئك

(1) Heikki Palva, "Linguistic Notes on a Dialectical Seventeenth- Eighteenth century Egyptian Arabic Narrative," Oriente Moderne n.s. 80 (2000): 83-97.

(2) Febe Armanios, "Christian Copts in Ottoman Egypt: Religious Worldview and Communal Beliefs," PhD diss., The Ohio State University, 2003, 28-36.

الذين لم يبلغوا ذلك المستوى من التعليم؛ وهناك أيضا نصوص أخرى تشهد بأن مؤلفيها كانوا من أنصاف المتعلمين. على أن طريقة انتشار العامية وتطورها قد تجاوزت تلك الحدود الطبقية. إن تلك التطورات فى طريقة استخدام اللغة، أكثر تعقيدا من تلك الصورة السطحية التى تطرحها فكرة القطيعة هذه.

هل يعنى ذلك أن تلك التطورات كانت على حساب إهمال اللغة الفصحى؟ سجل جيمس جراهان James Grehan ملاحظات حول دمشق فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وهذه الملاحظات تنطبق أيضا على القاهرة. كتب جراهان يقول إن إتقان اللغة العربية الفصحى تحدثا وكتابة كان موضع تقدير واعتبار بين أفراد الطبقة المتعلمة. ويحدد محمد خليل المرادى (ت. ١٧٩١م)، وهو إحدى الشخصيات القيادية فى المؤسسة الدينية فى دمشق، معايير الباحث الماهر، فيقول : ينبغى عليه أن يتقن اللغة الفصحى إتقانا تاما، ويستخدم لغة راقية رفيعة فى أحاديثه (ناهيك عن كتاباته)، قادرا على اقتباس آيات من القرآن والنصوص الدينية الأخرى تناسب مقام حديثه(١).

إن هذا التطور الذى شهدته اللغة العامية وازدياد انتشارها، لا يعنى أنها حلت محل اللغة الفصحى أو زاحمتها مكانتها السامية، أو حتى قللت من اعتبارها. ولكن الأمر بالأساس مرتبط بإتاحة وخلق فرص أوسع لمستويات أخرى من اللغة، وهو تغيير وافق عليه البعض ودعمه، ورفضه البعض وقاومه.

نقطة تحول أخرى: ١٩٠٠م

إذا قيض لنا أن نكتب تاريخ الكتابات العامية، سيشكل عام ١٦٠٠م نقطة مهمة فى هذا التاريخ، كما تحدثنا سلفا، وستكون ثانى محطة مهمة هى العقد الأخير من

(1) James Grehan, "The Mysterious Power of Words: Language, Law and Culture in Ottoman Damascus (Seventeenth-Eighteenth Centuries)," Journal of Social History (Summer 2004): 995.

القرن التاسع عشر. فى عام ١٦٠٠ احتدم الصراع بين اللغة العربية الفصحى فى قالبها العالمى، وبين اللهجات المحلية، وتراوح هذا الصراع ما بين قبول ورفض. مرة ثانية تشهد اللغة تطورا آخر، ارتبط أيضا ببنية السلطة وهيئتها، هذه المرة تمثل فى نشوء الدولة القومية. وتكرر المشهد ثانية، حيث برزت عدة دول قومية شهدت تطورات مماثلة.

مثلت هذه اللحظة، لحظة انقطاع وتوقف لتوجه كان يتطور لقرون عديدة سابقة، وانتهى به الحال إلى قبول اللغة العامية كأحد أشكال الكتابة الشرعية. وأدت هذه القطيعة إلى نزع الشرعية عن الكتابات العامية.

فى نهايات القرن التاسع عشر برز على السطح مرة ثانية جدال حامى الوطيس حول قضية اللغة، ولكنه هذه المرة كان أشد ضراوة من ذلك الجدل المحتدم فى ١٦٠٠م. وانخرط فى هذا الجدال أناس من مشارب مختلفة: كتاب، مفكرون، سياسيون، صحفيون أيضا. ودار هذا الجدل حول سؤال محورى يدور حول مستوى اللغة التى يجب استخدامها: العامية، أم الفصحى؟، وأيهما كان مقبولا؟ وتعددت واختلفت الرؤى والأطروحات حول هذه القضية.

وانعكس هذا الصراع فى مجال كان – ومازال – حديث العهد، وهو مجال الصحافة. فأثيرت مناقشات واسعة على صفحات الجرائد والمجلات حول وضع اللغة العربية ومستقبلها. وانخرط فى هذه المناقشات كتاب مثل بطرس البستانى فى مجلة "الجنان"، وجورجى زيدان (١٨٦١-١٩١٤) فى مجلة الهلال. بالنسبة لزيدان، كان يحذر من خطورة الكتابة بالعامية، ويرى أن ذلك من شأنه أن يضعف من شأن الفصحى، ويجعل القراء ينسونها، ومن ثم سيفقد الناس الصلة بتراثهم العريق الممتد لثلاثة عشر قرنًا، حيث إن هذا التراث كتب جميعه باللغة الفصحى.

على الجانب الآخر كان هناك الكثير من الكتاب والصحفيين يرون فى الكتابة باللغة العامية جوانب إيجابية. حيث إن الكتابة بالعامية من شأنها أن توسع قاعدة

القراء، وأن تنشر المعارف على نطاق واسع. بدورها أسهمت جريدة المقتطف فى هذا الجدل الدائر فى أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر، وذكرت الجريدة أنه يجب نشر المعارف بطرق أفضل، وأحسن طريقة لإنجاز هذه المهمة هو اختيار اللغة المناسبة التى يمكن أن يفهمها الناس، وأن تصل إلى جميع طبقاتهم(١). ويلاحظ زياد فهمى Ziad Fahmy، أن نهايات القرن التاسع عشر شهدت ظهور عدد غير مسبوق من النصوص المكتوبة باللغة العامية، خاصة مع انتشار الجرائد والصحف التى كانت تستخدم هذا المستوى من اللغة، وكذلك ظهرت مسرحيات وأشعار كثيرة باللغة العامية. ولكنه لاحظ أيضا تزايد مقاومة هذه اللغة(٢).

أحد أشكال مقاومة العامية تمثل فى معاودة ظهور القواميس الغامية، ولكنها لم تكن مماثلة لقاموس يوسف المغربى، بل كانت على غرار تلك القواميس التى ظهرت مبكرا تحت اسم "لحن العامة"، وكان الغرض منها نقد الأعمال المكتوبة باللغة العامية. وكان الهدف منها هو إظهار مثالب هذه اللغة وتصحيحها، وتقديم بديل عنها يتفق مع اللغة العربية الفصحى. هناك عدة قواميس من هذا النوع طُبعت فى بدايات القرن العشرين، حدد جون باسكرفيل John Baskerville ثلاثة منها وهى: حسن توفيق: أصول الكلمات العامية، مصر : مطبعة الترقى، ١٨٩٩م؛ محمد على الدسوقى: تهذيب الألفاظ العامية، ط١، القاهرة، ١٩١٣م؛ حسين فتوح، محمد على عبد الرحمن: الدرر السنية فى الألفاظ العامية وما يقابلها من العربية، القاهرة: دار النيل للطباعة والنشر،

(1) John Comelius Baskerville, "From Tahdhiib al-Amma to Tahmiish al-Ammiyya: In Search of Social and Literary Roles for Standard and Colloquial Arabic in Late Nineteenth-century Egypt," PhD diss., University of Texas, 2009, 5-6.

(2) Ziad Fahmy, Ordinary Egyptians: Creating the Modern Nation through Popu-lar Culture (Palo Alto, CA: Stanford University Press, 2011), 4-7, 39.

١٩٠٨م[١]. وتوجد عدة كتب أخرى تناولت أمر اللغة العامية[٢]. لم يكن أحد من هؤلاء المؤلفين مشهورا، ولكن التركيز على طباعة هذا النوع من القواميس فى فترة زمنية قصيرة، يشير إلى ذلك الصراع الذى سببته قضية اللغة مجددا، بنفس الطريقة التى ظهرت فى القرن السابع عشر.

على المستوى السياسى، برز هذا الجدل حول اللغة فى فترة كانت تعانى فيها الدولة العثمانية من أزمات، وبات من الواضح صعوبة استردادها لعافيتها ودورها المؤثر فى المنطقة. ومثل التدخل الأوروبى، بأشكاله المتعددة، سياسيا وعسكريا وثقافيا، مخاطر على الجوانب الاقتصادية وعلى الهويات المحلية أيضا. ومن ثم اتخذت قضية اللغة بعدا سياسيا. وارتأى كثير من المفكرين أن إصلاح الدول القومية الناشئة وتقدمها مرهون باستخدام اللغة العربية الفصحى. وعاد الاهتمام مجددا باللغة الفصحى باعتبارها مظهراً من مظاهر النهضة الأدبية. وأُنشئت، بعد ذلك بقليل، مؤسسات أكاديمية فى القاهرة ودمشق وبغداد (مجامع للغة العربية) من أجل دعم اللغة العربية والحفاظ على تراثها. واعتبرت اللغة العربية مساوية للقومية العربية، إذا قويت قويت وإذا ضعفت ضعفت.

ويمكن أن نجد تطورات مشابهة فى بلاد أخرى، حيث ارتبط تطور الدولة القومية بتحديد لغة قومية رسمية. وهذا كان يعنى أن تتوارى اللهجات المحلية عن المشهد،

---

(1) Baskerville, from Tahbhiib al - Amma to Tahmiish al- Ammiyya," 155 - 65.

(٢) ميخائيل نقولا: الرسالة التامة فى كلام العامة والمناهج فى أحوال الكلام الدراج، د.ن، د.ت (أواخر ق ١٩)؛ كلمات عامية أو دخيلة وما يقابلها من الكلمات العربية الصحيحة: جمعها معلمو اللغة العربية بالمدارس الأميرية، د.ت.(مكتوبة باليد، محفوظة فى مكتبة جامعة القاهرة)؛ طوبيا العنيسى: تفسير الألفاظ الدخيلة فى اللغة العربية، مصر: دار العربى البستانى، ١٩٠٩م؛ حليم دموس: قاموس العوام، ط٢، دمشق: ١٩٢٣م؛ أدى شير: الألفاظ الفارسية المعربة، د.ت، ١٩٠٨م؛ أسعد خليل داغر: تذكرة الكتاب، كتاب يتضمن التنبيه على أهم الغلطات اللغوية الدائرة فى ألسنة الخطباء وأقلام الكتاب فى هذه الأيام (ط١، المقتطف، ١٩٢٣م)، ط٢، القاهرة: دار العرب للبستانى، ١٩٩٥م؛ أحمد عيسى: المحكم فى أصول الكلمات العامية، ط٢، مصر: مطبعة مصطفى البابى الحلبى، ١٩٣٩م.

لصالح مستوى اللغة الذى يُحدد فى العاصمة، أو مركز إدارة الدولة. وفى أغلب الأحوال كان هذا التغير مفروضًا من أعلى. وعلى سبيل المثال، كان فى فرنسا عشرات من اللهجات المحلية، اعتبرت منذ تلك الفترة لغات الريف والبداءة، وتعبر عن الخشونة والجلفة، فى مقابل اللغة الفرنسية المنمقة الراقية. وطالب مناصر الشكل الباريسى المميز للغة بالعمل على إيقاف هذه اللهجات واستبدالها باللغة الفرنسية الباريسية(١). وكذلك الحال فى إنجلترا، حيث بدأ البعض يطالب فى أوائل القرن الثامن عشر بوضع قواعد موحدة للغة المستخدمة. حيث اعتبرت إنجليزية لندن هى اللغة الأرقى، مقارنة باللهجات المتعددة المنتشرة فى أجزاء أخرى من إنجلترا، ومن ثم يجب أن تكون هى النموذج لبقية أجزاء الأمة(٢). أصبح لواضعى سياسيات الدولة كلمة فى نظام مدارس الدولة، سواء فى مصر أو فى تلك البلاد الأخرى، ومن ثم أصبح لهم رأى فى تحديد المستوى المناسب من اللغة التى يجب تدريسها. فتوارت اللهجات المحلية، وتم تهميشها وربطها بالأمية.

نتج عن هذا الأمر تقليل عدد مستويات اللغة. لقد وجدت أشكال متعددة من اللغة لعدة قرون، حاز كل منها درجة ما من الشرعية، ولكن فى نهاية القرن التاسع عشر، تم اختصار هذه الأشكال فى شكل وحيد مهيمن. وفى النهاية تمخضت هذه المجادلات عن نزع الشرعية عن العامية المكتوبة، التى وجدت لمئات السنين، وصار وضعها كذلك حتى يومنا هذا. حيث لم تعد مقبولة بوصفها لغة للتواصل كتابة، واعتبر استخدامها قلة احترام.

على أنه حدث تطور آخر فى نفس الوقت. حيث اتسعت قاعدة القراء، مع زيادة المطابع التجارية التى تنتج كتبا وصحفا ومجلات، وانتشار التعليم الابتدائى؛ وتطلب

(1) James Lehning, Peasant and French: Cultural Contact in Rural France during the Nineteenth Century (Cambridge: Cambridge University Press, 1995), 12-13.

(2) Lynda Mugglestone, "The Rise of Received Pronunciation," in A Companion to the History of the English Language, ed. Haruko Momma and Michael Matto (Chichester: Blackwell, 2008), 244-45.

ذلك استخدام شكل من اللغة أسهل من اللغة الفصحى، يسهل على جموع القراء فهمه واستخدامه أكثر، ولكنه كان شكلا مختلفا عن تلك الكتابات العامية التى كانت حاضرة بقوة فى الكتابات السابقة على القرن التاسع عشر. وصار قطاع عريض من الكتب والمطبوعات يُنتج خارج المؤسسة الدينية، ويُكتب بواسطة آخرين لم يكونوا من بين علماء الأزهر. من ناحية أخرى، ساهم بروز طبقة وسطى ونموها فى دعم استخدام شكل بسيط من اللغة الفصحى المكتوبة. على كل الأحوال، استمر الصراع بين المحلى والعالمى، بطريقة مختلفة، وبدرجة مختلفة.

هناك علاقة بين دراسة تطور الكتابة العامية عبر القرون، وفهمنا لتاريخ العصر. أولا، يمثل هذا التطور أحد جوانب إجراءات أكثر عمومية كانت تتخذ لتحديد معايير لممارسات معينة، على سبيل المثال، تجانس أكثر فى اللغة، مثل نواح أخرى فى الحياة، كالطعام والملابس. ثانيا، هناك قضايا مشتركة فى مناطق مختلفة من العالم كان لها نتائج مماثلة على تطور اللغة، سواء كان ذلك كنتيجة لزيادة التجارة فى القرن السابع عشر، أو لظهور الدول القومية فى القرنين التاسع عشر والعشرين. وفى ضوء ذلك، كانت تطورات اللغة جزءاً من عمليات تاريخية أوسع كانت لها نتائج متعددة على المجتمعات.

الفصل الثالث

حرفيو النسيج وطوائفهم فى مصر فى القرن الثامن عشر، والاقتصاد العالمى

الحرفيون والطوائف خارج التاريخ؟

اتساقا مع موضوع هذا الكتاب، الذى يدور حول كيفية فهم تاريخ مصر فى إطار تاريخ العالم؛ يعالج هذا الفصل دور الحرفيين وطوائف الحرف فى مصر فى إطار تاريخ العالم فى الفترة من ١٥٠٠ وحتى ١٨٠٠م. ويهتم هذا الفصل بمناقشة إمكانية اعتبار الحرفيين وطوائفهم جزءًا من هذا التاريخ، أو أنهم كانوا "خارج التاريخ" فى حالة من الجمود والعزلة، وبمنأى عن التأثر بما يدور حولهم فى مناطق أخرى من العالم. لقد شهدت التجارة العالمية توسعا ملحوظا واتسعت الأسواق العالمية، وصار العالم أكثر اتصالا وتواصلا. والسؤال الرئيسى هنا: هل كان الحرفيون وطوائفهم يشكلون جزءًا من هذه التحولات الواسعة على الصعيد العالمى؟ تحديدا: هل كانت منتجاتهم تشكل جزءًا من هذه التغيرات الدولية؟

بالطبع الإجابة عن هذا السؤال تكون أيسر وأسهل فيما يتعلق بشأن التجار، أما فيما يتعلق بالحرفيين فالأمر أكثر تعقيدا. بالنسبة للتجار، بدا واضحا كيف اندمج وتأثر تجار القاهرة بتبعات زيادة حجم التجارة الدولية وتنوعها فى الفترة من ١٦٠٠ وحتى ١٨٠٠م، وبخاصة هؤلاء التجار الذين تعاملوا فى تجارة البحر الأحمر: البهارات، والبن، والمنسوجات الهندية؛ حيث كانت هذه المنتجات تُرسل إلى مناطق عديدة حول حوض البحر المتوسط، وما وراء ذلك. لقد كان لهؤلاء التجار شبه احتكار

لتجارة البحر الأحمر، عندما صار البن اليمنى يصل إلى مناطق بعيدة من العالم، ليس فقط فى نطاق الدولة العثمانية، بل امتدت لتغطى معظم أوروبا، وبخاصة بعد أن أصبحت القهوة أحد المشروبات المفضلة فى القرن السابع عشر. والمعنى أن الأمر أيسر لكى نرى كيف استشعر التجار وتفاعلوا مع التوسع فى التجارة الدولية.

فإذا تركنا التجار وتجارتهم، وتحولنا إلى الحرفيين ومنتجاتهم، ستكون الصورة أقل وضوحا، خاصة وأن دراسات قليلة قد تناولت هذا الموضوع، وتختلف الآراء حوله. ظل الباحثون، لفترة طويلة، ينظرون إلى الطوائف على أنها قوالب جامدة، تتحكم الدولة فى حركتها. وصوروا الحرفيين والمهنيين على أنهم غير مؤهلين لتغيير أنماطهم ومنتجاتهم، حيث القواعد الصارمة لنظام الطوائف تحد، إلى حد كبير، من حركتهم. واعتبر كثير من المؤرخين أن الطوائف عبارة عن بنى "خارج التاريخ"، وتعمل بنفس النظام، بغض النظر عن التغييرات التى قد تلحق بالسياق الإقليمى المحيط بها. وعلى ذلك هدفت الدراسات المبكرة حول هذا الموضوع إلى إبراز الطبيعة الجامدة لنظام الطوائف الحرفية. نذكر على سبيل المثال دراسة جابرييل بير Gabriel Baer، وهى من أوائل الدراسات المستفيضة حول هذا الموضوع، والتى ظلت ذات تأثير فى هذا المجال لبعض الوقت؛ اعتبر بير أن الطوائف هى بنى تقليدية يتجمع تحتها أشخاص من نفس المهنة، يترأسهم شيخ الطائفة. كانت الدولة تعترف بالطائفة، ولكنها كانت تتحكم بشدة فى أنشطتها. لم يشجع نظام الطائفة على التنافس بين أعضائها لتجويد وتطوير مهاراتهم ومنتجاتهم، ولكنها وضعت قواعد عادلة للتعامل معهم. من ناحية أخرى، كان النظام المتبع داخل الطائفة، لحماية أعضائها من المنافسة مع من هم خارجها، يحد من توسع الطائفة، حيث وضعت قيود صارمة للحصول على عضوية الطائفة، ولم يكن بمقدور أى حرفى غير عضو فى طائفة ما أن يمارس الأنشطة التى تختص بها هذه الطائفة(١).

(1) Gabriel Baer, "Monopolies and Restrictive Practices of Turkish Guilds," Journal of the Economic and Social History of the Orient 13, no. 1 (April 1970): 145-65; Gabriel Baer, Egyptian Guilds in Modern Times (Jerusalem: Israel Oriental Society, 1964).

بعد ذلك، شكل بروز سجلات المحاكم الشرعية، واعتبارها مصدراً أساسيا لدراسة التاريخ العثمانى، دفعة قوية للدراسات حول الطوائف، فتوالت الكتب والمقالات التى تعالج نواحى متعددة فى تاريخ الطوائف فى المدن المختلفة للدولة العثمانية، مثل: القاهرة، إستانبول، بورصا، دمشق، القدس. وأظهرت هذه الدراسات الحديثة صورة مغايرة، حيث أوضحت أن بنى هذه الطوائف لم تكن جامدة، بل تميزت بالمرونة، وأنه كانت هناك اختلافات عديدة بين الطوائف المختلفة، كذلك تباينت أشكال علاقة الطوائف بالدولة، وأشكال علاقة الطائفة بأعضائها. كما كان للطائفة القدرة على تغيير نظمها الداخلية وفقًا لمعطيات تاريخية. ومع تزايد الدراسات حول هذا الموضوع، صار من الواضح وجود اختلافات بين الحرفيين وطوائفهم فى مدينة ما، وبين نفس الحرفيين وطوائفهم فى مدينة أخرى. وعلى سبيل المثال، كان لسلطة الدولة المركزية وزن أكبر فى طوائف الحرف فى إستانبول ومدن الأناضول الأخرى، بينما لم تكن بنفس هذه الدرجة فى القاهرة، ويرى تيمور كوران Timur Kuran بأن الدولة حجمت من قدرة الطوائف فى مدن الأناضول على المناورة، وقلصت إمكانيات تطورها(١).

وبينت الدراسات الحديثة وجود روابط ما بين نظام طوائف القرن الثامن عشر وبين الظروف الدولية المستجدة فى تلك الفترة. أحد التوجهات فى هذه الدراسات ركز على بحث طرق رد فعل الطوائف على تزايد التهديد الأوروبى. حيث تسببت النهضة الاقتصادية والتجارية الأوروبية فى القرن الثامن عشر فى حدوث أزمة اقتصادية ومالية للدولة العثمانية، مما نتج عنه تدهور أوضاع الطوائف، وتدهور إنتاجها(٢). كان لاستيراد البضائع الأوروبية أثر مدمر على منتج الحرفيين، كما كان لتصدير المواد الخام التى يستخدمها هؤلاء الحرفيون المحليون هذا الأثر نفسه. اتجاه آخر فى هذه الدراسات اهتم بتوضيح كيفية رد فعل الحرفيين وطوائفهم على مخاطر تدفق البضائع

---

(1) Timur Kuran, The Long Divergence: How Islamic Law Held Back the Middle East (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2011), 132-33, 271.

(2) A. Mesud Kucukkalay and Numan Elibol, "Ottoman Imports in the Eighteenth Century: Smyrna (1771-72)," Middle Eastern Studies 42, no. 5 (Sept. 2006): 723.

الأوروبية، حيث لم يجد الحرفيون بدا من توفيق أوضاعهم وفقا لتلك المخاطر. تناول الباحثون هذه القضية بطرق مختلفة، ولكن يوجد شبه اتفاق على تأثر البنى الداخلية للطوائف بتلك الظروف السائدة[١]. وعلى سبيل المثال، درست فاريبا زارينباف Fariba Zarinebaf طوائف الحرف فى إستانبول فى القرن الثامن عشر، ووجدت أنه مع تزايد الخطر الأوروبى اتخذت الدولة العثمانية تدابير لحماية الطوائف والتجار، ويمكن اعتبار الدولة العثمانية هنا لاعبًا رئيسيا فى هذا المشهد، ومتبنى للتغيير[٢]. وبالمثل، تتبع كاجلار كيدار Caglar Keydar تاريخ الطوائف العثمانية، واستشف وجود تحرر من قيود الطائفة فى القرن الثامن عشر، وازدهارًا للتصنيع الريفى على حساب الطوائف الحضرية[٣]. كان اهتمام هؤلاء المؤرخين منصبا حول شرح الكيفية التى وفقت بها الطوائف أوضاعها مع التغييرات والتطورات الحادثة.

وتناولى لهذا الموضوع سيبنى على بعض هذه الدراسات، ولكنه سيتناول الموضوع من منظور مختلف. تناولت بعض الدراسات هذه القضية من خلال فهم القرن الثامن عشر على أنه هو تلك الفترة التى وجد الحرفيون أنفسهم فى أوضاع صعبة، من جراء منافسة البضائع الأوروبية، ومن ثم كان عليهم أن يجدوا طريقة ما للتعامل مع هذا الأمر. ولكننى سأصيغ السؤال هنا بطريقة أخرى: كيف لنا أن نفهم أوضاع الحرفيين

---

(1) Onur Yildirim, "Transformation of the Craft Guilds in Istanbul (1650- 1850)," Islamic Studies 40, no. 1 (Spring 2001): 49-66; Abdul Karim Rafeq, "Craft Organization, Work Ethics and the Strains of Change in Ottoman Syria," Journal of the American Oriental Society 111, no. 3 (July-Sept. 1991): 495-511.

(2) Fariba Zarinebaf, "Ottoman Guilds and the State in Eighteenth century Istanbul," paper presented at the conference "The Rise and Decline of Imperial Leadership," Evanston, IL: Northwestern University, November 2007.

(3) Caglar Keydar, "Creation and Destruction of Forms of Manufacturing: The Ottoman Example," in Between Development and Underdevelopment, 1800-1870, ed. Jean Batou (Geneva: Center for International Economic History, 1991), 158-61.

فى إطار التحولات التى شهدها العالم فى الفترة من ١٥٠٠ إلى ١٨٠٠م، وهى تلك الفترة التى شهدت امتداد السيطرة الأوروبية إلى أمريكا وبعض مناطق آسيا، ولكنها لم تصل إلى الشرق الأوسط أو الدولة العثمانية. كان التجار الأوربيون، الذين يتعاملون مع مصر ومناطق أخرى فى الدولة العثمانية، يبحثون عن بضائع يمكن أن يشتروها، وليس عن أسواق لتصريف بضائعهم. كان تدفق البضائع الأوروبية، وما سببه من حرمان الحرفيين فى الدولة العثمانية من المواد الخام، قد بدأ مبكرا فى مناطق من الدولة العثمانية قبل غيرها. ويقول الباحثون بأنه يمكن ملاحظة هذه الظاهرة فى أزمير بداية من القرن الثامن عشر[1]. بالنسبة لمعظم أقاليم الدولة العثمانية، بما فيها مصر، لم يحدث هذا التدفق قبل منتصف القرن التاسع عشر[2]. وبدأ معها استنزاف المواد الخام التى يستخدمها الحرفيون المحليون فى إنتاجهم. الفترة الزمنية التى نتناولها هنا سابقة على هذه الإجراءات. ومن ثم السؤال الذى نحتاج لطرحه مختلف وكذلك طبيعة المناقشات.

التفاوت في التطور

كان للتوسع الذى شهدته التجارة الدولية خلال الفترة الممتدة من ١٥٠٠ وحتى ١٨٠٠م أثر على الأوضاع المحلية فى مصر، ومس هذا الأثر قطاعات عديدة فى المجتمع، وبخاصة فى النواحى الاقتصادية والثقافية. ويمكن تتبع هذا الأثر فى مجالات معينة، مثل: تداول المعلومات والخبرات وتبادلها؛ التتجير، وما حدث فى المجال الثقافى

(1) A. Mesud Kucukkalay, "Imports to Smyrna from 1792 to 1804: New Statistics from the Ottoman Sources," Journal of the Economic and Social History of the Orient 51, no. 3 (2008): 487-512.

(2) Sevket Pamuk and Jeffrey Williamson, "Ottoman De-industrialization 1800-1913: Assessing the Magnitude, Impact and Response," The Economic History Review 64, S1 (Feb. 2011): 159-84.

من تحول من الشكل المؤسسى والرسمى إلى ثقافة أقل رسمية وأكثر تعبيرا عن الناس العاديين وأمور حياتهم(١)، ويمكننا أن نتلمس درجة من العولمة قد أثرت فى قطاعات قليلة من المجتمع والاقتصاد، سابقة على العصر الحديث. واختلفت هذه الدرجة من العولمة عن عولمة العصر الحديث، ففى حين ارتبطت عولمة العصر الحديث بسياسات الدولة، ووسائل الاتصال السريعة التى وفرتها السفن البخارية والسكك الحديدية، اعتمدت العولمة التى نتحدث عنها، فى جزء منها، على إنتاج النسيج وتجارته، وعلى الحرفيين والتجار. ومع ذلك لم تشمل هذه العولمة قطاعات أخرى كثيرة، ومن ثم، تفاوتت درجات التطور بين قطاعات مختلفة فى المجتمع، والاقتصاد والثقافة.

انعكس هذا التطور المتفاوت (إذا جاز لنا التعبير) الذى مس بعض قطاعات مختلفة فى المجتمع على الصورة الأشمل للمجتمع فى ذلك العصر. كذلك كان الحال فيما يتعلق باختراق الرأسمالية الأوروبية للدولة العثمانية؛ حيث إن هذا الأمر لم يشمل كل أجزاء الدولة العثمانية فى نفس الوقت. كذلك لم تتبد آثار الاتصال بالتوجهات العالمية فى كل القطاعات الاجتماعية والاقتصادية، ولم يتخذ تأثيرها طريقة واحدة فى كل القطاعات. وتمثلت درجة التغيير التى سببتها هذه الاتصالات فى نشوء أشكال مهجنة وأنماط متعددة، كذلك تفاوتت نسبة حدوث هذه التغييرات وكذلك سرعتها(٢). ويمكن لنا أن نعتبر هذا التهجين إحدى السمات المميزة طوال القرن الثامن عشر.

وبعيدا عن المستوى الأوسع، إذا تحولنا إلى الحرفيين المحليين؛ لم تكن الأحوال التجارية فى القرن الثامن عشر لها نفس التأثير على كل الطوائف والحرفيين. فغالبية الطوائف كانت تستهدف بإنتاجها أسواقًا محدودة. نذكر على سبيل المثال طوائف مثل: السكاكينية، وصناع الإبر، وصناع الشمع، ومهنًا أخرى عديدة كانوا ينتجون فقط

---

(١) انظر الفصل الثانى من هذا الكتاب.

(٢) نللى حنا: حرفيون مستثمرون، صص ٣٨-٤٠.

للأسواق المحلية وبكميات محدودة[1] فى حين أن هناك حرفيين آخرين استلزمت طبيعة عملهم أن يكونوا أكثر ارتباطا بالتغييرات العالمية. ومن ثم كان عليهم أن ينتهجوا مسارا معينا مختلفا عن غيرهم من الطوائف؛ من حيث هيكلة الطائفة وبنيتها، وطريقة تنظيم العمل. وكان فى طليعة هذه الطوائف طوائف النسيج، والتى مثلت قطاعًا مهما ومتقدما فى الاقتصاد، وأكثر ارتباطا بالتجارة الدولية.

النسيج في طليعة التغير

عانت بعض مناطق فى الدولة العثمانية من جراء تدفق المنسوجات الأوروبية إليها، منها أزمير على سبيل المثال، حيث واجه حرفيو النسيج هناك مصاعب حقيقية؛ على العكس من ذلك، شهدت مصر رواجا فى إنتاج النسيج وتجارته، فى القرنين السابع عشر والثامن عشر.

كان من بين أسباب هذا الرواج هو ارتباط إنتاج النسيج بالأسواق العالمية. وسمحت أحوال التجارة الدولية بتقدم إنتاج النسيج وتمييزه؛ حيث زاد الطلب على الأقمشة فى الأسواق العالمية. فى دراسة حديثة عن عالمية المنسوجات القطنية قبل العصر الحديث، بين كل من براسنان بارثاساراثى Prasannan Parthasarathi وجورجيو ريللو Giorgio Riello أنه فيما بعد عام ١٥٠٠م صارت الأقمشة القطنية، التى يُصنع معظمها فى شبه القارة الهندية، أهم منتج مصنع فى مجال التجارة الدولية[2] تمثل دراستهم هذه، الرواية المقابلة لرواية القطن، والتى كانت أساس الثورة

---

(1) Andre Raymond, "Une liste des corporations de metiers au Caire en 1801," Arabica 4, no. 2 (May 1957): 154-55.

(2) Prasannan Parthasarathi and Giorgio Riello, "Introduction: Cotton Textiles and Global History," in The Spinning World: A Global History of Cotton Textiles, 1200-1850, eds. Giorgio Riello and Prasannan Parthasarathi, 1-13 (Oxford: Oxford University Press, 2009).

الصناعية فى إنجلترا. لقد بينت دراستهم كيف امتدت تجارة القطن، التى نشأت فى الهند، إلى عدة أقاليم فى العالم، منها: اليابان، الصين، إفريقيا، وجنوب شرق آسيا. وبينت أيضا نتائج هذه التجارة.

فى مصر أيضا، وعلى الرغم من ندرة الإشارات فى المصادر الثانوية إلى هذا الأمر، حدث توسع فى إنتاج المنسوجات بالتزامن مع هذا الاتجاه العالمى، ووجدت هذه المنسوجات طريقها إلى أسواق مهمة فى التجارة الدولية. وبالرغم من أهمية هذا الموضوع لفهم الأحوال السابقة على القرن التاسع عشر، فإن هذا الموضوع لم ينل بعد حظه من الدراسة التى يستحقها(١).

كان لزيادة التجارة الدولية واتساعها آثار محلية متعددة على طوائف ومنتجى النسيج فى مصر. حيث ربطهم هذا الأمر بالأسواق العالمية، وعن طريق هذه الإجراءات اكتسبوا بعدا عالميا انعكس على أمور عدة، مثل: كيفية تنظيمهم العمل، كمية المنسوجات المُنتجة، طريقة إعادة تنظيم بعض الطوائف. شكل هؤلاء الحرفيون قطاعا كان أكثر من غيرهم قابلية للتغيرات الحادثة على الصعيد العالمى. ولذلك، من المهم أن نعيد النظر فى الآراء الراسخة حول قيمة صناعة النسيج وثقلها فى مصر، وأن نعيد التفكير فى تاريخ الطوائف فى فترة التغييرات هذه.

أحد مظاهر الثقل الاقتصادى لحرفيي النسيج هو ثراؤهم النسبى، مقارنة بغيرهم من الحرفيين. وتظهر دراسة أندريه ريمون حول الحرفيين والتجار أنه لم يكن من قبيل المصادفة أن عمال النسيج ومنتجى السكر فى القاهرة احتلوا مقدمة قائمة التركات الأكبر، حيث خلفوا تركات تضمنت ثروات أكبر من حرفيين آخرين، مثل بائعى الخضر، وبالطبع أكثر من العدد الكبير من المغنين والراقصين والمهرجين، الذين لم يخلفوا أى تركات(٢) كان متوسط حجم تركة عامل النسيج فى الفترة من ١٦٧٩ وحتى ١٧٠٠م،

---

(١) قام ناصر عثمان وحسام عبد المعطى بدراسات مهمة حول صناعة النسيج فى مصر فى العصر العثمانى، ولكن لم تُنشر معظم هذه الدراسات حتى الآن.

(٢) أندريه ريمون: الحرفيون والتجار، ج١، ص ٢٩٢.

أقل قليلا من خمسين ألف نصف فضة (٤٨٠٠٠ نصف فضة)، وجاء بعدهم فى قائمة أغنى الحرفيين، معصرانية زيت بذر الكتان والسكرية[١].

فى الوقت الذى كان قطاع النسيج ينخرط فى علاقات مع التجارة الدولية، مالت طوائف أخرى عديدة إلى البقاء فى حدودها المكانية: من حيث أنشطتها، وشبكات علاقاتها، وأسواق تصريف منتجاتها. ومن المعروف عن الحرفيين عدم شغفهم بالترحال والسفر، ولم يكن لديهم شبكات علاقات كبيرة مثل التجار. كان معظم الحرفيين ينتجون كميات محدودة من البضائع، ومن ثم كانت أسواقهم محدودة أيضا. فى الغالب كان الحيز الجغرافى لمجال نشاط الحرفى محدودا، وفى بعض الأحيان كان نشاطه لا يتجاوز مدينته، بل وأحيانا كان الحرفيون مقيدين بحى معين فى المدينة، حيث مكان العمل والسكنى. وفى بعض الأحيان كانت قواعد وقوانين الطائفة تشدد على هذه الحدود، وتحدد نطاق نشاط الحرفيين بمنطقة محددة فى المدينة يمكنهم بيع منتجاتهم فيها. نذكر على سبيل المثال كيف حددت قوانين طائفة الأساورية (صناع الأساور) بأن أى حرفى يريد أن يبيع سلعه فى مدينة، أو حتى قرية خارج القاهرة، عليه أن يحصل على إذن سابق من شيخ طائفته[٢] لقد بينت دراسة أندريه ريمون بوضوح الطبيعة المحلية للكثير من هذه الطوائف. ونشر أندريه ريمون قائمة بطوائف القاهرة عام ١٨٠١م، التى رصدتها الحملة الفرنسية على مصر، تتضمن هذه القائمة حوالى ٢٨٠ طائفة تقريبا. وتظهر القائمة الطبيعة المحلية لبعض هذه الطوائف، بل وأحياناً تكون الطائفة محدودة بحى معين فى المدينة، نذكر على سبيل المثال طائفة صناع السلاسل الحديدية فى خط "تحت الربع"، أو طائفة بائعى الأجولة فى خان الخليلى[٣].

هذه الحالة أدت فى النهاية إلى نوع من الازدواجية بين هؤلاء الحرفيين والطوائف التى أصبحت أكثر لرتباطا بالاقتصاد العالمى؛ فمن ناحية عملوا على توفيق نظام

---

(١) أندريه ريمون: الحرفيون والتجار، ج١، ص ٣٩٢.

(٢) محكمة الباب العالى، سجل ١٣٥ م ، ١١٨٢، ص ٣٠٣، ١٠٢٧هـ/ ١٦١٧م.

(3) Andre Raymond, "Une liste des corporations de metiers au Caire en 1801," Arabica 4, no. 2 (May 1957): 150-63; Halil Inalcik,"Capital in the Ottoman Empire," The Journal of Economic History 29, no. 1 (March 1969): 104-105.

إجراءات العمل مع هذه الظروف، وفى نفس الوقت حافظ كثير من الحرفيين على علاقاتهم الوثيقة بطوائفهم. أما تلك الطوائف التى كانت أقل تأثرا بالظروف الدولية، وكانوا محدودين بحيز جغرافى معين، فإنهم استمروا فى نهجهم التقليدى. وبدلا من أن نتحدث عن تاريخ الطوائف، يمكن أن نتحدث عن تواريخ الطائفة، فبالنظر إلى الظروف الدولية كان هناك أكثر من تاريخ واحد للطوائف. وبتتبع تلك التطورات التى شهدتها طوائف النسيج، يمكن لنا أن نتتبع تاريخهم مقارنة بالطوائف الأخرى؛ حيث تختلف أحوال هذه الطوائف اختلافا بينا عن ظروف طوائف النسيج، حيث كان مجال نشاط طوائف النسيج أوسع، وكانت منتجاتهم توزع فى مناطق عديدة عبر العالم.

اقتحام السوق العالمية

استطاعت الأقمشة المصنعة فى مصر اختراق تجارة النسيج الدولية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، ووصلت إلى الأسواق فى أربع قارات: أوروبا، وإفريقيا، وآسيا، وأمريكا. والواقع أن مصر كان لها دور نشط فى تجارة النسيج منذ العصور الوسطى، وبخاصة أقمشة الكتان، والتى كانت معروفة بجودتها العالية. وفى الفترة ما بين ١٥٠٠ و١٨٠٠م، أسهمت التطورات التى شهدها مجال النقل البحرى والطرق البحرية بعيدة المدى فى تسهيل توزيع البضائع وانتشارها، وفتح أسواق جديدة للمرة الأولى. كما كان للطرق المختلفة التى تكيفت بها صناعة النسيج مع متطلبات السوق، أثر فى خلق أسواق أوسع لها، وبخاصة أنواع الأقمشة الرخيصة.

على أن اقتحام الأسواق العالمية كان يعنى وجود منافسة مع مراكز أخرى عديدة لإنتاج المنسوجات. كان أهم هذه المراكز هو الهند، حيث وصلت أقمشتها إلى أسواق عبر كل مناطق العالم. كان هناك أيضا مراكز أخرى عديدة داخل الدولة العثمانية كانت تنسج فيها كميات كبيرة من الأقمشة. ولكن بالرغم من كل هذه المراكز المنافسة، فإن المنسوجات المصرية تمكنت من اختراق كل من الأسواق الإقليمية والعالمية.

التنوع في أنماط الأقمشة

كان إنتاج النسيج فى مصر شديد التنوع، وكان من بين الأسباب التى جعلت الطلب على الأقمشة المصرية مرتفعا، هو هذا التنوع. وتذكر المصادر أسماء عدة أنواع من الأقمشة، ليس من السهل دائما التعرف بدقة على دلالاتها. ولكن ما نعرفه أن الأقمشة كانت تنتج فى مناطق حضرية وريفية عديدة، فى الوجهين القبلى والبحرى، وكل مركز كان له تخصصه المحلى وشهرته فى نوع معين من الأقمشة (حرير، قطن، كتان، صوف)، وفى طريقة النسج، وفى جودة الأقمشة، وفى الألوان. ففى قنا بصعيد مصر، والتى اشتهرت بإنتاج المنسوجات القطنية، كان أحد تخصصات حرفيى النسيج هو إنتاج نوع من الشيلان الزرقاء المقلمة (المخططة) للاستهلاك المحلى؛ وفى أسيوط كانت تُنتج أقمشة الكتان؛ فى حين تخصص نساجو الفيوم فى إنتاج شيلان صوفية بيضاء. كانت المحلة أيضًا مركزًا مهما للنسيج، وكان يُصنَّع فيها أشرعة السفن والمراكب، وكانت ترسل إلى إستانبول من أجل الأسطول العثمانى. اشتهرت المحلة كذلك بأقمشة الحرير النسائية، ومستلزمات المنازل الحريرية. كذلك كانت الصباغة فى المحلة متعددة الألوان: أصفر، وأسود، وأزرق، وبرتقالى، وأخضر، وألوان أخرى. كذلك الحال فى دمياط، حيث كان يوجد بها إنتاج مهم من الحرير تُستخدم ألوان متعددة فى صباغته[1].

الإنتاج من أجل أسواق بعينها

أحد الأسباب وراء الطلب على هذه الأنواع المختلفة من المنسوجات يمكن إرجاعه إلى المرونة وسرعة الاستجابة من قبل الحرفيين، حيث كانوا يصنعون أنواعًا معينة من

(1) M.P.S. Girard, "Memoire sur l'agriculture, l'industrie et le commerce de l'Égypte," in Description de l'Égypte, État Moderne, vol. 2, no. 1 (Paris: Imprimerie Royale, 1822), 104-13.

الأقمشة تناسب أسواقًا معينة، فى الغالب من مناطق بعيدة، وكانوا ينتجون هذه الأقمشة حسب ذوق هؤلاء الزبائن؛ ومن ثم تختلف طريقة النسج أو الألوان. كان الحرفى يضع فى اعتباره نوع الزبائن فيصنع المنتجات التى سترسل إلى إفريقيا، على سبيل المثال، بطريقة تناسب متطلبات الزبائن وأذواقهم. وهنا يأتى دور الوسيط بين المنتج والمستهلك، وهم التجار الذين يجوبون الأنحاء لتسويق بضائعهم. أى إن الأقمشة كانت تصنع بطريقة تتماشى مع الاحتياجات المتغيرة للمستهلك.

كانت الشيلان المصنوعة فى قنا بجنوب مصر مخصصة للتجارة الإفريقية. وفى الفيوم صنع النساجون نوعا من الأقمشة يسمى "خيش"، كانت تُصدر منه، إلى بلاد الشام وبلدان أخرى فى آسيا، حوالى عشرين ألف قطعة سنويا. فى طنطا كانت تُصنع الكركة، وترسل إلى بلاد الشام عبر ميناء دمياط. فى القاهرة صنع النساجون أقمشة مصبوغة بالأحمر كانت مخصصة لقوافل التجارة الإفريقية المتجهة إلى سنار[١]. وفى الاتجاه الآخر ناحية الغرب، كانت تُرسل أنواع أخرى من الأقمشة: كان هناك نوع من الأقمشة الخشنة يشتريها التجار الفرنسيون من مصر ثم يرسلونها إلى الكاريبى لاستخدامها ملابس للعبيد. وكانوا يشترون أيضا نوعا من الأقمشة يُسمى فوط "foutes"، ثم يشحنونه بحرا إلى ميناء جنوة. كانت هناك أيضا ملابس جاهزة وردت فى قائمة البضائع التى سُددت عنها رسوم فى جمرك مصر القديمة، فى أعوام ١٧٩٠، ١٧٩١، ١٧٩٢م؛ منها عباءات بنية اللون مصنوعة من الصوف، كان يتم شحن قرابة الثمانية آلاف قطعة منها سنويا، وتُدفع عنها الضرائب الجمركية. كان هذا النوع من الملابس يصنع لتلبية حاجات وأذواق سكان تلك المناطق التى تُشحن إليها[٢].

تنوع في الجودة، الأنواع الفاخرة

كان التنوع فى جودة الأقمشة وأسعارها سببا إضافيا لكثرة كميات الأقمشة

---

(1) Girard, "Memoire," 108-10, 148.

(2) Girard, "Memoire," 193. لم يذكر جيرار المكان التى كانت ترسل إليه تلك العباءات

التى كانت مخصصة للأسواق العالمية. ويوجد لدينا مثالان لتوضيح هذا التنوع والتفاوت فى مستوى جودة الأقمشة وسعرها. النموذج الأول هو نوع من السجاد الفاخر جدا، والباهظ السعر، كان مخصصا للأغنياء من سكان المدن. النوع الثانى هو نوع متواضع من الأقمشة رخيص السعر. وبين هذين المستويين توجد أنواع أخرى من الأقمشة، ليس من السهل تحديد مستوى جودتها أو سعرها. كان هناك نوع من السجاد الفاخر، يسمى "السجاد المملوكى"، اشتهر بجودته العالية وأذواقه الرفيعة، واستمر إنتاج هذا النوع من السجاد بعد سقوط الدولة المملوكية، وحتى أواخر القرن السادس عشر أو أوائل القرن السابع عشر، وكان هذا السجاد يرسل إلى البندقية من أجل أثريائها، وكمركز للتسويق لبقية أنحاء أوروبا[1] كانت هذه السجاجيد محل إعجاب البلاط السلطانى العثمانى وتقديره فى منتصف القرن السادس عشر[2] فكانت ترسل هذه السجاجيد إلى القصر السلطانى بإستانبول، وبعضها إلى الجوامع الكبرى بالمدينة، كجامع السليمانية. ويشير فانسليب Vansleb فى نهاية القرن السابع عشر إلى تصدير السجاجيد المصرية، الفاخرة والخشنة إلى مارسيليا. وتشكل هذه السجاجيد أكثر الأمثلة المعروفة للأقمشة الفاخرة التى كانت تصدر إلى مناطق مختلفة فى أوروبا والدولة العثمانية.

الأقمشة الرخيصة

على الجانب الآخر كانت هناك أقمشة عادية خشنة ورخيصة وغير ملونة، كانت مخصصة لاستهلاك قطاعات أخرى من السكان المستورين والفقراء، وكانت تصدر إلى

---

(1) Stefano Carboni, Venice and the Islamic World, 828-1979 (Gallimard, France: Metropolitan Museum of Art, 2007), 180-81.

(2) Jon Thompson, "Late Mamluk Carpets: Some New Observations," in The Art of the Mamluks in Egypt and Syria: Evolution and Impact, ed. Doris Behrens-Abouseif (Bonn: Bonn University Press, 2012), 117.

مناطق عديدة لارتفاع الطلب عليها. ولكن تظل هذه القضية هي إحدى الحقائق غير المعترف بها حول هذا العصر.

ما من شك بأنه يوجد نقص في الدراسات حول الأقمشة التي كانت مخصصة للفقراء، ولذلك فإن دراسة كوليت إستابليت Colette Establet وجين بول باسكوال Jean -Paul Pascual عن النسيج في دمشق تمثل أهمية خاصة في هذا المجال. تتناول دراستهما الفترة ما بين عام ١٦٨٦ و١٧١٧م، وتعتمد بشكل أساسي على سجلات التركات التي تغطي هذه الفترة. ونتبين من خلال هذه الدراسة المكانة المهمة التي كانت تحتلها المنسوجات المصرية في دمشق، من حيث التنوع والجودة. وأشار المؤلفان إلى نوعين معينين من بين الأنواع العديدة للأقمشة المصرية، نوع يسمى "مجوز" والآخر يسمى "بلدي"، حيث وجدا بكميات كبيرة نسبيا، وبأسعار متواضعة[١]. وربما كانت هذه الأنواع العادية الرخيصة من المنسوجات غير مصبوغة أو ملونة[٢]. على أن كثافة هذه الأنواع من المنسوجات في دمشق يشير إلى أن الطلب في الأسواق الخارجية على الأقمشة الرخيصة كان أكبر من الطلب على الأنواع الغالية، ومن ثم كان إنتاج الأنواع الرخيصة أكبر بكثير من الأنواع الغالية. وتبين دراسة أندريه ريمون أن المنسوجات الخشنة الرخيصة كانت تشكل القوام الرئيسي للمنسوجات التي كانت ترسل من مصر إلى الحجاز عبر البحر المتوسط[٣]. وهذا الوضع لا يجعلنا بالضرورة نربط التجارة الدولية بالأنواع الفاخرة فقط، إذ إنه في حالات كثيرة كان الطلب في الأسواق العالمية على الأنواع الرخيصة أعلى من الطلب على الأنواع الفاخرة والغالية.

---

(1) Colette Establet and Jean-Paul Pascual. Des tissus et des hommes: Damas vers 1700 (Damascus: Institut francais du Proche-Orient, 2005), 113-16.

(2) Suraiya Faroqhi. "Declines and Revivals in Textile Production," in Cambridge History of Turkey: The Later Ottoman Empire, 1603-1839, vol. 3, ed. Suraiya Faroqhi (Cambridge: Cambridge University Press, 2006), 366.

(٣) ريمون: الحرفيون والتجار، ج١، صص ١٦٧-١٧٠.

وللأسف فإن هذا الجانب من تجارة المنسوجات غير معروف بدرجة كافية، ولم يُكتب عنه إلا قليل. بالرغم من أن هذا الجانب من شأنه أن يوضح الكثير عن الإنتاج الحرفى، وعن السمات العامة للتجارة فى الفترة من ١٥٠٠ وحتى ١٨٠٠م. إن دراسة هذا النوع من الأقمشة من شأنه أن يساعد المؤرخين على فهم هذا التطور، فى الإطار الأوسع للتجارة الدولية. وهذا التوجه فى الدراسة من شأنه أن يبرز الاختلاف البين ما بين نمط وآليات تجارة تلك الفترة، والتى تقوم على تجارة الجملة من البضائع العادية الاستهلاكية، وبين تجارة العصور الوسطى، والتى كانت تقوم على البضائع الفاخرة، صغيرة الحجم، عالية الثمن.

السعر والجودة

لاحظ المراقبون أن الإقبال على شراء الأقمشة البسيطة والرخيصة كان بسبب رخص سعرها. وهذا الرخص فى الأسعار يعود إلى انخفاض تكلفة الإنتاج فى مصر، ورخص الأيدى العاملة. ولاحظ المراقبون أيضا أن الأقمشة المصرية كانت أطول عمرا وأكثر أربحية من مثيلاتها فى أماكن أخرى[١]. ومن ثم، أقبل التجار على شراء كميات كبيرة من هذه الأقمشة لتحقيق أرباح أكثر بعد بيعها. وعلى سبيل المثال، كان الكثير من صفقات التجار الفرنسيين عبارة عن مشتريات من هذه الأقمشة الخشنة[٢]. لقد كانت هناك حركة تصدير مهمة ونشطة لأقمشة قطنية وكتانية خشنة ومتواضعة وغير ملونة، تُشحن إلى عدة مناطق من أجل السكان المستورين والبسطاء.

---

(1) Constantin-Francois Volney, Les oeuvres complètes de Volney (Paris: Didot, 1838), 767; Jacques Peuchet, Dictionnaire universel de la géographie commerçante, vol. 5 (Paris: Chez Blanchon, An VIII/1800), 132; Pierre Joseph Andre Roubaud, Histoire générale de l'Afrique, de l'Asie et de l'Amérique, vol. 9 (Paris: Chez des Ventes de la Doue, 1771), 56.

(2) Peuchet, Dictionnaire universel, 132.

لكل هذه الأسباب المختلفة، تمكنت الأقمشة المصرية من الوجود فى التجارة الدولية. وما من شك بأنه كانت هناك منافسة ضارية مع الأقمشة الهندية التى كانت تُنتج بكميات كبيرة. ولكن يجب أن نعرف أن الأسواق العالمية كانت كبيرة وتستوعب كل هذه المنتجات.

الانتشار عبر أربع قارات

تؤكد مصادر القرن الثامن عشر كثافة عمليات التصدير وتعدد الأسواق التى وصلت إليها الأقمشة المصرية، وربما كانت الأقمشة هى أكثر منتج غير زراعى تصدره مصر آنذاك. يقول مسيو دى ماييه Monsieur De Maillet، والذى كان قنصل فرنسا فى مصر لسنوات عديدة فى بداية القرن الثامن عشر، إن مصر كانت تنتج "كميات هائلة" من الأقمشة الكتانية، وإن "كميات كبيرة" من الأقطان كانت ترسل إلى كل أنحاء العالم[1]. وقدم أيضًا خبراء الحملة الفرنسية (١٧٩٨-١٨٠١م)، فى كتاب وصف مصر، معلومات قيمة عن تجارة الأقمشة وصناعتها؛ حيث عرفنا الكثير عن أماكن إنتاج المنسوجات، والمستهلكين الرئيسيين لهذه المنتجات. كذلك ذكروا أن كميات كبيرة من الكتان كانت تُرسل إلى الحجاز فى موسم الحج[2]. كذلك حملت قوافل التجارة المتجهة إلى sub-Sahara جنوب الصحراء الكبرى فى إفريقيا، كميات من الأقمشة. وباتجاه أوروبا، حيث كانت فرنسا هى المقصد الرئيسى، كانت تُرسل المنسوجات

---

(1) Benoit de Maillet, Description de l'Égypte . . . composée sur les mémoires de M. de Maillet, ancient consul de France au Caire, par M. l'Abbé Le Mascrier (Paris: Chez Louis Genneau et Jacques Rollin, 1735), 199.

(٢) ريمون: الحرفيون والتجار، ج١، صص ١٦٧-١٧٠؛ حسام عبد المعطى: العلاقات المصرية الحجازية فى القرن الثامن عشر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤ (سلسلة تاريخ المصريين، ١٤٩) ص ١٤١.

القطنية والكتانية. والقائمة التى قدمها فانسليب Vansleb، فى نهاية القرن السابع عشر، للمنسوجات المصرية المصدرة إلى فرنسا، تضمنت عدة أنواع من الأقمشة المصنعة فى مناطق مختلفة فى مصر؛ مثل الأحزمة (المشدات) الفاخرة التى كانت تُصنع فى رشيد، والأقمشة الكتانية التى كانت تصنع فى المنوفية والإسكندرية. تضمنت القائمة أيضًا منسوجات كتانية زرقاء، وأنواعًا خشنة وأخرى فاخرة من السجاد، وذكر فانسليب أيضًا أقمشة كتانية زرقاء من القطع الصغيرة وأخرى من القطع الكبيرة تأتى من إمبابة؛ ومنسوجات قطنية مزخرفة؛ وعددًا من أنواع أخرى من الأقمشة مثل: البتاتونى والمغربى، ونوعًا من الأقمشة الفاخرة يسمى "messaline"؛[1] ويذكر جيرار Girard، فى نهاية القرن الثامن عشر، أن فرنسا كانت تشترى من مصر نوعًا من الأقمشة القطنية يُصنع فى القاهرة يُسمى "عجمى"، ونوعًا آخر يسمى "محلاوى" يُصنع فى المحلة الكبرى، وأقمشة هندية مُقلدة، ونوعًا من الأقمشة يُسمى دمياطيًا أو "دميطى dimity"؛ يُصنع فى رشيد، وهو معروف فى مصر منذ العصر الفاطمى[2]. كانت هناك كميات أخرى من الأقمشة ترسل إلى مناطق مختلفة من الدولة العثمانية: بلاد الشام، وألبانيا، وتسالونيكى، وأزمير، وبالطبع إستانبول. والواقع أن معظم البضائع التى كانت تُعرض فى السوق المصرى بأستانبول كانت مصنوعة فى مصر. وتبين دراسة سحر خليل زيادة الأقمشة المصرية المُصدرة إلى بلاد الشام فى القرن الثامن عشر[3].

---

(1) F. Vansleb, The Present State of Egypt or a New Relation of a Late Voyage into that Kingdom Performed in the Years 1672 and 1673 (originally printed London: R.E. John Starkey, 1678, repr. Westmead: Gregg International Publishers, 1972). 123-24. انظر أيضا: ريمون: الحرفيون والتجار، ج١، ص ٣٢٣.

(2) Girard, "Memoire sur l'Agriculture," 186.

٣- سحر على حنفى: العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى فى القرن الثامن عشر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، (سلسلة تاريخ المصريين، ١٧٨) ، ٢٠٠٠ ص ١٧٣، ١٧٤.

وعلى الرغم من كل هذا، فإن ذلك الانتشار الواسع جدا فى أنحاء واتجاهات جغرافية مختلفة، لا يعطى صورة كاملة عن حجم هذه التجارة واتساعها. فالكميات الكبيرة من الأقمشة المصرية الخشنة التى كان يشتريها التجار الفرنسيون كان جزء منها مخصصًا للاستهلاك فى فرنسا، من قبل السكان المستورين والفقراء، وجزء معتبر منها كان يُعاد تصديره إلى مناطق أخرى بعيدة، حيث كان هؤلاء التجار يقومون بدور الوسيط الذى ينقل التجارة إلى أقاليم أخرى فى العالم سواء فى أوروبا (هولندا، إسبانيا، إيطاليا) أو الأمريكتين. فمثلاً كانت الفوط المضرية foutes، التى يشتريها التجار الفرنسيون من مصر، تُباع فى ميناء جنوة، ويستخدمها البحارة أو الفقراء مفارش للأسِرّة[1]. كذلك كانت الأقمشة الخشنة المصنعة فى المنوفية تُشحن إلى جزر الهند الغربية الخاضعة لفرنسا[2]. بغرض استخدامها ملابس للعبيد[3]. كذلك النوع المسمى "عجمى" كان مناسبًا جدا لملابس العبيد[4].

---

(1) Colette Establet and Jean-Paul Pascual, Des tissus et des hommes, 198.

(2) Constantin-Francois Volney, Travels through Syria and Egypt in the Years 1783, 1784, and 1785, 2 vols. (repub. Westmead: Gregg International, 1972), 228.

(3) Volney, Travels through Syria and Egypt, 228; Establet and Pascual, Des tissus et des hommes198

فى دراسة حديثة لبراسنان بارثاسشراتثى، ذكر فيها أن الأقمشة القطنية كانت تصدر من الهند إلى الكاريبى لتصنع منها ملابس للعبيد العاملين فى الزراعة. انظر:

Prasannan Parthasarathi, Why Europe Grew Rich and Asia Did Not: Global Economic Divergence, 1600-1850 (New York: Cambridge University Press, 2011), 25-26 see also Willis, "European Consumption and Asian Production in the Seventeenth and Eighteenth Century," in Consumption and the World of Goods, ed. John Brewer and Roy Porter (London: Routledge, 993), 136.

(4) M. Champon, Le Commerce de l'Amérique par Marseilles, vol. 2 (Avignon, 1764), 391.

فى هذا السياق، فإنه من المثير للاهتمام أن نلاحظ ذلك التباين الواضح مع الأقمشة التى تستوردها الدولة العثمانية من فرنسا، الشريك التجارى الرئيسى. فبينما كان الطلب مرتفعا من قبل شركاء الدولة العثمانية التجاريين على المنسوجات المصرية منخفضة التكاليف، كانت المنسوجات القادمة إلى الدولة العثمانية من فرنسا من الأنواع الغالية الثمن. لاحظ أدهم إلدم Edhem Eldem، من خلال دراسته للعلاقات التجارية بين فرنسا والدولة العثمانية فى القرن الثامن عشر، أنه بالرغم من الكميات الكبيرة من المنسوجات التى كانت تصدرها فرنسا إلى الدولة العثمانية، والتى اقتصرت على الأنواع الغالية، وبخاصة الجوخ اللندنى، فإنها كانت مخصصة للطبقتين العليا والوسطى من سكان الحضر، وأن هذه المنسوجات نادرا ما وصلت إلى الطبقات الأدنى[1]. هذه الأمور تثرى معرفتنا حول بعض جوانب إنتاج المنسوجات وتجارتها. ولكن مازلنا بحاجة إلى مزيد من الدراسات حول هذا الموضوع.

أثر هذه الظروف على إنتاج النسيج

ما من شك بأن هذا الانتشار الواسع للأقمشة المصرية فى أنحاء شتى: الدولة العثمانية، الحجاز، أوروبا، أمريكا، كان له آثار على المشهد المحلى الداخلى، ومست جوانب عديدة فى عمل الحرفيين؛ كان أحدها هو زيادة الإنتاج. على أن هذه الزيادة فى الإنتاج لم تشمل كل أنواع الأقمشة، ولكنها مست بشكل رئيسى إنتاج الأقمشة المتواضعة والرخيصة، وعادة ما يرتبط إنتاج البضائع المخصصة للبسطاء والفقراء من السكان بالكم. وبعبارة أخرى كان إنتاج الأقمشة المخصصة للفقراء أكثر بكثير من الأقمشة الفاخرة المخصصة لأثرياء المجتمعات الحضرية.

(1) Edhem Eldem, "French Trade and Commercial Policy in the Levant in the Eighteenth Century," Oriente Moderne Nuova Serie 18, no. 79 (1999): 31-32.

زيادة الإنتاج

إحدى الصعوبات التى تواجهنا هنا هى عدم توافر أرقام وإحصائيات دقيقة عن حجم الإنتاج. ومع ذلك فإن بعض الأرقام المتوافرة من أواخر القرن الثامن عشر لها دلالات مهمة. يذكر جيرار Girard أن ما يقرب من مائة وعشرين ألف قطعة من الأقمشة، معظمها قطنية، كانت تُصدر سنويا إلى فرنسا. والأرقام التى يقدمها جيرار كانت أقل بشكل واضح من الأرقام التى كانت تصدر بها الأقمشة فى الربع الأول من القرن الثامن عشر، حيث تراجعت مشتريات فرنسا من الأقمشة فى أواخر القرن الثامن عشر[١]. هذه الأرقام لم تشمل الكميات المرسلة إلى مناطق أخرى بالدولة العثمانية، والتى كانت أكبر من تلك التى ترسل إلى فرنسا. ويعطينا جيرار مؤشراً آخر مهما عن حجم الأقمشة التى كانت تنسج. إذ يرصد قائمة البضائع التى كان يُدفع عنها رسوم فى جمرك مصر القديمة عن أعوام ١٧٩٠، ١٧٩١، ١٧٩٢م، والتى تضمنت بضائع كانت تُنتج بكميات كبيرة جدا. منها حوالى (٨٣٠٠٠) ثلاثة وثمانين ألف شال تأتى من الفيوم والصعيد سنوياً، و (١٠١٦٢٢) مائة ألف وواحد وستمائة واثنين وعشرين قطعة أقمشة صوفية من الصعيد أيضا. وأيضا هذه الكميات الهائلة لا تمثل حجم الإنتاج الفعلى من الأقمشة، ولكنها تعبر فقط عن تلك الكميات التى كانت تُرسل إلى القاهرة لسداد الرسوم الجمركية[٢]. علاوة على ذلك كانت الأعوام الثلاثة التى أشار إليها جيرار أعوام أزمات حادة، حيث شهدت صراعات دموية بين الأمراء المماليك المسيطرين على أمور البلاد، وكذلك وباء الطاعون الذى تفشى فى عام ١٧٩١، وانخفاض منسوب النيل فى فيضان عام ١٧٩٢م، مما تسبب فى زيادة أسعار الطعام[٣] ومن ثم يمكن لنا أن نفترض أن هذه الأعداد تمثل فترة إنتاج منخفض.

---

(١) ريمون: الحرفيون والتجار، ج١، ص ٢٢٣.

(2) Girard. "Memoire." 186. 193.

(٣) ريمون: الحرفيون والتجار، ج١، ص ٢١٤، ٢١٥.

هل لنا أن نتحدث عن الإنتاج الضخم[١] Mass production؟

بعض التطورات التى شهدها مجال حرفة النسيج وطوائفها كانت بمثابة بشائر التطورات المتأخرة التى حدثت فى القرن التاسع عشر؛ حيث بعض التوجهات التى ابتدرها حرفيو القرن الثامن عشر، استندت عليها سياسات الدولة فى القرن التاسع عشر وطورتها. وبالرغم من أن حالة إنتاج الملابس الرخيصة مرتبطة بنوع معين من المنتجات؛ فإننا يمكن لنا اعتبارها تمهيداً لفكرة الإنتاج الضخم. حيث ارتبط الإنتاج الضخم بالثورة الصناعية وما صاحبها من آليات إنتاج جديدة ومختلفة. فى حالتنا هذه، لم يكن هناك ماكينات، ولا مصانع حيث يتجمع العمال فى مكان واحد لتعظيم الإنتاج. ومن ثم فإن الزيادة الكبيرة التى حدثت فى الإنتاج غامضة لنا حتى الآن، ولا توجد دراسات كثيرة تزيح هذا الغموض. ومن ثم لا يملك المرء سوى محاولة طرح فرضيات من خلال المقارنة مع حالات مشابهة. توجد أمثلة لتزايد الإنتاج مع عدم وجود أى مؤشر أو دليل على تطوير آلات الإنتاج، أو إدخال نظام المصنع أو الميكنة. هناك مفهوم طرحه جان دى فريز Jan de Vries تعبير عن هذه الحالة، أسماه "ثورة تكثيف العمل" Industrious revolution . ويقصد دى فريز بهذا المفهوم أنه فى العصر السابق على الثورة الصناعية، كانت هناك زيادات فى إنتاج بضائع كثيرة، وهذه الزيادة حدثت بسبب تعاظم الإنتاج المنزلى[٢]. وربما يكون هذا التفسير مقبولاً، حيث إن هذا التوجه قد لوحظ فى عدة بلدان ازداد فيها الإنتاج فى الفترة السابقة على دخول الميكنة حقل الصناعة.

---

(١) الإنتاج الضخم: ترجمة لغوية لمصطلح mass production، وهو مصطلح ارتبط بالثورة الصناعية وما نتجت عنها من إنتاج كميات كبيرة لنفس نوع المنتج، أو ما يسمى بخطوط الإنتاج.

(2) Jan de Vries, "The Industrial Revolution and the Industrious Revolution," The Journal of Economic History 54, no. 2 (June 1994): 249-70.

وهناك تفسير آخر محتمل، وهو أن إنتاج المنسوجات فى المناطق الريفية كان يقوم به الفلاحون فى المنازل، فى أوقات فراغهم، ومن ثم تزايد عدد النساج المؤقتين مع تزايد الطلب على الأقمشة الرخيصة. وإذا كان الأمر هكذا، فإن التوجه الذى رصده جون تشالرافت John Chalcraft نحو ريفنة (جعله ريفيا) إنتاج النسيج فى القرن التاسع عشر، يكون له أصوله فى وقت سابق عليه، ولأسباب مختلفة. ومن هنا يكون تفكيك صناعات محمد على، وزيادة الضرائب على حرفيى المدن، قد ساعدا على تطوير صناعة النسيج الريفية[1].

بغض النظر عن الطريقة التى استخدمت لزيادة أنشطة النسج، فإن هذه الأساليب كانت تتم بعيدا عن رقابة الطائفة. وبالرغم من أن الكثير من أنشطة النسيج كانت تتم فى القاهرة ومدن أخرى مثل: رشيد، المحلة الكبرى، الإسكندرية، دمياط، قنا، فإن بعضها كان يتم فى مناطق ريفية؛ حيث كان يقوم عدد كبير من الناس بالنسج على أنوالهم فى منازلهم فى أوقات فراغهم[2]. وزيادة عدد الأنوال، أو عدد الساعات التى يقضيها الناس فى أعمال النسيج، كانت فوق قدرة أى طائفة على المراقبة والتنظيم.

وكما سبق القول، يوجد تباين شديد مع نمط التصدير فى العصر المملوكى، حيث كانت تُصدر الأقمشة المصرية النفيسة إلى البندقية، بينما تعاظم تصدير الأقمشة البسيطة فى القرن الثامن عشر. وهو تغير يوضح التحول من تصدير الأقمشة الفاخرة إلى الأقمشة البسيطة، ومن الأسعار الغالية إلى أسعار فى متناول البسطاء والفقراء.

---

(1) John Chalcraft, "The End of Guilds in Egypt: Restructuring Textiles in the Long Nineteenth Century," in Crafts and Craftsmen of the Middle East: Fashioning the Individual in the Muslim Mediterranean, ed. Randi Deguilhem and Suraiya Faroqhi (London: I.B. Tauris, 2005), 344-46.

(2) Naser Uthman, "La production textile a Rosette au XVIIIe siecle," Rives Méditerranéennes 29 (2008): 2-11.

وهو تغير يظهر أيضا تحولاً كميا: من كميات صغيرة إلى كميات كبيرة. وهنا تكمن قضية منهجية، حيث إن هذه الأنوا ع المتوسطة والمتواضعة من المنسوجات لفتت أنظار مؤرخى الفن الذين كتبوا عن تدهور صناعة النسيج فى مصر، قياسا على المعايير الفنية وجودة المنتج الذى يعود إلى هذه الفترة. ولكن يمكن للمؤرخين أن ينظروا إلى هذا الأمر بمنظور مختلف. حيث يمكن دراسته من خلال كيفية الاستجابة لحاجة الأسواق، وكتحول مهم فى نمط الإنتاج يتلاءم مع المستجدات فى ذلك الوقت.

الموضة وموديلات جديدة في الملابس

تمثل زيادة إنتاج الأقمشة الرخيصة أحد آثار التجارة العالمية على الشأن المحلى. ولكنها لم تكن النتيجة الوحيدة؛ حيث كانت هناك نتائج أخرى على صناعة الأقمشة المحلية بسبب أحوال التجارة العالمية. هذ المرة تمثلت فى إنتاج الأقمشة القطنية على الطرز الهندية. وكانت هذه المنسوجات الهندية المقلدة تصنع من أجل سكان الحضر، حيث إنها بطريقة أو بأخرى تناسب الأثرياء، على عكس الأقمشة الخشنة غير المصبوغة التى تتبعناها سابقًا، حيث كانت مخصصة للسكان الأقل حالا وللفقراء. وللأسف فإن المصادر المتاحة حول الأقمشة الرخيصة، قليلة ولا تمكننا من الوقوف على حقيقة هذه القضية، والمعلومات القليلة التى نعرفها حول الأقمشة الرخيصة تفضى إلى أسئلة كثيرة دون إجابات شافية. على العكس من ذلك، تقدم لنا المصادر الأرشيفية المتاحة (سجلات المحاكم الشرعية) معلومات قيمة حول الأقطان المطبوعة ذات التصميمات الهندية، التى كانت مطلوبة فى الأسواق العالمية. وتمكننا هذه المعلومات من طرح عدة قضايا، مثل: الأثر الواضح لهذا التوجه الجديد على الطوائف الحضرية؛ إنشاء طوائف جديدة تخصصت فى هذا النوع من الأقمشة؛ طرق مبتكرة لهيكلة الطوائف وتنظيم العمل، مما أهل هذه الطوائف لأن تحتل الصدارة بين الطوائف الأخرى.

زيادة إنتاج الأقمشة القطنية في القرن الثامن عشر

بداية من القرن السابع عشر، حازت المنسوجات القطنية ذات الطابع الهندى شعبية غير مسبوقة عبر العالم، وازداد الطلب على هذه السلعة بشدة بين طبقة معينة من سكان الحضر. وسواء كانت هذه الأقمشة القطنية المطبوعة تُصنع فى الهند أم تُقلد فى مراكز إنتاج أخرى عديدة، فإنها أصبحت موضة عالمية، أو ما سماه براسنان بارثاساراثى Prasannan Parthasarathi وجورجيو ريللو Giorgio Riello "سلعة عالمية." وفى القرن الثامن عشر كانت هذه السلعة تباع فى كل الأرجاء، ولم تقتصر على أوروبا والشرق الأوسط فقط، بل كانت تباع فى كل آسيا، واليابان، وإفريقيا، وأمريكا[(١)].

كان لهذا التوجه أصداء مختلفة فى مصر. أولاً، يبدو أن المساحات المزروعة بالقطن قد تزايدت فى القرن الثامن عشر، كشرط أساسى لزيادة إنتاج الأقمشة القطنية. ثانيًا، ضاعف الحرفيون من إنتاجهم من الأقمشة القطنية، تلبية للطلب المحلى والدولى وتنامى الأسواق، حدث هذا فى القاهرة وفى مدن عديدة فى الدولة العثمانية[(٢)]. ثالثا، كانت كمية الأقمشة القطنية التى تصدرها مصر فى تزايد أيضا؛ وتظهر دراسة ريمون، عن العلاقات التجارية بين مصر وفرنسا، هذا الأمر بوضوح. استحوذت فرنسا على تسعة أعشار كل المنسوجات التى كانت تصدرها مصر إلى أوروبا فى القرن الثامن عشر. ولاحظ ريمون أرقامًا غير متوقعة لأنواع المنسوجات التى تستوردها فرنسا من مصر، حيث كان ثلثا الكمية من المنسوجات القطنية، والثلث الباقى من المنسوجات الكتانية، وهى أرقام غير متوقعة لأن مصر كانت من أكبر منتجى الكتان لقرون عديدة[(٣)]. لقد كان التوسع فى مجال القطن، من زراعته إلى نسجه إلى تجارته معبرا عن الأحوال التجارية لذلك العصر.

---

(1) Parthasarathi and Riello, "Introduction," 1-7.

(٢) حسام عبد المعطى: "صناعة الأقمشة فى مصر خلال العصر العثمانى ١٥١٧– ١٨١٧م"، الروزنامة ٤، ٢٠٠٦، صص ٣٢٠–٣٢٣.

(٣) ريمون: الحرفيون والتجار، ج١، ص ٢٢٣.

إنشاء طوائف جديدة في القاهرة

فى أواخر القرن السابع عشر وخلال القرن الثامن عشر، تأسست عدة طوائف جديدة للنسيج فى القاهرة، تخصصت فى الأقمشة ذات الطرز الهندية. حدث ذلك بعد ازدياد الطلب على الأقمشة الهندية، وبعد انتشار الأسواق المخصصة للأقمشة الهندية أو المنسوجة على الطرز الهندية فى أجزاء مختلفة من العالم، بما فيها الدولة العثمانية وأوروبا. وكان هناك عدد من مراكز النسيج تحاول تقليد هذا النوع من الأقمشة، نذكر منها: دمشق، دياربكر، إستانبول، مارسيليا.

وعلى سبيل المثال، توجد إشارة فى عام ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م إلى وجود طائفة متخصصة فى صباغة الأقطان الهندية. ومن المحتمل أن أعضاء هذه الطائفة كانوا على اتفاق مع صناع القطن السادة، ليتولوا صباغة هذه الأقطان بتصميمات مشابهة لتصميمات المنسوجات الهندية(١) يوجد أيضا ذكر لطائفة أخرى "للصباغين فى الملونات (أى الأقمشة متعددة الألوان) على النمط الهندى والديار بكرى"، وكانت هذه الطائفة تتألف من ٩ أعضاء: اثنين منهم أرمن، واثنين من المسيحيين من حلب، وواحد من ديار بكر(٢). وبعبارة أخرى: جاء هؤلاء الحرفيون بمهاراتهم فى صباغة الأقمشة ذات الطرز الدياربكرية، وأدخلوا هذه الحرفة إلى القاهرة. ولماذا ديار بكر، تلك المدينة الواقعة فى شرق الاناضول والتى تبعد كثيرا عن القاهرة؟ الاحتمال الأرجح بسبب مهارة نساجى ديار بكر فى صناعة نوع من الأقمشة يسمى "جعفرانى" كان ينسج على النمط الهندى، ويتميز بألوان زاهية وتصميمات رائعة، ويجودة عالية جدا(٣). صارت الأقمشة

---

(١) سجلات محكمة الباب العالى، سجل ١٩١، م ٣٢٦، بتاريخ ١٦ صفر ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م. نص هذه الوثيقة نشرته سلوى ميلاد فى كتابها: سلوى ميلاد: الوثائق العثمانية، دراسة أرشيفية وثائقية لسجلات محكمة الباب العالى، ج٢، الإسكندرية: دار الثقافة العلمية، ٢٠٠٠، صص ٤٩٦-٤٩٧.

(٢) حسام عبد المعطى: "صناعة الأقمشة."، ص ٣٤١، ٣٤٢.

(3) Establet and Pascual, Des tissus et des hommes, 202-206.

الدياربكرية موضة فى فرنسا أيضا، وكان يتم استيراد كميات منها فى القرن السابع عشر، وحاول الحرفيون فى مارسيليا تقليدها[1].

تعديلات جديدة لطوائف قديمة

تشير سجلات المحاكم الشرعية بالقاهرة إلى توسع طوائف النسيج فى زخرفة الأقمشة باستخدام تقنية تسمى "البصمة". وفى عام ١٧٨٠م تخصصت طائفة "البصمجية" فى صناعة تصميمات على النمط الهندى[2]. كان بعض حرفيى هذه الطائفة من أماكن مختلفة: استانبول، البوسنة، ديار بكر، بلاد الشام. على أن هذه المنسوجات المطبوعة، والتى صارت موضة مشهورة فى القرن الثامن عشر، لم تكن جديدة بالنسبة لمصر. فمن المعروف منذ فترة لدى مؤرخى الفن، أن المنسوجات المطبوعة كانت تُصنع فى مصر فى العصر المملوكى (١٢٥٠-١٥١٧م)، وتم اكتشاف عدد من النماذج لهذه المنسوجات فى أعمال الحفر والتنقيب للبعثات الأثرية. وتبين أن هذه المنسوجات كانت أيضا متأثرة بالنمط الهندى. ولكن يوجد اختلاف فى التلوين بين المنسوجات المملوكية ومثيلاتها فى القرن الثامن عشر؛ بالنسبة للمنسوجات المملوكية، كانت النيلة الزرقاء هى المادة الأساسية المستخدمة فى التلوين، حيث وفرتها وإنتاجها محليا[3]، بينما فى الفترة المتأخرة كان التركيز منصبا على اللون، وهذا هو الذى يميز المنسوجات الأقدم عن الأحدث.

---

(1) Olivier Raveaux, "Spaces and Technologies in the Cotton Industry in the Seventeenth and Eighteenth Centuries: The Example of Printed Calicoes in Marseilles," Textile History 36, no. 2 (Nov. 2005).

(٢) سجلات محكمة الصالحية النجمية، دار الوثائق القومية بالقاهرة، سجل رقم ٥٣١، م ٢٥٨، صص ١٩٧-١٩٨، ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م.

(3) Bethany J. Walker, "Rethinking Mamluk Textiles," Mamluk Studies Review 4 (2000): 186.

ابتكار موضات جديدة

أقدمت طوائف صباغى النسيج على إنتاج الشيلان الكشميرى، وهذا نموذج أخر يوضح الكيفية التى تفاعلت بها طوائف صباغى المنسوجات مع الطلب المتزايد على الأقمشة الهندية، وكيف توسعت فى إنتاج هذا النوع. حيث تشكلت طائفة جديدة للصباغين تخصصت فى تجميع الشيلان الكشميرى المستعملة المستوردة من الهند، وإعادة صباغتها مرة أخرى بألوان جديدة حتى تبدو مثل الجديدة. ووردت هذه الطائفة ضمن قائمة الطوائف الحرفية التى رصدها خبراء الحملة الفرنسية، وقال عنهم جومار Jomard بأن هؤلاء الصباغين فى القاهرة برعوا فى صباغة هذه الشيلان القديمة بالأحمر والأصفر والألوان الزاهية والداكنة، ومن ثم بدت كالجديدة تماما. وحذر جومار الزبائن الفرنسيين من الانخداع فى هذه الشيلان، والتى تبدو أحيانا أفضل من الأصلية، ولكن بأسعار أقل بكثير[١]. فى القرن التاسع عشر، وبعد الحملة الفرنسية، حازت الشيلان الكشميرى شهرة واسعة وشعبية فى فرنسا، بعد أن جلب ضباط الحملة هذه الشيلان معهم من مصر؛ حتى إن نابليون نفسه عندما أقدم على الزواج من مارى لويس Marie-Louise قدم لها هدية تتألف من سبعة عشر شالا كشميريا[٢].

ويبدو أن التصميمات والألوان المعقدة للشيلان الكشميرى كانت تتطلب تقنيات متطورة ومعقدة أيضا، ويتضح هذا الأمر من الفشل الذريع الذى لازم الصباغين الفرنسيين عندما حاولوا تقليدها، بعد أن وصلت إلى فرنسا عقب الحملة الفرنسية. حيث وجدوا استحالة فى الجمع بين هذا العدد الكبير من الألوان المتداخلة مع بعضها. واستغرق الأمر سنوات من التجارب، حتى توصلوا إلى نتائج مرضية، وحصلوا على ألوان صحيحة[٣]. وبعد ذلك أصبحت هذه الشيلان تُقلد فى أسكتلندا، فى مدينة

---

(1) Jomard, "Description de la ville et de la citadelle du Kaire," Paris: Description de l'Égypte, État Moderne 1, 2nd ed. Vol. 18, pt. 2 (1829), 411.

(2) Michelle Maskiell, "Consuming Kashmir: Shawls and Empire, 1500- 2000," Journal of World History 13, no. 1 (Spring 2002): 39.

(3) Stephane Flachat, L'industrie: Recueil des traités élémentaires sur l'industrie française et étrangère (Paris: Tenre et Dupuy, imprimeurs-editeurs, 1834), 136.

صغيرة تُسمى بيسلى Paisley، والتى سُمى أحد الأنواع من الشيلان باسمها. وقبل ذلك كانت هذه الشيلان تقلد فى فارس. وهنا يمكننا أن نضع طائفة صباغى الشيلان الكشميرى فى سياق توجه أشمل وأوسع كان متبعا فى أقاليم أخرى عديدة ومتباعدة.

انتشار التوجهات بواسطة التجار والحرفيين

لعب التجار دور الوسيط بين المنتج والمستهلك؛ حيث كان التجار هم القناة التى انتقلت عبرها وانتشرت المعلومات من مكان لآخر. ونسبة كبيرة من المنسوجات الهندية، التى كانت تصل إلى مناطق مختلفة فى الدولة العثمانية و أوروبا، مرت عبر هؤلاء التجار، باعتبارهم جزءًا من تجارة البحر الأحمر. وكل تجار القرن الثامن عشر الكبار تعاطوا تجارة المنسوجات الهندية، وجنوا من ورائها أرباحا طائلة. وما من شك بأن الشبكات التجارية التى أسسها هؤلاء التجار كانت معنية بالأساس بنقل البضائع وتبادلها، ولكن طبيعة عملها استلزمت أيضا تبادل المعلومات وانتشارها، على سبيل المثال تلك المعلومات المتعلقة بالأنواق والموضات ورغبات الزبائن واحتياجاتهم؛ مما جعل هذه الشبكات التجارية فى موقع الرابط بين المستهلك فى مناطق بعيدة، وبين المنتجين المحليين. وهذه الشبكات التجارية يمكن أن تساعدنا بشكل ما فى تفسير إقدام عدد من مراكز إنتاج النسيج فى الدولة العثمانية على إنتاج أقمشة مقلدة للأقمشة المستوردة من الهند، حدث ذلك فى إستانبول، القاهرة، حلب، الرها، عنتاب، ديار بكر.

تنقلات الحرفيين

أحد الأمور غير المتوقعة التى حدثت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، هى انتقال الحرفيين المهرة والمتخصصين فى فروع دقيقة من منطقة إلى أخرى، حاملين معهم خبراتهم ومهاراتهم، ويعد هذا الأمر غير متوقع بالنظر إلى ما نعرفه عن طبيعة

الحرفيين الساعين إلى الاستقرار. ولوحظ هذا الأمر فى مناطق مختلفة من الدولة العثمانية، ولم يقتصر على القاهرة فقط. حيث كانت إستانبول أيضا مركزا يجتذب إليه الحرفيين من أقاليم أخرى: فهناك فرس هربوا من المشاكل التى كانت بأوطانهم، وهنود جاءوا بخبراتهم حيث صناعة النسيج، وحرفيون من شرق آسيا استوطنوا ومارسوا مهنهم، ويونانيون من جزيرة خيوس، والذين كانوا يجيدون تقليد الأقمشة الواردة من إيطاليا، وكذلك حرفيون أرمن[1]. على كل الأحوال، يبدو أن مصر كانت طرفًا مستقبلاً؛ حيث إن الأمثلة الدالة على انتقال الحرفيين المصريين إلى أقاليم أخرى غير شائعة. وتوجد إشارة إلى سفر أحد نساجى السجاد من مصر إلى البندقية، لكى يقوم بصناعة سجاجيد على النمط المملوكى، لا تزال إحداها باقية[2]. فى عام ١٥٨٥م استدعى السلطان مراد الثالث أحد عشر نساجا للسجاد من مصر إلى إستانبول، وذهبوا ومعهم أدواتهم وموادهم. على أن هذا النموذج لم يكن هو النمط السائد فى ذلك العصر، حيث كان أمرًا من الدولة، وليس انتقالا طوعيا.

على أن وجود هؤلاء الحرفيين الأغراب فى مجال صناعة الأقمشة له أهمية لأسباب عدة. السهولة التى كان يندمج بها الحرفيون الأجانب فى مناطق عملهم الجديدة، تعكس التوسع الذى حدث فى الإنتاج. ويعنى ذلك أن نظم الطوائف كانت تتسع وتقبل هؤلاء الحرفيين الوافدين، وإلا كان وجودهم سيقاوم، وهو مؤشر على نوع من الانفتاح فى نظام الطوائف، إذا وضعنا فى الاعتبار القيود التى كانت تضعها بعض الطوائف على الراغبين فى الانضواء تحتها. وعندما كان الحرفيون يهتمون بأمر المنافسة، فإنهم يحاولون أن يحدوا من عدد الحرفيين الذين يمارسون مهنتهم. ونجد

---

(1) Jean-Claude Flachat, Observations sur le commerce et sur les arts, vol. 2 (Lyon: Chez Jacuenod pere et Rusand, 1766), 270; Colette Establet et Jean Paule Pascual, "Les tissus dans les boutiques, les tissus dans les maisons: Damas vers 1700," Rives nord-méditerrannéenes 29 (2008): 18.

(2) Carboni, Venice and the Islamic World, 183, 323-24.

ذلك في إحدى القضايا المعروضة على المحكمة الشرعية فى أوائل القرن الثامن عشر؛ حيث طلب الحرفيون الذين يعملون فى إنتاج الزبادى من القاضى أن يُفعل قوانين الطائفة والتى تمنع أى شخص من أن يصير عضوا فى الطائفة، إلا إذا كان من أبناء أو من أقارب من الدرجة الأولى لأعضاء الطائفة الحاليين[١]. كان الغرض هو تحجيم عدد أعضاء الطائفة، والحفاظ على عدد ثابت لأعضائها. وامتثل القاضى لطلبهم، واعتمد على قوانين الطائفة كأساس لإصدار حكمه. هذا التباين بين مثل تلك الطوائف، وطوائف النسيج، يوضح التطور الذى كانت تسير عليه طوائف النسيج.

تنقلات الحرفيين هذه، والتى شملت دائرة تتشكل من ثلاث دول: العثمانية، الصفوية، المغولية، كانت لها نظائر شبيهة فى أقاليم أخرى. ويبدو أن تحركات الحرفيين وتنقلاتهم صارت أمرا شائعا فى أوروبا فى القرن الثامن عشر، بعد تطور تقنيات حديثة وازدياد المنافسة على الأسواق العالمية. ولقد بين لنا ديفيد لاندس David Landes أن ما يقرب من ألفين من العمال الإنجليز المهرة كانوا يجوبون أنحاء القارة الأوروبية، لتعليم عمال آخرين كيفية استخدام التقنيات الحديثة، بالرغم من منع الحكومة البريطانية هذا الأمر[٢]. فى عام ١٧١٨م نُقل حرفيون من إنجلترا إلى فرنسا، لتعليم عمال المصانع فى باريس ونورماندى صناعة الساعات والأعمال المعدنية[٣].

---

(١) سجلات محكمة الزاهد، دار الوثائق القومية بالقاهرة، سجل ٦٩٣، م ٢٦٦، ص ١١٩، بتاريخ ١١٤٨هـ/ ١٧٣٥م.

(2) David Landes, The Unbound Prometheus: Technological Change and Industrial Development in Western Europe from 1750 to the Present (London: Cambridge University Press, 1969), 148-49.

(3) Liliane Hilaire Perez, "Transferts technologiques, droit et territories: le cas franco-anglais au XVIIIe siecle," Revue d'histoire moderne et contemporaine 44, no. 4 (Oct.-Dec. 1997): 549.

تبعات هذه التنقلات وتداول الخبرات

حتى الآن لم يتم الاهتمام بتتبع حياة هؤلاء الحرفيين. وبالرغم من استحالة تخمين أعداد هؤلاء الحرفيين الرحل، فإنه من المحتمل أن أعدادهم لم تكن كبيرة. ومع ذلك فإن التنقلات من هذا النوع، حتى ولو كانت بأعداد محدودة، تشكل ظاهرة لها دلالاتها المهمة. كان لهؤلاء الحرفيين الرحل القدرة على المساعدة فى تداول التقنيات وأساليب العمل بين الحرفيين. وأيا كانت هذه التقنيات أو الطرق، كان هناك تكيف ومواءمة لها فى بيئات مختلفة، وبواسطة أناس ذوى مهارات مختلفة. وفى نفس الوقت خلقت هذه التنقلات درجة ما من التشابه بين المنتج الذى يصنع فى مدن مختلفة ومتباعدة جغرافيا. ولكن فى هذه المرحلة، كان لايزال هناك درجة كبيرة من التنوع فى منتجات الأقاليم المختلفة، على أننا يمكن أن نلحظ أيضا بدايات وضع معايير نمطية للأذواق، والتى ستصير أكثر وضوحا بعد ذلك. الملاحظة الأخيرة حول هذه التنقلات للحرفين والتقنيات، أنها كانت هى النماذج المبكرة لتلك التنقلات المعروفة التى حدثت فى القرن التاسع عشر، فى عصر محمد على. وتوجد كتابات ودراسات كثيرة حول هؤلاء الحرفيين الأجانب، الذين قدموا إلى مصر للعمل فى المصانع المستحدثة وفى المطابع. ولكن فى المقابل، كان الاهتمام قليلا بما حدث من تنقلات للحرفيين فى مصر قبل القرن التاسع عشر. فى حقيقة الأمر، استمر محمد على فى القيام بما كان يفعله الحرفيون طوعا فى القرن الثامن عشر، ولكن ربما كانت حركة محمد على أوسع مدى.

هذه التبادلات خلقت روابط بين مراكز إنتاج النسيج المختلفة فى الدولة العثمانية، حيث كان الحرفيون يستخدمون تقنيات وموديلات متشابهة فى إنتاجهم. كذلك خلقت روابط ما بين االدولة العثمانية وفارس والهند، حيث كانت المحفزات لعدة ابتكارات فى مجال المنسوجات. ومن ثم خلقت الأقمشة مستوى ما من الاتصال والتواصل بين الدول الثلاث، والتى فى الغالب لم تُدرس ضمن التاريخ الاقتصادى. حيث كان الاهتمام منصبا على التجارة والاقتصاد- تجارة البحر المتوسط، وتجارة البحر الأحمر- بينما القليل كُتب حول العلاقات المحتمل وجودها بين الحرفيين فى مصر والهند أو فارس.

الآن لدينا ما نضيفه حول ما نعرفه عن دور التجار فى تداول معارف حرفيي النسيج وخبراتهم. إن هذه الاتصالات والتأثيرات المتبادلة يبدو أنها كانت سمة مميزة للعصر ما قبل الحديث، شعر بها حتى الحرفيون المصريون، بالرغم من احتمال عدم ترحالهم كثيرا. إن ما قاله جوزيف فليتشر Joseph Fletcher لوصف هذه التشابهات والنظائر يعد مصطلحًا معبرًا وفعالاً، حيث أسماه "الاستمراريات الأفقية" بين مجتمعات متباعدة جغرافيا (١).

بالإضافة إلى تلك الدوائر التى ربطت بين الدولة العثمانية والهند وفارس، يمكن أن نضيف دائرة أخرى، وهى فرنسا، حيث صارت فى القرن السابع عشر مهتمة بإنتاج الأقمشة المزخرفة على النمط الهندى، والتى صارت معروفة فى فرنسا بـ in diennes. وبدأ تقليد هذه الأقمشة يظهر فى أفينون Avignon، لونجدوك Langue-doc، ومارسيليا. وهنا استخدمت أيضا خبرات الحرفيين العثمانيين(٢). وذكر جورجيو ريللو Gorgio Riello أن المنسوجات الفرنسية كانت نسخة من المنسوجات العثمانية، والتى كانت بدورها نسخة من المنسوجات الهندية(٣). وبعبارة أخرى، كان إنتاج النسيج بمثابة الرابط بين هذه المدن.

تعديلات داخلية فى نظام الطوائف

شهدت طوائف النسيج عدداً من المبادرات والابتكارات غير المسبوقة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر؛ كتأسيس طوائف جديدة، أو إدخال تقنيات جديدة،

---

(1) Joseph Fletcher, "Integrative History: Parallels and Interconnections in the Early Modern Period, 1500-1800," Journal of Turkish Studies 9 (1985): 37-57.

(٢) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب.

(3) Giorgio Riello, "The Globalization of Cotton Textiles: Indian Cottons, Europe, and the Atlantic World, 1600-1850," in The Spinning World: A Global History of Cotton Textiles, 1200-1850, eds. Giorgio Riello and Prasannan Parthasarathi, 261-87 (Oxford: Oxford University Press, 2009), 276.

أو زيادة الإنتاج. وما من شك بأن هذه التطورات تشير إلى أن هذه الطوائف كان عليها أن تتكيف أو تعدل من ممارساتها، لاستيعاب هذه التطورات. من ناحية أخرى، تعد تلك الأشكال المختلفة من الابتكارات، فى مجال إنتاج المنسوجات، مؤشرات على ما شهدته طوائف النسيج من تطور بطريقة مختلفة عن طوائف أخرى عديدة، بل سارت طوائف النسيج على نهج مغاير، بعض الشيء، للممارسات المعتادة لنظام الطائفة. واتخذت هذه التغييرات عدة طرق.

الفقه الإسلامى مقابل قوانين الطائفة

تمثلت إحدى هذه التغيرات فى مجال المحاكم الشرعية والقضاة. كان أعضاء الطوائف عامة يلجأون إلى المحكمة لتوثيق اختيارهم لرئيس الطائفة، أو للتأكيد على تفعيل قواعد تنظيم الطائفة التى اتفق عليها الأعضاء، والتى يطلق عليها "قانون الطائفة". على أن عدداً كبيراً من قوانين الطائفة، بالمعنى الدقيق، لم تكن متوافقة مع قواعد الفقه. نذكر على سبيل المثال، تحريم الشريعة الإسلامية لنظام الاحتكار، فى حين أن قوانين الطائفة تعتبر هذا الأمر من صلب قوانينها، إذ تفرض قيوداً احتكارية على أعضائها؛ كأن تمنع قوانين الطائفة أعضاءها من ممارسة مهنتين فى نفس الوقت، أو أن تحتكر الطائفة مهنة بعينها، وتمنع أى شخص من خارج الطائفة من ممارسة هذه المهنة. كان الهدف من وراء هذه القيود الصارمة هو حماية أعضاء الطائفة من المنافسة والمزاحمة من أشخاص آخرين. وجرت العادة فى حالة اللجوء إلى المحكمة فى مثل هذه النزاعات، أن يحكم القاضى وفق قوانين الطائفة المتوافق عليها، أو وفق ما جرت عليه أعراف الطائفة.

بالرغم من أن هذا الأمر استمر أيضا خلال القرن الثامن عشر، فإننا نجد فى بعض حالات قليلة تعاملاً مختلفًا للقضاة مع مثل هذه الحالات؛ حيث نحوا قوانين الطائفة جانبا، وطبقوا قواعد الشريعة، والتى كانت أكثر تحررا من قيود قوانين

الطائفة. وفى الغالب كانت هذه الحالات القليلة متعلقة بحرفى النسيج وطوائفهم. أحد أمثلة تلك الحالات كان حول ورشة فى مدينة المحلة الكبرى، قام بدراستها حسام عبد المعطى. ففى عام ١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م اشتكى شيخ وأعضاء طائفة العقادين من أن أحد التجار وظف عقادين وحياكين وخياطين فى ورشته، لكى يقوموا بتصنيع ملابس، واشتكوا بأن هذا الأمر يخالف قوانين الطائفة، التى تمنع توظيف حرفيين من مهن مختلفة. عادة، كان القاضى يأمر بتطبيق قوانين الطائفة. ولكن هذه المرة تجنب القاضى قوانين الطائفة وطبق أحكام الشريعة، حيث حكم برفض الدعوى، ما دام هؤلاء الحرفيون يقومون بعملهم على الوجه الأكمل، فلا يوجد مبرر أو سبب لمنعهم من ممارسة أعمالهم(١).

توجد حالة شبيهة أيضا، حدثت بعدها بعام، ولكن هذه المرة كانت فى القاهرة. ففى عام ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م، تقدمت طائفة صباغى الأقطان الهندية بشكوى ضد أحد الأشخاص، لأنه يمارس مهنتين فى نفس الوقت: صباغ فى الأقطان الهندية، وبصمجى، وأن قوانين الطائفة تمنع أعضاءها من ممارسة مهنتين فى وقت واحد. وكان رد القاضى غير معتاد، حيث رفض الدعوى، وقرر أن قوانين الطائفة لا تتفق مع أحكام الشريعة، ولا يمكن لأى طائفة منع أى شخص من ممارسة أى مهنة(٢).

فى مثل هذه الحالات وشبيهاتها، كانت أحكام القضاة تتبنى منهجًا أكثر تحررا مع قضية الإنتاج، لا يتقيدون فيه بالمعوقات التى وضعتها قوانين الطائفة. وبالرغم من أن هذه الحالات لم تكن القاعدة فى عمل القضاة وأحكامهم، فإنها مؤشر أيضا على تغيرات حادثة، وإن كانت على نطاق ضيق. ويمكن أن نربط أيضًا بين هذا التغير فى طبيعة أحكام القضاة، وبين أهمية صناعة إنتاج الأقمشة فى مصر فى تلك الفترة.

---

(١) حسام عبد المعطى: "صناعة الأقمشة"، ص ٣٦٤.

(٢) سلوى ميلاد: الوثائق العثمانية، ج٢، صص ٤٩٦-٤٩٧.

كيف أثرت هذه الأحوال على طريقة تنظيم العمل؟

يمكن أن نميز بعض التغيرات التى طرأت على تنظيم العمل الحرفى. جرت العادة على أن يعمل حرفيو النسيج فى ورش صغيرة تحتوى على عدد قليل من الأنوال، أربعة أنوال أو خمسة، أو أكثر قليلاً، وهو فى الغالب أقصى ما كان يملكه حرفى. ثم كان يبيع الحرفى إنتاجه مباشرة إما إلى زبون، أو إلى تاجر. ولكن ما حدث فى القرن الثامن عشر، من زيادة كمية المنسوجات المصدرة إلى بلدان أخرى، لا يمثل تغيراً فى الأدوات أو المعدات التى يستخدمها الحرفى، ولكنه تغير فى التنظيم. وتشير سجلات المحاكم الشرعية إلى عدد من الطرق، كانت مستخدمة فى تنظيم العمل، والتى ربما أدت إلى تعظيم الإنتاج وترشيده.

تنوعت هذه الطرق ولم تسر على نمط واحد. وعلى سبيل المثال، يبين عمل ناصر عثمان حول رشيد فى القرن الثامن عشر، أن المستثمرين- تجاراً أو أعياناً - كانوا وراء تنظيم إنتاج الحرفيين للنسيج، وبالرغم من أن معظم ورش النسيج كان يمتلكها حرفيون، فإن هؤلاء المستثمرين برزوا بوصفهم ملاكًا لورش إنتاج النسيج. على سبيل المثال، تملك أحد النساج اسمه الحاج حجازى بن سالم ابن تاريخة خمس ورش للنسيج، اثنتين للنسج، واثنتين للغزل، وواحدة للصباغة. ومن ثم كان يتحكم ويراقب كل مراحل إنتاج النسيج، وهى طريقة ساعدت فى زيادة فاعلية الإنتاج. وبالمثل، أحد الأعيان يسمى الحاج محمد زقزوق كان يمتلك خمس ورش نسيج، وورشة لتبييض خيوط الغزل. مثال آخر، شيخ طائفة المغاربة بالإسكندرية، الشيخ محمد محمد كان يمتلك ورشتين لنسج الكتان، وواحدة لنسج الأقطان[1].

فى المحلة الكبرى، وهى أحد المراكز الرئيسية لإنتاج النسيج، اتبعت طريقة أخرى فى تنظيم العمل. وتوضح دراسة حسام عبد المعطى كيف كان يقوم أحد المستثمرين بإدارة مشروعات نسجية صغيرة- حيث أدار أحد التجار شركة تبدو أكبر من ورش

---

(1) Uthman, "La production textile a Rosette," 3.

النسيج البسيطة المعتادة. حيث قام هذا التاجر بتوظيف حرفيين متخصصين فى النسيج، وآخرين بصمجية، وآخرين خياطين، وكانت كل جوانب العمل تحت إشرافه. ومن الواضح أن هدفه كان إنتاج ملابس جاهزة للأسواق. هذه الشركة كانت، إلى حد ما، غير معتادة؛ حيث قام هذا التاجر بتوظيف عدد من الحرفيين يمارسون مهنًا مختلفة فى مكان واحد؛ وكانت هناك عدة مراحل وصولا إلى المنتج النهائى؛ كذلك كان مالك الشركة، بصفته تاجراً، يقوم بتوزيع المنتج النهائى. أى إن جميع المراحل بدءًا من التصنيع وصولاً للبيع والتسويق تتم عن طريق شركة واحدة(١).

لايزال لدينا شكل آخر من طرق تنظيم عمل النسيج، هذه المرة يخص طائفة البصمجية بالقاهرة في عام ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م. حيث اتفق أعضاء هذه الطائفة على أن يعملوا جميعا فى مكان واحد، وأن تقسم المكاسب عليهم، على أن يتقاسم كل من شيخ الطائفة وأربعة عشر عضواً آخرين نسبة معينة من هذه الأرباح. جرت العادة فى نظام الطائفة أن يحصل الحرفى على حصته فى الأرباح بحسب مجهوده وإنتاجه، ولكن هذا التنظيم الجديد للعمل يعنى أنهم يمكن أن يعظموا إنتاجهم من المنسوجات المطبوعة، وبطريقة أكثر فاعلية. ربما كان ذلك يهدف أيضًا إلى التأكد من جودة الإنتاج وملاءمته. كانت هذه الاتفاقية بمثابة ترتيبات طويلة المدى، سعيًا للوصول إلى أسواق أكبر(٢).

تبين هذه الأمثلة المختلفة لتنظيم العمل التنوع فى الإجراءات والترتيبات التى اتخذها المستثمرون أو الحرفيون، لمواجهة الأحوال المستجدة.

---

(١) حسام عبد المعطى: "صناعة الأقمشة"، ص ٢٤٦.

(٢) نللى حنا: حرفيون مستثمرون، صص ٢٢٣-٢٢٩ ؛ سجلات محكمة الصالحية النجمية، دار الوثائق القومية بالقاهرة، سجل ٥٣١، م ٢٥٨، ص ١٩٨-١٩٧، ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م.

خلاصة

دفعت الظروف والأحوال التى شهدها القرنان السابع عشر والثامن عشر، حرفيى النسيج لأن يكونوا فى طليعة التغيير، مقارنة بمنتجين آخرين فى مجالات أخرى. وهذه التغيرات مست جوانب متعددة: علاقتهم بالاقتصاد العالمى؛ التنظيم الداخلى لطوائفهم؛ وممارساتهم المهنية. لقد زاد حرفيو النسيج من إنتاجهم، وكيفوا وعدلوا من منتجاتهم لتتواءم مع حاجات الأسواق. وهذا يعنى أن بعض الأقمشة التى أنتجوها كانت متماشية مع الموضات العالمية، التى تسابقت على الأقطان المطبوعة، والمنسوجات ذات النمط الهندى. ويعنى ذلك أنهم أنتجوا أيضا كميات كبيرة من الأقمشة الرخيصة، والتى كانت مخصصة للسكان البسطاء والفقراء، بمن فيهم العبيد العاملون فى جزر الهند الغربية الفرنسية.

كان من نتائج التكيف مع الأسواق العالمية، زيادة التشابه بين عمل الحرفيين فى القاهرة، مع عمل الحرفيين فى مراكز إنتاج نسيج أخرى، فى حوض البحر المتوسط، والدولة العثمانية، وما وراءها. وكانت مدن كثيرة فى الدولة العثمانية وفى أوروبا تنتج نفس النوع من الأقمشة المقلدة للتصميمات الهندية. ومن ثم تزايدت وسائل التواصل بين أقاليم مختلفة ومتباعدة جغرافيا، كان إنتاج المنسوجات أحد العوامل التى أسهمت فى هذا التواصل.

من ناحية أخرى، استلزم الطلب المتزايد على الأقمشة المحلية، إدخال بعض تعديلات وتغييرات على نظام الطائفة، من حيث أساليب العمل وتنظيمه. ومع ذلك لم تطل هذه التغييرات كل نواحى نظام الطائفة، أو كل جوانب حياة الحرفيين وعملهم. حيث استمرت، بطرق مختلفة، الممارسات التقليدية داخل الطائفة: حيث استمر شيخ الطائفة محافظا على مكانته على رأس الطائفة، واستمر الاحترام والطاعة الواجبان له من قبل أعضاء الطائفة، ولم تُستثن من ذلك أى طائفة، بما فيها طوائف النسيج التى شهدت تطورات مختلفة عن باقى الطوائف. أى إن هذه الطوائف جمعت ما بين جانبين:

الأول، هو البعد الدولى الذى ارتبط بالتطورات المصاحبة للاقتصاد العالمى، والثانى، هو البعد التقليدى المحلى، الذى ربطهم بماضيهم بوصفهم أعضاء طائفة يعتزون بتقاليدهم فى التكافل والولاء، وهى مزيج مختلط من المحلية والعالمية.

على أن الحرفيين والطوائف التى ارتبطت بصناعة الأقمشة شهدت تطورا بطريقة معينة، تختلف عما سواها من الطوائف الأخرى التى كان مجال أنشطتها محدودًا، سواء الحيز الجغرافى لمجال نشاطها، أو الأسواق التى تُصرف فيها منتجاتها. ومن ثم يمكن لنا أن نضع طوائف النسيج طليعة للتغيير الذى شهده ذلك العصر.

تلقى التطورات التى شهدها القرنان السابع عشر والثامن عشر الضوء على فترة غير معروفة بشكل كاف فى تاريخ النسيج فى مصر. حيث توجد نماذج قليلة من منسوجات هذه الفترة محفوظة فى المتاحف، مقارنة بما لدينا من نماذج كثيرة تعود إلى العصر المملوكى. ومن ثم، لم تتم دراسة المنسوجات فى هذين القرنين، سواء من قبل المؤرخين، أو من قبل مؤرخى الفن. ولذلك يجب علينا أن نعيد النظر فيما يتردد على الدوام بأن إنتاج النسيج فى مصر شهد تدهورا حادا بعد العصر المملوكى (١٢٥٠-١٥١٧م)[1]. فى حين أن إنتاج النسيج استمر نشطًا جدا، وكان يوجد طلب على هذه المنسوجات فى العديد من الأسواق العالمية. وأخيرا كانت هناك ابتكارات جديدة فى طرق إنتاج النسيج. كل هذه التطورات تدفعنا إلى إعادة النظر فيما كتب حول تدهور صناعة النسيج بعد العصر المملوكى، وأن العصر العثمانى فى مصر ارتبط بالتدهور فى صناعة النسيج.

وما توصل إليه هذا الفصل من نتائج، لا تتفق مع قصة التدهور التى لحقت بصناعة النسيج. أحد أسباب اختلاف الرؤى، هو أن دراسة النسيج يجب أن تتم فى إطار التاريخ، وليس تاريخ الفن؛ فبينما ينظر التاريخ إلى هذه القضية من منظور

---

(1) Louise Mackie, "Towards an Understanding of Mamluk Silks: National and International Considerations," Muqarnas 2 (1984): 127.

مختلف، يضع فى اعتباره أهمية النسيج للاقتصاد والتطورات المتلاحقة. ينظر تاريخ الفن إلى النسيج من منظور جمالى. ومن ثم يرى مؤرخو الفن، الذين يدرسون النسيج الإسلامى فى العصور الوسطى، أن إنتاج النسيج فى مصر شهد تدهورا حادا، فى أواخر العصور الوسطى. وعلى سبيل المثال، تقول لويز ماكى Louise Mackie: إن صناعة النسيج المملوكى ازدهرت فى القرن الرابع عشر، وأصبحت من أقوى بضائع تجارة النسيج فى حوض البحر المتوسط وتجارة البهارات العابرة بين الشرق والغرب. وقالت بأن تدهور جودة المنسوجات، وارتفاع أثمانها فى القرن الخامس عشر، قد أسهم فى الكساد الاقتصادى الذى شهده ذلك القرن. وفى نفس الوقت أتاحت الابتكارات التى شهدها قطاع النسيج فى أوروبا، المجال أمام تدفق منسوجات أعلى جودة وأرخص سعرا على الأسواق المملوكية[١]. ومن ثم لم يكن بمقدور مصر أن تنافس فى أسواق النسيج. ولكن ينبغى أن نعيد النظر فى هذه الآراء فى ضوء المستجدات والمواد الحديثة حول هذا الموضوع.

إن لمصر تاريخًا طويلاً مع صناعة النسيج. حيث كان النسيج يصنع فى مصر منذ العصر الفرعونى، ثم النسيج القبطى المعروف بتصميماته المميزة، واستمر إنتاج النسيج فى العصور الإسلامية الأولى، حتى وصل ذروته فى العصر الفاطمى، ثم كان إنتاج النسيج المميز عالى الجودة فى العصر المملوكى. كل عصر كانت له خصوصيته، وطريقة تطوير تقنياته. وكذلك الحال فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، حيث كانت هناك ابتكارات ومبادرات فى تقنيات الإنتاج، مثل الصباغة أو الزخرفة، ولكن كانت هناك ابتكارات أيضا فى التوسع فى إنتاج الأقمشة الرخيصة والخشنة، والتى كان الطلب عليها كبيرًا فى الأسواق العالمية لرخص أسعارها، ولمتانتها. إن الحيوية والنشاط اللذين ميزا صناعة الأقمشة فى ذلك العصر، يجب أن نبحث عنهما فى

---

(1) Louise Mackie, "Towards an Understanding of Mamluk Silks," 127-46; Patricia Baker, Islamic Textiles (London: British Museum Press, 1995), 152; John Gillow, Textiles of the Islamic World (London: Thames and Hudson, 2010), 18.

جوانب أخرى من إنتاجها لم تُبحث بعد. ومن ثم، فإنه من المهم أن نحدد المعايير المناسبة للمقارنة بين عصر معين والعصور السابقة عليه.

لقد كانت الظروف المحلية والإقليمية والدولية لتلك الفترة التاريخية الحاسمة، هى التى دفعت طوائف مثل طوائف النسيج لأن تكون الأكثر تأثرا بالتطورات اللاحقة فى أوائل القرن التاسع، مع سياسات التصنيع الذى أدخلها محمد على، خاصة وأن طبيعة ما تنتجه هذه الطوائف وأسواقها، والتعديلات التقنية التى أدخلها الحرفيون، جعلها فى طليعة هذه الطوائف. كذلك كان محمد على يهدف إلى تسويق منتجه فى الأسواق العالمية. وعلى ذلك، فإن دراسة طوائف النسيج فى القرنين السابع عشر والثامن عشر من شأنها أن تبين بعض السوابق التى قامت عليها سياسات محمد على. إذ تشير إلى أن بعض التطورات التى حدثت فى أوائل القرن التاسع عشر كانت لها جذور فى القرن الثامن عشر، ولكن كانت هناك أيضا اختلافات. فى القرن الثامن عشر لم تأت المبادرات من قبل الدولة وسياساتها، بل كانت مبادرات ومبتكرات الحرفيين وطوائفهم، فى حين أن الأمر فى القرن التاسع كان برمته سياسات الدولة هى التى حددت اتجاه التطورات التى من شأنها أن تضع مصر على خريطة الاقتصاد العالمى.

نقطة أخيرة فى تاريخ النسيج تأخذنا إلى بدايات القرن التاسع عشر، وسياسات محمد على الصناعية. إذا ربطنا بين هذه السياسات والفترة السابقة عليها، القرن الثامن عشر على سبيل المثال، فإن ذلك يتطلب أن نعيد النظر فى بعض الأمور. بشكل عام، امتدح محمد على بسبب سياساته الصناعية المبتكرة، وحاز كل الفضل. ولكن فى الحقيقة، كانت الأرض مهيأة لإنجاز سياساته الطموحة. ولكنه يستحق الشكر والتعظيم لإدراكه وجود أساس يجعله يركز فى سياساته التصنيعية على النسيج: تمثل هذا الأساس فى: وجود الحرفيين المهرة؛ ووجود أسواق للمنسوجات المحلية؛ وبعض الممارسات المبتكرة التى ابتدرها الحرفيون وطوائفهم أصبحت تُطبق؛ فكرة أنه من الأفضل أن تستخدم الإمكانيات المتاحة لبدء صناعة جديدة. إذا، لم تكن فقط الدوافع القادمة من أوروبا هى التى دفعته لاختيار النسيج، بل كان أيضا إدراكه بوجود أساس محلى يمكن أن يبنى عليه.

الفصل الرابع

حرفيون، وجواسيس، ومنتجون:

انتقال التكنولوجيا من الدولة العثمانية إلى فرنسا

فى القرن الثامن عشر

نقل الخبرات، بدائل المركزية الأوروبية

شهد القرن التاسع عشر انتقال العلم والتكنولوجيا من أوروبا إلى مناطق أخرى من العالم. وعُرفت اختراعات واكتشافات جديدة غيرت وجه الحياة فى مدن عديدة خارج أوروبا. من بين هذه المبتكرات: السكك الحديدية، والسفن البخارية، والبنوك، والتلغراف، والفنادق، وشركات السياحة، وعدد كبير من الأدوات والماكينات. على أن انتقال هذه العلوم والمبتكرات إلى مناطق أخرى خارج أوروبا، تم فى وقت تنامت فيه سيطرة أوروبا على مناطق مختلفة من العالم، ومن ثم، صاحب هذه العملية خطاب مهيمن حول الفوائد الجمة التى يمكن أن تجلبها هذه العلوم والمعارف والتطورات إلى المجتمعات المتخلفة. وعلى ذلك راج الحديث حول الدور الذى يقوم به الاستعمار فى بث الحضارة فى تلك المجتمعات، حيث كان الاستعمار هو الإطار الرئيسى لنشر العلم والتكنولوجيا من مركز العلم إلى الأطراف المتخلفة. وعُد هذا الأمر الجانب الإيجابى للاستعمار[1].

1- Zaheer Baber, The Science of Empire: Scientific Knowledge, Civilization and Colonial Rule in India (Albany: State University of New York Press, 1996), 9-10.

ساعد هذا الخطاب على تعزيز التصورات المعاصرة عن صورة العالم خارج أوروبا، بأنه عالم "متخلف". ولكن كان هناك بعض التمييز لصالح بعض المناطق التى كان لها تاريخ حضارى سابق معروف، مثل مصر والهند؛ فكان التناول مختلفًا بعض الشيء؛ حيث الحديث عن تاريخهما العريق، وحضاراتهما السامية القديمة، ولكن شهدت هذه المناطق تدهورا وتخلفا، وتوارت عصورها الذهبية قبل بداية العصر الحديث. فى حين اعتبرت المناطق الأخرى، التى لم تشهد حضارات سابقة، مثل معظم أجزاء إفريقيا والأمريكتين، أنها غارقة فى الجهل والتخلف منذ البداية، ومن ثم كان يُنظر إليها على أنها أقاليم بدائية أو بربرية. وفى كلتا الحالتين، وصفت هذه المناطق بافتقارها إلى التكنولوجيا، أو أنها كان لديها أشكال بدائية وبسيطة من التقنيات، وبأن شعوبها كانوا عديمى المهارات، أو لديهم مهارات متدنية جدا. وعلى ذلك لم يكن لدى هذه الأقاليم ما تقدمه إلى علماء العالم المتقدم، سوى المواد الخام المتوافرة بكثرة، والتى يمكن استخدامها بطريقة أفضل فى أوروبا. وعلى ذلك، كان من الطبيعى أن يرفض، أو يتصور، هذا الخطاب الفوقى أى إمكانية لانتقال المعارف أو التقنيات فى الاتجاه المعاكس: من الشرق إلى الغرب، أو من أسفل لأعلى، من المهنيين والحرفيين إلى العلم الحديث والصناعة. حيث إن انتقال العلوم والمعارف له اتجاه وحيد: من أوروبا إلى بقية أنحاء العالم.

كان لهذه الآراء تأثير قوى على الدراسات التاريخية، وفى نفس الوقت ترسخت هذه الآراء بمساعدة الدراسات التاريخية التى نحت هذا النحو. وعلى ذلك كتبت تواريخ آسيا والهند والشرق الأوسط، تحت تأثير خطاب القرن التاسع عشر المهيمن، وبأن أوروبا كانت مصدراً للمبتكرات الحديثة والمعارف، بينما كانت مجتمعات غير أوروبية عديدة بمثابة مستقبل فقط لهذه الإنجازات والمعارف. ولكن، هناك دراسات أخرى أشارت إلى التطور الذى شهدته العلوم الإسلامية فى العصور الوسطى، والتى كان لها تأثير فيما بعد على العلوم الأوروبية؛ بينت هذا الأمر بوضوح أعمال رشدى رشاد

وجورج صليبا[١]. وبالرغم من ذلك، مازال العديد من الأعمال الرئيسية حول تاريخ العلم يعتبر أن اليونان هى المصدر الوحيد للتطورات التى شهدتها العلوم فى أوروبا، ولا يوجد مكان للعلوم الإسلامية فى هذه التواريخ. وفى معظم الأحوال، تذكر تلك التواريخ أن العلوم الإسلامية قد تجمدت بعد العصر الذهبى للإسلام فى العصور الوسطى. وأحد أهم الحجج الدائرة حول التدليل على تدهور العلوم الإسلامية، هو فشلها فى أن يتمخض عنها العلم الحديث[٢]، وصار العرب مستقبلين فقط للمعارف القادمة من الغرب. وهناك تفسير آخر لتدهور العلوم العربية، طرح من قبل أكبر مؤيدى فكرة التفوق الأوروبى، مؤداه أن الثقافة العربية تعتبر أن التفكير العلمى أو الفلسفى من شأنه أن يلهى المؤمنين بعيدا عن الله[٣] مثل هذه التبريرات الثقافية للتفوق الأوروبى، والتخلف المفترض لغير الأوروبى، تشير إلى حقيقة حتمية باستحالة أن تتغير تلك الثقافات "المتخلفة" إلى الأحسن.

وعلى ذلك، كُتب، ولا يزال يُكتب، تاريخ العلم فى العصر الحديث على أنه تاريخ العلم والتكنولوجيا الأوروبية، وكيفية تأثيرها على المناطق الأخرى من العالم خارج أوروبا[٤]. أحد الأمثلة الدالة على ذلك، عمل حديث جدا، وهو المجلد الرابع من موسوعة كمبردج لتاريخ العلم The Cambridge History of Science، والذى يتناول القرن الثامن عشر. فى الفصل المخصص للإسلام، ترد إشارات متعددة لوصف علوم العالم الإسلامى بأنها محافظة أو تقليدية. ويتأسف المؤلف لعدم وجود تأثير قوى للعلوم

(1) Roshdi Rashed, The Development of Arabic Mathematics: Between Arithmetic and Algebra (Dordrecht, Netherlands: Kluwer Academic Publishers, 1994); George Saliba, Islamic Science and the Making of the Renaissance (Cambridge, MA: MIT Press, 2007).

(2) Toby E. Huff, The Rise of Early Modern Science: Islam, China, and the West, 2nd ed. (Cambridge: Cambridge University Press, 1993, 2003),

(3) David Landes, Prometheus Unbound: Technological Change and Industrial Development in Western Europe from 1750 to the Present (Cambridge: Cambridge University Press, 2003), 28.

(4) H. Floris Cohen, "Review Essay," in "From West to East, from East to West? Early Science between Civilizations," Early Science and Medicine 17 (2012): 339-50.

الأوروبية على العالم الإسلامى، حيث يرصد التأخر الملحوظ فى مجال الطب، مقارنة بالتطور الحادث فى أوروبا، وعدم انتقاله إلى الشرق الأوسط. أى إن تركيز هذا العمل انصب على الحديث حول أثر العلوم الأوروبية على العالم الإسلامى، وليس الحديث عن علوم العالم الإسلامى؛ فيذكر على سبيل المثال كيف تأثر الأطباء فى إستانبول بالطب الأوروبى[1]. وحتى الآن، هناك عدد قليل من المؤرخين الذين اهتموا بالنشاط العلمى فى العالم الإسلامى، فيما بعد. العصور الوسطى، نذكر منهم وليم جرفيس كلارنس سميث William Gervase Clarence-Smith، حيث قام بعمل مسح مختصر لعلوم العالم الإسلامى قبل القرن التاسع عشر[2]. كذلك توجد بعض الدراسات عن مصر فى القرن الثامن عشر، مثل دراسات بيتر جران Peter Gran[3]، وصبرى العدل[4]، ورايمر برمير Raimer Broemer[5]. على أن هذه الدراسات يجب أن توضع فى السياق الأوسع لتاريخ العالم بدلا من المجال الضيق للدراسات البينية.

---

(1) Emilie Savage-Smith, "Islam," in The Cambridge History of Science, vol. 4, Eighteenth Century Science, ed. Roy Porter (Cambridge: Cambridge University Press, 2003), 659-61.

(2) William Gervase Clarence-Smith, "Technological and Scientific Change in Early Modern Islam, 1450-1850," paper given at the XIV International Economic History Congress, Helsinki, 2006.

(3) Peter Gran, Islamic Roots of Capitalism: Egypt 1760-1840 (Cairo: American University in Cairo Press, 1999), 170.

بيتر جران: الجذور الإسلامية للرأسمالية فى مصر ١٧٦٠- ١٨٤٠م؛ ترجمة: محروس سليمان، القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٣م.

(4) Sabri al-Adl, "The Study of Astronomy According to the Chronicle of al-Jabarti," in Society and Economy in Egypt and the Eastern Mediterranean, 1600-1900, Essays in Honour of André Raymond, ed. Nelly Hanna and Raouf Abbas (Cairo: American University in Cairo Press, 2005), 181-200

(5) Raimer Broemer, "Scientific Practice, Patronage, Salons and Enterprise in Eighteenth-century Cairo: Examination of al-Gabarti's History of Egypt," in Multicultural Science in the Ottoman Empire, ed. Ekmeleddin Ihsanoglu, Kostas Chatzis, and Efthymios Nicolaidis (Turnhout, Belgium: Brepols, 2003), 107-20.

مراجعات حول قضية انتقال الخبرات

على الرغم من أن التيار الرئيسى للدراسات كان يسير باتجاه المركزية الأوروبية، فإن الأعوام القليلة الماضية شهدت ظهور باحثين قدموا مراجعات لهذه الآراء، على المستويين النظرى والتطبيقى، وتحدت هذه الدراسات ذلك النموذج المهيمن، ووضحت أن المعرفة لم تكن عملية أحادية الاتجاه، وأنها لم تكن وليدة أى إقليم بعينه، ولكنها كانت متعددة المصادر والاتجاهات[1]. من بين هؤلاء الباحثين، جيمس بلاوت James Blaut، والذى نقض ما أسماه النموذج "الانتشارى" للتاريخ، ذلك النموذج الذى يقوم على اعتبار وجود مركز وحيد تنتشر منه المعرفة إلى بقية أجزاء العالم، وبالطبع أوروبا هى ذلك المركز، وباقى العالم هم المستقبلون لهذه المعرفة الأوروبية. يقول بلاوت Blaut عكس ذلك، وإن "أوروبا الحديثة" تشكلت جزئيا بواسطة العالم غير الأوروبى[2].

هناك عدد من الدراسات حول الهند وآسيا والأمريكتين، منذ القرن السادس عشر فصاعدا، سارت على نهج مماثل. وقدمت هذه الدراسات نماذج واضحة وقوية حول الكيفية التى سطا بها الأوروبيون على المعارف المحلية لكل من: الهنود الحمر (السكان الأصليين لأمريكا)، وشعوب جنوب شرق آسيا، والهنود، ثم أدمجوها فى المجتمعات الأوروبية، فصارت أوروبية الطابع. من هذه الدراسات، دراسة الباحث الفرنسى برتراند رومان Bertrand Romain، والذى يعتبر أن "الاكتشافات الكبرى" فى القرن السادس عشر لم تكن فقط نتيجة لتخيلات ورؤى الأوروبيين، بل كانت نتيجة لجهد مشترك مع سكان جنوب شرق آسيا؛ حيث يقول إن التطورات الأوروبية فى مجال العلم والتكنولوجيا تدين بالفضل للمساعدات التى حصلوا عليها من الخبراء المحليين،

---

(1) Avner Ben Zaken, Cross-Cultural Scientific Exchanges in the Eastern Mediterranean, 1560-1660 (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2010).

(2) James M. Blaut, "Diffusionism: A Uniformitarian Critique," Annals of the Association of American Geographers 77, no. 1 (March 1987): 30-47.

ومن المعارف المحلية لتلك المناطق. فالهولنديون الذين وصلوا سومطرة لم يكونوا ملمين بأى من اللغات المحلية هناك، وكانوا يستعينون بالمترجمين المحليين للتواصل مع الناس. وبالمثل، كان عليهم الاعتماد على السكان المحليين ليمدوهم بالمعلومات حول أماكن الملاحة وطرقها، وكيفية رسم الخرائط للمنطقة(١). وفى النهاية كل هذه الخرائط نُسبت بالكامل إلى الهولنديين، وكأنهم أتموا هذه الخرائط بمفردهم، وبدون مشاركة من أحد. والحقيقة أنهم لم يكن بمقدورهم أن يرسموا هذه الخرائط دون مساعدة الكثير من الأفراد المحليين. نفس هذا الأمر وجده المؤرخ أندريه بيرْيتو Andres Pireto فى القسم الإسبانى من جنوب أمريكا، حيث إن اكتشافات الآباء اليسوعيين اعتمدت على المعارف المحلية التى اكتسبوها من السكان المحليين، وأسهمت هذه المعارف، فى نهاية المطاف، فى التطورات العلمية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر. من بين هذه المعارف، طرق العلاج التقليدية المحلية، والتى كانت هى العلاج لأمراض لم يتمكن علم الطب من التعامل معها. كذلك، النباتات الطبية والمعارف التقليدية التى كان يستخدمها أهل تلك المناطق طرقًا للعلاج، أُستُخدم بعضها أساسًا لوصفات ومنتجات طبية. وما حدث فعليا، هو أن الإسبان سطوا على هذه المعارف ونُسبت لهم، وطُمس دور السكان المحليين(٢). وما يظهره هذا المنهج، أن المعارف التقنية التى تطورت فيما بعد، وصارت أحد أسس العالم الحديث، كانت نتيجة جهد مشترك من الطرفين: المستعمِر والمُستَعمَر.

ركز هذا النوع من الدراسات على آسيا والهند والأمريكتين. وبالرغم من أن مصر والدولة العثمانية كانت لهم تعاملات وتبادلات تجارية نشطة وكبيرة مع أوروبا، فإن

---

(1) Romain Bertrand, L'Histoire à parts égales: Récits d'une rencontre Orient- Occident (XVIe-XVIIe siècle) (Paris: Editions du Seuil, 2011), 12-14, 59, 68-84.

(2) Andres I. Pireto, Missionary Scientists: Jesuit Science in Spanish South America, 1570-1810 (Nashville, TN: Vanderbilt University Press, 2011), 2, 82.

الدراسات المماثلة حول إسهامات الدولة العثمانية عامة، ومصر بشكل خاص، لا تزال فى بداياتها، وما تم إنجازه قليل للغاية(١).

وانطلاقا من تلك النقطة، يهدف هذا الفصل إلى أمرين: الأول، دراسة انتقال الخبرات والتقنيات من الدولة العثمانية (مع التركيز على مصر) إلى أوروبا، وبخاصة إلى فرنسا؛ حيث كانت فرنسا الشريك التجارى الأساسى للدولة العثمانية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر. ثم بعد ذلك، انتشرت هذه الخبرات والتقنيات من فرنسا إلى مناطق أخرى فى أوروبا. إن دراسة التبادل ما بين الجنوب والشمال، بدلاً من الشمال والجنوب، هى قضية مهمة لفهم أوسع وأشمل للعلاقات بين الشمال والجنوب. القضية الرئيسية لاستعراض تلك العلاقات هى محاولة فهم إسهامات المعارف غير الأوروبية فى تشكيل العالم الحديث.

الهدف الثانى لهذا الفصل، هو دراسة العلاقات بين العلماء والحرفيين، بغرض الوقوف على ما إذا كان للحرفيين أى إسهام ممكن فى تطور العلم الحديث والتكنولوجيا. وهل يمكن النظر إلى هذه العلاقات والتبادل على أنهما عمليات من أسفل إلى أعلى؟ نحن نعرف القليل عن مثل هذا النوع من العلاقات فى مصر. يذكر الجبرتى عن والده الشيخ حسن الجبرتى (ت. ١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م) أنه كان متعدد المواهب، حيث كان ضليعا فى العلوم الإسلامية، وكان لديه اهتمام خاص بعلم الفلك والهندسة. ولهذا الغرض، جمع الشيخ حسن الجبرتى عدداً من الحرفيين والمهنيين فى منزله، ليشرحوا

---

(1) Athanasios Gekas, "A Global History of Ottoman Cotton Textiles, 1600-1850," EUI Working Papers, No. 2007/30, European University Institute, Badia Fiesolana (2007), 1-23; Olivier Raveaux, "Spaces and Technologies in the Cotton Industry in the Seventeenth and Eighteenth Centuries: The Example of Printed Calicoes in Marseilles," Textile History 36, no. 2 (Nov. 2005): 131-45; Olivier Raveux, "The Birth of the Calico Printing in Europe: The Case of Marseilles (1648-1692)," paper presented at the GEHN conference,"Global Histories of Economic Development:Cotton Textiles and =

له كيفية صناعة الإسطرلاب والأرباع والعدد الهندسية(١). من الواضح أن حسن الجبرتى كان يحاول أن يجمع ما بين معارفه النظرية والخبرات المهنية للحرفيين المحليين.

كانت قضية إسهام الحرفيين والمهنيين المحليين فى منظومة العلم الحديث موضع نقاش لفترة طويلة. ويدور هذا النقاش حول معارف معينة وصلتنا عن طرق أخرى غير المفكرين والفلاسفة، أو ليست عن طريق المعامل البحثية، وهى تلك المعارف التى وصلتنا عن طريق أشخاص لم يكونوا بالضرورة متعلمين، مثل الحرفيين والمهنيين الذين اكتسبوا معارفهم من خلال ممارساتهم اليومية، وعن طريق التجربة والخطأ، واعتمدت معارفهم على أشياء ومواد مادية بدلا من النصوص. والسؤال هنا: ماذا عن القيمة العلمية لهذا النوع من المعارف؟ وإذا كان للمعرفة العلمية قيمة عالية، فهل للمعارف المحلية نفس القيمة؟ والسؤال المطروح هنا يدور حول دور، إذا وجد، خبرات الحرفيين فى تأسيس العلم الحديث. وأولت هذه المناقشات أهمية خاصة للتبادل المكثف الذى شهدته الفترة السابقة على العصر الحديث. وترى الدراسات الحديثة حول هذا الموضوع فى القرن السابع عشر، أنه يجب أن نعيد النظر فى تلك الكتابات الأساسية التى تنسب الثورة العلمية إلى المفكرين الأوروبيين من أمثال: بيكون، كوبرنيكس، نيوتن، ديكارت، جاليليو، وتقترح إضافة ذلك العدد الذى لا يحصى من الحرفيين المجهولين، الذين أسهموا فى هذه الثورة(٢). وهذا الاتجاه يمثل تطوراً مهمًا فى الدراسات حول هذا الموضوع. ومع ذلك، فإن معظم الدراسات التى تناولت تاريخ الثورة العلمية ركزت على إسهامات الحرفيين الأوروبيين فى حقول علمية متعددة.

= Other Global Industries in the Early Modern Period," Fondation Les Treilles, March 2006); Liliane Hilaire-Perez, "Cultures techniques et pratiques de l'echange, entre Lyon et le Levant: inventions et reseaux au XVIIIe siecle," Revue d'histoire moderne et contemporaine 49, no. 1 (2002): 89-114

(1) Abd al-Rahman al-Jabarti's History of Egypt, Ajaib al-Athar fi'l Tarajim wa'l-Akhbar, ed. Thomas Philipp and Moshe Perlmann (Stuttgart: Franz Steiner Verlag, 1994), vol. 1, 664-65.

(2) Clifford D. Connor, A People's History of Science: Miners, Midwives and "Low Mechanicks" (New York: Nation Books, 2005), 249-50.

وهذا الفصل يسهم بدوره فى هذا النقاش، عن طريق دراسة الحرفيين غير الأوروبيين، بغرض إيجاد مكان لهذه القضية ضمن الجدل الدائر حول هذا الموضوع.

تزايد الاهتمام بالحرف

يعد القرن الثامن عشر فترة محورية فى تاريخ العلاقات بين الدولة العثمانية وأوروبا. فمن ناحية، كان هذا القرن هو الفترة السابقة على فترة الهيمنة الأوربية على الشرق الأوسط فى القرن التاسع عشر، وإنشاء الاقتصاديات التابعة. من ناحية أخرى، شهد هذا القرن أيضا ذروة العلاقات التجارية بين الدولة العثمانية وأوروبا. ومع هذا النشاط التجارى المكثف، شهد هذا القرن أيضا نشاطًا آخر موازيًا لنوع آخر من التبادل، وهو تبادل الخبرات والمعلومات والمعارف. وخلال هذا القرن، اهتم المستثمرون والمنتجون الفرنسيون بالوقوف على الخبرات والتقنيات المتوافرة فى الدولة العثمانية؛ حيث كان هذا القرن هو عصر الاختراعات والتطور، وبدايات انطلاق الثورة الصناعية. وكانت هناك قنوات متعددة للتعرف على هذه الخبرات والتقنيات؛ حيث دعمت الدولة، فى الغالب، وكذلك الأمراء والملوك المهتمون بالأعمال البحثية، فئات كثيرة للسفر والترحال إلى مناطق مختلفة فى الدولة العثمانية، كان من بينهم: تجار، جواسيس، منتجون، رجال دين، قناصل، علماء، كيميائيون. كان على رأس قائمة هؤلاء الرحل: الآباء اليسوعيون، حيث ارتحلوا وأقاموا لفترات طويلة فى بلاد مختلفة، من بينها مصر. وانخرطوا فى جمع المعلومات حول هذه البلاد وسكانها، وكان لليسوعيين السبق فى ذلك، حيث مكنهم طول البقاء، وتعودهم على اللغة من جمع معلومات أكثر استفاضة، وسجلوا ملاحظاتهم حول أمور كثيرة، من بينها طرق الصناعة والإنتاج. وأرسلوا هذه التقارير إلى موطنهم الأصلى. ولحسن الحظ أن الكثير من هذه الأعمال نُشرت، وأصبحت تمثل الآن مصدرًا مهمًا جدا لدراسة موضوع الانتقالات والتبادلات.

قام عدد من الرحالة، الذين جاءوا إلى الدولة العثمانية فى القرن الثامن عشر، بتدوين ملاحظاتهم ووصفهم لتقنيات مهنية عديدة استوقفتهم وشدت انتباههم. وعندما عادوا إلى مواطنهم قاموا بمحاكاة هذه التقنيات. أحد هؤلاء كان الرحالة الفرنسى جان كلود فلاشاه Jean-Claude Flachat، (وهو لم يكن من اليسوعيين)، حيث كان فى زيارة لإستانبول فى ستينيات القرن الثامن عشر، وتوقف أمام وجود مطاحن الدقيق هناك، وعندما عاد إلى بلدته ليون Lyon قام ببناء مطحن مماثل[1]. فى أثناء الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١م) وجد الفرنسيون فى مصر عدداً من طرق العلاج الطبية، تعلموها من الأطباء المحليين، وعندما عادوا إلى فرنسا، طبقوها فى مصحاتهم. أحد طرق العلاج هذه كانت طريقة علاج أحد أمراض العيون (التهاب الملتحمة)، وكان هذا المرض أحد الأمراض المزمنة بمصر[2]. لم يكن هذا المرض معروفا فى أوروبا قبل الحملة الفرنسية، وعندما جاء الفرنسيون إلى مصر أصيب عدد كبير من الجنود، العسكريين لدرجة أن الكثير منهم أصيب بالعمى، وعاد الفرنسييون إلى فرنسا حاملين معهم هذا المرض إلى أوروبا. وتحركت الجيوش الفرنسية من مكان إلى مكان حاملين معهم هذا المرض، حيث أصاب هذا المرض العسكريين والمدنيين على السواء. وبعد قليل ظهر هذا المرض بين صفوف القوات البريطانية، وأصيب أيضا عدد من الجنود بالعمى. ومن ثم صار مرض "التهاب الملتحمة" أحد الأمراض المعروفة فى أوروبا، فى وقت لم يكن يعرف الأطباء الأوربيون عنه إلا القليل. فى بداية الأمر، حاول أطباء الحملة الفرنسية مداواة الجنود المصابين بالملتحمة بطرق علاج متعددة، ولكن كان أنسب طرق العلاج وأنجحها هى تلك التى كان يستخدمها الأطباء المصريون المحليون[3]. وعندما انتشر هذا المرض بشكل وبائى فى أحد دور الأيتام بباريس عام ١٨٣٢م، تم تطبيق

(1) Jean-Claude Flachat, Observations sur le commerce et sur les arts, vol. 1 (Lyon: Chez Jacquenod pere et Rusand, 1766), 7.

(2) "Memoire sur l'ophthalmie endemique en Egypte," in Description de l'Égypte, vol. 13, État Moderne, 2nd ed. (Paris: Panckoucke, 1823), 36-50.

(3) "Notice sur l'ophtalmie regnante par le citoyen Bruant, medecin ordinaire de l'armee," in La Décade Égyptienne, vol. 1 (An VII/1799), p. 63.

طرق علاج أطباء العيون المصريين بنجاح[١]. إن طرق العلاج هذه، وغيرها كثير، والتى كانت شائعة فى مصر، آلت فى النهاية لتشكل جزءا من منظومة الطب الأكاديمى، وصارت مستخدمة فى طرق العلاج الأوروبية لهذه الأمراض. وتقول كاترين كيلى Catherine Kelly إن المواجهات بين الأطباء العسكريين الفرنسين والبريطانيين التى حدثت بمصر، لم تؤثر فقط على أدائهم فى الحملات العسكرية التالية، ولكنها رسخت فكرة بين الأطباء العسكريين بأن الطب العسكرى يتطلب معارف متخصصة نوعية[٢].

هناك بعض الأمثلة لنماذج عديدة من مهن محلية اندمجت فى منظومة العلم العالمية، ولازالت بحاجة إلى الدراسة والتقصى. وهذه النماذج تدفعنا إلى طرح أسئلة حول العلاقة ما بين العلم والتكنوجيا من ناحية، وبين خبرات ومعارف الحرفيين من ناحية أخرى. وفى الغالب، يُنظر إلى كل من التكنولوجيا عامة (بما فيها خبرات الحرفيين)، والمعرفة العلمية على أنهما مجالان مختلفان ومستقلان. فالعلم يتعامل مع القضايا الفكرية، والتكنولوجيا تتعامل مع القضايا العملية والمحددة. ويشير هذا التصنيف إلى نوع من التراتبية، حيث يحتل العلم مكانة متقدمة عن التكنولوجيا. ولكن لم ينل الدور المهم الذى لعبته خبرات المهنيين فى تطور العالم الحديث، حظه من التقدير الملائم. ونموذج علاج التهاب الملتحمة يعد دليلا على فاعلية العلاج الطبى "التقليدى"، وهذا من شأنه أن يؤكد عدم الدقة فيما يقال حول الفصل ما بين الخبرات العملية والمعارف النظرية، وأنه لم يكن دائما بتلك الطريقة التى أشار إليها الباحثون. والحقيقة، أنه توجد قضايا نحتاج إلى مراجعتها وإعادة التفكير بشأنها فى سياق تاريخ العالم قبل العصر الحديث.

---

(1) Salvatore Fumari, Traité pratique des maladies des yeux (Paris: Chez J-B. Bailliere, 1841), 139-43.

(2) Catherine Kelly, "Medicine and the Egyptian Campaign: The Development of the Military Medical Oflcer during the Napoleonic Wars c. 1798-1801," Canadian Bulletin of Medical History 27, no. 2 (2010), 337.

فرنسا والدولة العثمانية : تكنولوجيا النسيج

من بين النماذج العديدة لانتقال الخبرات، هناك نوع محدد يبدو أنه حظى باهتمام أكبر من المستثمرين والتجار الفرنسيين، وهو مجال صناعة النسيج. وتوضح المصادر الفرنسية، فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الاهتمام الشديد بمحاولات تعلم خبرات الحرفيين فى مجال صناعة النسيج، فى القاهرة وأدرنة وإستانبول. ومن خلال هذه المصادر الفرنسية يمكننا أن نتبين ماذا كان يسعى إليه الفرنسيون بوجه خاص، وكيف انتقلت هذه التقنيات والخبرات، ومن كان وراء هذه الانتقالات، وفى بعض الحالات، ماذا حدث لهذه الخبرات والتقنيات، عندما وصلت إلى فرنسا، وكيف أصبحت بعض من هذه التقنيات والخبرات ركنا من أركان صناعة النسيج فى فرنسا.

وسنركز هنا على أمرين: الأول، وهو انتقال تقنيات صناعة النسيج إلى فرنسا؛ والثانى، وهو شغف المنتجين والمستثمرين والباحثين والجواسيس الفرنسيين بالبحث عن الطرق الجديدة المستخدمة فى صناعة النسيج، والتى أدت إلى تطور إنتاج النسيج فى الدولة العثمانية. والتركيز على النسيج له دلالة مهمة. حيث اعتاد الرحالة الغربيون فى الغالب على البحث عن كل ما هو غريب ومثير فى الشرق، مثل الحيوانات الغريبة الخرافية، ولكن فى هذه الحالة كان الأمر متعلقًا بأمور عملية واقعية، واهتمامات اقتصادية مباشرة.

أهمية المنسوجات

كانت أهمية المنسوجات فى القرن الثامن عشر متعددة الجوانب. أولاً، كانت تجارة النسيج وإنتاجه فى صلب الإنتاج الصناعى والاقتصاديات الصاعدة، فى بدايات الثورة الصناعية. ومن ثم، كان من المهم لدول أوروبية كثيرة أن تطور صناعتها. ولم تكن صناعة النسيج أهم صناعة فقط، بل كانت هى المحرك الرئيسى للثورة الصناعية. وعلى ذلك لم يكن من المستغرب أن تهتم المصادر الفرنسية بالتقنيات الخاصة بصناعة النسيج، أكثر من اهتمامها بأى مجال آخر.

لقد استطاع الأوربيون أن يفرضوا هيمنتهم الاقتصادية على أقاليم عدة، عن طريق المنسوجات. أحد الأمثلة المعروفة فى القرن التاسع هى حالة الاحتلال البريطانى لمصر، حيث إن هذا الأمر ارتبط بشدة بحاجة بريطانيا للقطن المصرى فى صناعة النسيج. فى القرن الثامن عشر، كانت هناك منافسة شديدة على الوصول إلى الأسواق، بين مراكز إنتاج نسيج مختلفة فى الدولة العثمانية، وفى الدول الأوروبية، مثل إنجلترا وفرنسا - بالطبع كانت هناك منافسة خاصة بين الدولة العثمانية وبين أوروبا. وكان هناك دأب فى البحث عن إجراءات مختلفة وجديدة للمساعدة فى المنافسة فى مجالى الأسعار والجودة. ولم يكن هذا الأمر مقصورا على مصر والدولة العثمانية فقط، ولكن كانت هناك منافسة حامية أيضا بين إنجلترا وفرنسا. وعلى ذلك يمكننا أن نضع قضية البحث عن تقنيات وطرق جديدة لتطوير الإنتاج فى سياق تلك المنافسة؛ حيث إن بحث الفرنسيين عن هذه التقنيات كان فى واقع الأمر فى إطار محاولاتهم للتفوق على الإنجليز.

كان لصناعة النسيج وزن اقتصادى معتبر فى كل من الدولة العثمانية وأوروبا. حيث توزعت مراكز مهمة لإنتاج النسيج عبر الدولة العثمانية، مثل: إستانبول، بورصا، أدرنة، دياربكر، حلب، دمشق، القاهرة. كما كانت المنسوجات هى السلعة الرئيسية، فى القرن الثامن عشر، فى عمليات التبادل التجارى بين الدولة العثمانية والهند، وكذلك بين العثمانيين وفرنسا. بالنسبة لمصر، فإن صناعة النسيج صناعة قديمة تاريخية، يعود تاريخها إلى قرون عديدة، اكتسب الحرفيون خلالها خبرات ومهارات واسعة موروثة، تراكمت عبر هذا التاريخ الطويل. وفى القرن الثامن عشر، دخلت صناعة النسيج طورا جديدا، وذلك استجابة لحاجات الأسواق العالمية، حيث تبنت هذه الصناعة تقنيات جديدة، واتبعت موضات جديدة، وتوسعت فى إنتاج الأقمشة القطنية، وأسست طوائف نسيج جديدة، متخصصة فى المنسوجات ذات الطرز الهندية[1]. ومع تزايد الطلب على المنسوجات القطنية ذات الطرز الهندية، جرت محاولات عدة فى مراكز إنتاج النسيج فى الدولة العثمانية لإنتاج منسوجات مماثلة، أو استخدام نفس الأنماط. وفى منتصف

---

(١) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب.

القرن السابع عشر، وخلال القرن الثامن عشر، ظهرت طوائف جديدة فى عدة مدن فى الدولة العثمانية، تخصصت فى التصميمات ذات الألوان المطبوعة ذات الطرز الهندية، أو ما عُرف بطوائف "البصمجية"[1]. وتم رصد هذا الأمر فى القاهرة وبلاد الشام والأناضول.

قام الفرنسيون بشراء كميات ضخمة من الأقمشة المصنوعة فى الدولة العثمانية فى القرن الثامن عشر. ومنذ القرن السابع عشر، احتلت فرنسا المكانة التى كانت للبندقية فى العصور الوسطى، بوصفها موزعًا لمنتجات الشرق فى أوروبا. وأصبحت فرنسا هى الموزع الرئيسى للبضائع العثمانية فى أوروبا. حيث كانت تُشحن البضائع العثمانية إلى ميناء مارسيليا، ومنها يُعاد توزيعها إلى مناطق أخرى مختلفة. وفى نفس الوقت كانت هناك محاولات من السلطات الفرنسية للحد من عمليات استيراد الأقمشة الشرقية، والعمل على تصنيعها محليا. وعلى ذلك كانت سياسة التصنيع الفرنسى، إلى حد كبير، هى المحرك الرئيسى لمحاولات تقليد المنتجات الشرقية بدلا من استيرادها.

ومن أجل هذا الهدف، سعى المنتجون الفرنسيون إلى البحث عن طرق جديدة لتطوير إنتاج النسيج، فى مناطق مختلفة من العالم، وجاب التجار والمنتجون والمستثمرون أنحاء بعيدة خارج أوروبا، سعيًا وراء هذا الهدف. وعلى سبيل المثال، مولت الحكومة الفرنسية رحلات إلى الهند من أجل هذا الغرض. أحد هؤلاء الرحالة صباغ يسمى جنفرفيل Gonfreville، تلقى تدريبه أولا فى مصنع نسيج جوبلان Gobelin، ثم أُرسل إلى إقليم بونديتشرى Pondicherry الخاضع لشركة الهند الشرقية الفرنسية (١٨٢٧-١٨٣٠م)، لكى يتعرف على التقنيات التى يستخدمها الصباغون الهنود، ثم يتولى تطبيقها فى مصنعه فى روان Rouen[2] هذا مثال من بين عدة أمثلة، لمثل هذه الرحلات إلى مناطق بعيدة، بغرض جمع المعلومات والبيانات.

---

(١) حسام عبد المعطى: "صناعة الأقمشة..."، ص ٣٤١.

(2) Mireille Lobligeois, "Ateliers publics et fiatures privees a Pondichery apres 1816," Bulletin de l'École française d'Extrême Orient 59 (1972): 11-12, 15-22.

ولكن هناك منتجين آخرين بحثوا عن هذه التقنيات فى الأقاليم الأقرب، مثل الدولة العثمانية وبلاد المشرق، حيث كانت هناك علاقات تجارية قوية.

المصريون حمقى في كل ما يفعلونه

سجل المراقبون الذين زاروا الدولة العثمانية، فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، مواقف مختلطة ومتباينة نحو الفنون والحرف. والكثير منهم وقفوا موقف الناقد للمستوى المتدنى للحرف، ورددوا ملاحظات سلبية حول تدهور الفنون والحرف، والمستوى المتواضع للعمال والحرفيين، ورداءة منتجاتهم. وفى أوائل القرن الثامن عشر، كتب مسيو دى ماييه Monsieur de Maillet، قنصل فرنسا فى القاهرة، قائلا: "المصريون حمقى فى كل ما يفعلونه "Les egyptiens aujourd'hui sont mamldoit en tout"، وهذه الملاحظات رددها الآخرون أيضًا[1] وفيما يتعلق بصباغى الأقمشة، قال جومار، أحد خبراء الحملة الفرنسية على مصر، أن مهنة الصباغة كانت متقدمة جدا عند قدماء المصريين، ولكن فى الوقت الحالى، وعلى الرغم من أن الصباغين ينتجون ألوانًا عالية الجودة، فإن ذلك يعود إلى التزامهم بما تعودوا عليه من تقاليد، واتباعها حرفيا[2]. ونفس الأمر قال به فيفانت دينو Vivant Denon، حيث قال: إن الحرفيين لم يبتكروا أى شىء على الإطلاق، لتجويد عملهم وتحسينه، ولا حتى حاولوا الاستفادة بمبتكرات الآخرين[3].

---

(1) Benoit de Maillet, Description de l'Égypte . . . composée sur les mémoires de M. de Maillet, ancien consul de France au Caire, par M. l'Abbé Le Mascrier (Paris: Chez Louis Genneau et Jacques Rollin, 1735), 191.

(2) Edme Francois Jomard, "Description de la ville et de la citadelle du Kaire," in Description de l'Égypte, Etat Moderne, vol. 1 (Paris: Imprimerie Panckoucke, 1829), 383-84.

(3) Vivant Denon, Voyage dans la basse et haute Égypte pendant les campagnes du général Bonaparte (Paris: Imprimerie Didot l'Aine, An X/1801), 64.

وهناك خطاب آخر بين المراقبين، ركز على الأساليب والتقنيات، وغالبا تلك التقنيات التى كان يستخدمها الحرفيون، والتى لم تكن معروفة لدى هؤلاء المراقبين، وأثارت شغفهم. وقال العديد من هؤلاء المراقبين بأن هذه الأساليب التى يستخدمها الحرفيون، من شأنها أن تطور الإنتاج وتحسنه، إذا استخدمت فى فرنسا. على أن هذه الملاحظات التى سجلها الفرنسيون حول القرن الثامن عشر، تختلف عما قالوه فى القرن التالى.

وتعطينا المصادر الفرنسية فكرة جيدة عمّا كان يتطلع إليه المنتجون والمستثمرون الفرنسيون. حيث كانوا يبحثون فى المراكز العثمانية المختلفة عن طرق تصنيع وإنتاج فعالة، أقل تكلفة وأعلى إنتاجية مما هو متبع فى بلادهم. وعلى سبيل المثال، توقف سونينى Sonnini، الذى زار مصر فى أواخر القرن الثامن عشر، أمام استخدام الحرفيين للنطرون فى تبييض الأقمشة، وكان معجبا بشدة بهذا الأمر، وكتب يقول إن هذه الطريقة الفعالة للتبييض يجب أن تُطبق فى فرنسا[1]. كذلك كان الأمر فيما سجله بشكل عام جان جابرييل بيلتييه (Jean-Gabriel Peltier (1765-1825)، أحد الصحفيين وقت الثورة الفرنسية، حيث علق على النتائج التى توصل إليها علماء الحملة الفرنسية، وقال إن الفرنسيين وجدوا ممارسات وطرقًا غير معروفة لهم، وسيكون من المفيد تطبيقها فى مصانعهم[2].

سيادة الأصباغ العثمانية

كان المنتجون الفرنسيون يحاولون تحسين عمليات التلوين، وبخاصة الصباغة والتبييض. وكانت هناك دوافع وراء ذلك. أولاً، لأن المنسوجات الملونة صارت موضة

(1) Charles Sigisbert Sonnini, Voyage dans la Haute et Basse Égypte, vol. 1 (Paris: F. Buisson, An VII/1799), 360.
(2) Jean-Gabriel Peltier, Paris pendant l'année 1800, vol. 28 (London: Imprimerie T. Baylis, 1800), 224-25.

شهيرة جدا فى كل من أوروبا والدولة العثمانية، وكان يتم استيراد كميات ضخمة من هذه المنسوجات من الهند، حتى تكفى الطلب عليها فى الأسواق. وفى القرن الثامن عشر، كانت هناك محاولات عدة لتقليد هذه المنسوجات الهندية فى أوروبا والدولة العثمانية أيضا، لتلبية الطلب عليها، وربما لإنتاجها بتكلفة أقل(1). ويبدو أن الإقبال على الأقمشة متعددة الألوان قد شمل أيضا الطبقات الوسطى فى أجزاء عديدة فى أوروبا، فى القرن السابع عشر؛ بعد أن كان هذا النوع من الأقمشة مقصورا فى الماضى على الطبقة الحاكمة ورجال الدين.

ثانيًا، حدث هذا الإقبال المتزايد على الأقمشة الملونة، فى وقت كان فيه مجال تلوين الأقمشة غير متطور فى أوروبا. وكانت الطرق والتقنيات المستخدمة فى الصباغة والتبييض فى مصر والدولة العثمانية متفوقة ومتقدمة بمراحل كبيرة عن مثيلاتها فى فرنسا، وأجزاء أخرى من أوروبا. وتبين إحدى الدراسات حول الأصباغ فى إنجلترا فى أوائل القرن الثامن عشر، أن الألوان كانت محدودة جدا ورديئة. وعندما كان الأمر يتطلب صباغة منسوجات ثمينة، كان الأمر صعبا ومكلفا؛ إذ كانت تُرسل إلى هولندا لتبييضها. وعلى سبيل المثال، ظلت الصباغة باللون الأحمر مكلفة جدا حتى أواخر القرن الثامن عشر(2). وفى بعض الأحيان كانت الأقمشة القطنية تُرسل إلى المشرق لصباغتها باللون الأحمر(3). كل هذه الأمور ساهمت فى ارتفاع أسعار الأقمشة الملونة بشكل ملحوظ، وهذا يفسر الاهتمام الشديد بالألوان والأصباغ فى الشرق.

على أن الاهتمام الفرنسى بالأصباغ العثمانية يثير قضية مهمة حول العلاقات الاقتصادية بشكل عام. فبينما كان اهتمام القوى الاستعمارية فى القرن التاسع عشر

---

(1) Beverly Lemire and Giorgio Riello, "Textile and Fashion in Early Modern Europe," Journal of Social History 41, no. 1 (2008): 887-916.

(2) Susan Fairlie, "Dyestuffs in the Eighteenth Century," Economic History Review, n.s., 17, no. 3 (1965): 489-91.

(3) M. Scheffer, Essai sur l'art de la teinture (Paris: Chez Goeury, 1803), 124-25.

منصبا، بشكل خاص، على الحصول على المواد الخام من الدول المُستَعمَرة، كان الأمر هنا مختلفا، فلم تكن المواد الخام هى ما يسعى إليه الفرنسيون، بل كان الأمر متعلقا بكيفية الحصول على الألوان الصحيحة الثابتة، التى لا تزول سريعا بعد غسيلها، وكيفية إنتاجها فى وقت قصير، وبتكلفة أقل. ومن ثم، كان الاهتمام بتعلم خبرات الحرفيين العثمانيين ومهاراتهم، له نفس أهمية استيراد المواد الخام.

وعلى ذلك فإن ما يقال عن تدهور الحرف الشرقية يدعو إلى التساؤل! بل على العكس من ذلك، كان هناك اعتراف بمهارات حرفيى الدولة العثمانية فى القرن الثامن عشر، وكانت هناك محاولات متكررة لتقليدها. وهذا الجانب غائب، أو مغيب، فى الغالب فيما يتعلق بنموذج الحداثة، أو نموذج النظم العالمية. ففى كلا النموذجين تأتى أوروبا، المركز، بوصفها مكانًا للعمال المهرة، وبقية العالم، الأطراف، باعتباره مكانًا للعمال غير المهرة. كما يتم التركيز على حاجة أوروبا للمواد الخام، وتُهمل حاجتها لهذه المهارات. وعلى ذلك فإن هذه الرؤية حول مهارات الحرفيين، من شأنها أن تنقض الأركان الرئيسية لكلا النموذجين، وتبرز الحاجة إلى البحث عن نماذج جديدة لتفسير تاريخ العالم.

تعلم مهارات الصباغة

كانت هناك ثلاثة مجالات، على الأقل، يحاول الفرنسيون الحصول على خبرات الحرفيين المصريين وغيرهم من مناطق مختلفة من الدولة العثمانية، بشأنها، وكل هذه المجالات كانت مرتبطة بتلوين الأقمشة.

كان المجال الأول هو التنوع الشديد للألوان. وتشير دراسة حسام عبد المعطى، والتى اعتمد فيها على سجلات المحاكم الشرعية، إلى أن الصباغين فى القاهرة كانت لديهم المقدرة على صناعة أنواع كثيرة مختلفة من الألوان. وكذلك يقول جومار إن هؤلاء الصباغين كانوا ينتجون ألوانًا متنوعة جدا، باستثناء عدد قليل جدا من الألوان استعصى عليهم. كذلك كان هؤلاء الصباغون متعددى المهارات، حيث كان بمقدورهم

صباغة أنواع مختلفة من الأقمشة، كالحرير أو الأقطان، تختلف تقنيات صباغتها.
ولاحظ جومار أيضا، أن الحرير كان يُصبغ فى المحلة الكبرى بالألوان: الأحمر، الأسود، الأخضر، الأزرق السماوى، الأزرق الداكن، أما الصباغة باللون الوردى فكانت تتم فى القاهرة فقط[1]. علاوة على ذلك، كانت مراكز إنتاج النسيج المختلفة لديها متخصصون، ليس فقط فى الأقمشة، ولكن أيضا فى الصباغة، وخاصة صباغة النيلة التى كانت أكثر الأنواع استخداما.

كان اللون الأحمر من بين الألوان المختلفة التى يبدو أنها استقطبت اهتمامًا أكثر من الفرنسيين، وظل إنتاج اللون الأحمر مكلفا فى أوروبا، حتى بعد اكتشاف القرمز وجلبه من الأمريكتين. ولكن كان هذا اللون يُنتج على نطاق واسع فى مراكز النسيج فى الدولة العثمانية، مثل أدرنة، أزمير، دمشق القاهرة. وكان بالقاهرة طائفتان تخصصتا فى الصباغة باللون الأحمر، الأولى هى "طائفة الصباغين فى الأحمر"، والثانية تخصصت فى درجة معينة من الأحمر تسمى كنداكى "طائفة الصباغين فى الكنداكى" وفى بعض الأحيان كانت هناك طوائف أكثر تخصصًا، مثلما لاحظ عبد الكريم رافق وجود طائفة فى حلب (١٦٢٧م) تخصصت فى صباغة الكتان المالطى باللون الأحمر "طايفة الصباغين بالصبغ الأحمر المطلى بحلب"[2].

كانت أدرنة وإزمير مركزين رئيسين لإنتاج نوع معين من الصبغة الحمراء، سميت بـ "أحمر أندرينبول" rouge d'Andrinople، نسبة إلى مدينة أدرنة، حيث كان اسمها الأوروبى أندرينبول، وأحيانا كان يُسمى "الأحمر التركى"، وكانت تُرسل

(1) Pierre Simon Girard, "Memoire sur l'agriculture, l'industrie et le commerce de l'Égypte," in Description de l'Égypte, État Moderne, 2, no. 1 (Paris: Panckoucke, 1812), 111.

(2) Abdul-Karim Rafeq, "The Economic Organization of Cities in Ottoman Syria," in The Urban Social History of the Middle East, 1750-1950, ed. Peter Sluglett (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 2008), 109.

المنسوجات إلى هناك لكى تُصبغ بهذا اللون. فى مصر، كان القرطم يُستخدم بكثرة لإنتاج اللون الأحمر. وتشير هذه النماذج المختلفة لأنواع الصبغة الحمراء، إلى أن مراكز النسيج العثمانية المختلفة لم تتسيد فقط إنتاج اللون الأحمر، ولكن اختلفت أيضا تقنيات إنتاج هذا اللون من مركز لآخر، بل ومن المحتمل من طائفة لأخرى. وهذا الأمر يعكس مدى التنوع فى مراكز إنتاج النسيج، ويعكس أيضا الطبيعة المحلية للكثير من هذه التقنيات، والتى طورها الحرفيون المحليون بحسب المواد المتوافرة لديهم.

المجال الثانى الذى استقطب اهتمام الفرنسيين هو الصباغة بألوان متعددة للقطعة الواحدة من القماش. فإلى جانب وجود طوائف تخصصت فى صباغة لون واحد محدد، كانت هناك أيضاً طوائف متخصصة فى الصباغة بألوان متعددة، وكان يشار إليها باسم "طائفة الصباغين فى الألوان" مثل: الأصفر، الأخضر، الأزرق، اللازورد، البنى، وألوان أخرى[1]. زار الرحالة السويدى فريدريك هاسلكويست Frederic Hasselquist مدينة دمياط فى الفترة ما بين ١٧٤٩ و١٧٥٢م، ولاحظ هناك نوعًا من فوط المائدة، وأقمشة أخرى ذات ألوان متعددة: الأبيض، الأزرق، الأحمر، الأخضر، وكانت هذه الأقمشة تصدر إلى الدولة العثمانية سنويا[2].

أما المجال الثالث، فكان مجال عمليات تبييض المنسوجات. فى أوروبا، كانت عمليات التبييض مكلفة جدا، وتأخذ وقتا طويلا، وظلت على هذه الحال حتى أواخر القرن الثامن عشر. بينما كانت هناك أكثر من طريقة للتبييض فى الدولة العثمانية: ففى مصر استخدم الحرفيون النطرون وملح النوشادر فى عمليات التبييض؛ وفى المشرق استخدمت تقنية البخار. كانت هذه التقنيات بسيطة وفعالة واقتصادية، مقارنة بمعظم التقنيات التى كانت مستخدمة فى أوروبا (باستثناء هولندا).

---

(١) سجلات محكمة الباب العالى، دار الوثائق القومية بالقاهرة، سجل ١٢٣، م ١١٠٠، ص ١٨ (١٠٥٥هـ).

(2) Frederic Hasselquist, Voyage dans le Levant dans les années 1749, 1750, 1751, et 1752 (Paris: Chez Saugrain le Jeune, 1769), 161.

ولذلك فليس من المستغرب تلك المحاولات لنقل طرق التبييض هذه إلى فرنسا. قام الكيميائى الفرنسى الشهير جان أنطوان كلود شابتال Jean-Antoine-Claude Chaptal بدراسة الطريقة التى كان يستخدمها المصريون فى استخراج ملح النوشادر، والذى كان يُستخدم للحفاظ على ألوان المنسوجات. ثم أجرى شابتال دراسات إضافية لكى يُنتج هذا الملح بطريقة أجدى اقتصاديا[1]. ونشر شابتال أيضا دراسة حول طريقة البخار المستخدمة فى التبييض فى المشرق، وكانت هذه الطريقة قد أُدخلت إلى فرنسا فى منتصف القرن الثامن عشر، ولكنها حُفظت طى الكتمان لفترة من الزمن[2]. وبالرغم من ذلك نسب شابتال الفضل لنفسه على أنه هو الذى أدخل هذه التقنية إلى فرنسا[3].

مصاعب (وحلول) خلال عمليات نقل الخبرات والمعارف

شهد القرن الثامن عشر جهودًا عديدة للمنتجين الفرنسيين، لاقتباس الطرق والتقنيات، لكى يطبقوها فى فرنسا. وتنوعت طرق نقل هذه الطرق والتقنيات تنوعا كبيرا. وتشير بعض الأمثلة إلى أن عمليات الانتقال هذه كانت سلسة فى بعض الأحيان. وعلى سبيل المثال، ربما سهلت ظروف الاحتلال العسكرى عمليات النقل هذه خلال الحملة الفرنسية على مصر. وهذا الانطباع نلاحظه فى كيفية انتقال تقنية استخدام القرطم فى الصباغة؛ حيث كان الأمر سلسًا، وتم استخدامه بسرعة فى

(1) Jean-Antoine-Claude Chaptal, Chimie appliquée aux arts, vol. 4 (Paris: Imprimerie de Crapelet, 1807), 167-75.

(2) Beaulieu, L'art de peindre et d'imprimer les toiles en grand et en petit teints (Paris: Chez Goeury, An VIII/1800), 12-17.

(3) Chaptal, Chimie appliquée aux arts, 426-27.

فرنسا. ومن المحتمل أيضا أن إنتاج اللون الأحمر من القرطم كان أسهل التقنيات، مقارنة بغيرها. حيث كانت لها ميزة كبيرة، وهي أنها كانت تثبت بسرعة في الأقمشة، دون الحاجة إلى مثبتات ألوان[1].

كان القرطم معروفا في أوروبا باعتباره صبغة، واستوردت فرنسا كميات منه من مصر في القرن الثامن عشر. ولكن كان القرطم يُستخدم فقط في صباغة الحرير. وفشلت محاولات استخدامه في صباغة القطن والكتان. ومع زيادة واتساع تجارة القطن وإنتاجه، صار هذا الأمر يشكل معضلة. في وقت الحملة الفرنسية، قام أحد الكيميائيين المصاحبين للحملة، كلود لويس بيرثولي Claude-Louis Bertholet، وهو كان كيميائيا ذا باع طويل في الأصباغ، قام بزيارة ورشة صباغة محلية، ولاحظ بنفسه، لبضعة أيام، كيف يقوم الصباغون بصباغة الأقمشة بنبات القرطم. ثم كتب بعد ذلك وصفا تفصيليا لهذه العملية. في السنوات التالية للحملة الفرنسية، ظهرت عدة كتيبات ونشرات كانت بمثابة أدلة للصباغين، تضمنت وصفا للطريقة المصرية في استخدام القرطم في صباغة القطن والكتان، كتبها صباغون لكي يستخدمها الصباغون، كذلك ظهر هذا الوصف في رسائل حول طريقة تصنيعها، ومن ثم يمكن للصباغين من تطبيق التعليمات والخطوات، ويبدو أنها دخلت أيضا في عمليات التصنيع في فرنسا.

على أن أمر نقل الخبرات لم يكن بهذه السهولة على طول الخط، بل اكتنفته مصاعب عدة، سواء أكانت تقنية أو إنسانية، وتسببت هذه المصاعب في تباطؤ عمليات النقل هذه.

أحد أسباب هذه المصاعب كان نوع الخبرات التي اهتم أصحاب المصانع الفرنسيون بشأنها، حيث إنها كانت خبرات الحرفيين، وهذه الخبرات بطبيعتها لم تكن مكتوبة، بل ممارسة فقط. ومن ثم، كان على الراغب في الوقوف على هذه الخبرات أن

---

(1) Jean-Baptiste Dumas, Précis de l'art de la teinture (Paris: Bechet Jeune, 1846), 58.

يكون فى موقع العمل نفسه، ليشاهد ويسجل ملاحظاته حول طرق العمل والتصنيع، ثم يحاول محاكاة ما رآه بعينه. والنتائج كانت مختلفة؛ أحيانا كانت عمليات النقل هذه بطيئة، حيث إنها تأخذ وقتًا للتعلم ولهضم هذه العمليات واستيعابها. وبعض هذه المحاولات لاقى نجاحا والبعض الآخر فشل.

الحرفيون وسر المهنة

كانت إحدى المصاعب أيضا هى تحفظ الحرفيين، وعاداتهم فى حفظ أسرار مهنهم، وبخاصة مع الأغراب من خارج مهنتهم أو طائفتهم. وكانت هذه التقاليد متبعة لحماية مهنهم، والحفاظ على مصادر رزقهم، ومنع غيرهم من منافستهم. وهذا الأمر بطأ إلى حد ما من عمليات نقل هذه الخبرات. وعلى ذلك كانت الحيلة هى الوسيلة المناسبة، فى بعض الأحيان، للحصول على المعلومات.

على المستوى الرسمى، وضعت قلة من الطوائف قيوداً صارمة على أعضائها، ومنعتهم من البوح بأسرار المهنة. ففى حالة متعلقة بطائفة الصباغين فى الألوان يعود تاريخها إلى عام ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م، نصت قوانين الطائفة على منع أى عضو من أعضاء الطائفة من تعليم أى شخص المهنة؛ حيث إن الأعضاء قد تعلموا كيفية تقليد الطرز الهندية فى الزخرفة، وأن الطائفة تسعى إلى احتكار هذه المهنة[1]. وعلى الرغم من أن هذه القواعد الصريحة لم تكن هى النموذج السائد، ولكن كانت تقاليد الطوائف عامة تميل إلى حفظ المهنة بين أعضاء الطائفة، ومن ثم نشأت حواجز تعوق سهولة نقل الخبرات وسلاستها. وهذا الأمر لاحظه العديد من الرحالة الشغوفين؛ حيث أقروا بصعوبة الولوج إلى عالم الحرفيين الغامض. وذكر كل من جان دى ثيفينو (١٦٣٣- ١٦٦٧م) Jean de Thevenot فى القرن السابع عشر[2]، وفولنى Volney

(١) حسام عبد المعطى: "صناعة الأقمشة..."، ص ٢٤١.

(2) Jean de Thevenot, Suite du Voyage de M. de Thevenot au Levant, second part (Paris: Chez Charles Angot, 1689), 115-18.

(١٧٥٧-١٨٢٠م) فى القرن الثامن عشر[١]، أن الحرفيين الشوام، الذين كانوا ينتجون منتجات جلدية عالية الجودة، كانوا كتومين ومتحفظين للغاية عندما يتطرق الحديث إلى طرق عملهم، ويحرصون على الحفاظ على سرية تقنياتهم.

وكذلك الحال فى مصر فى القرن الثامن عشر، حيث كان من الصعوبة بمكان الوصول إلى معلومات عن أعمال الحرفيين. ومثال ملح النوشادر هذا مثال مهم كاشف. حيث كان هذا المنتج مطلوبا بشدة فى فرنسا لاستخداماته المتعددة فى الأدوية الطبية وفى المهن والصناعات، وكان الفرنسيون يشترون كميات كبيرة منه من مصر.

وهناك مغامرة مثيرة قام بها أحد الأطباء الفرنسيين، يُسمى جرانجر M. Granger، لكى يتمكن من جمع معلومات حول صناعة ملح النوشادر فى مصر؛ حيث أخفى شخصيته، وتخفى فى زى عرب، وسار حافى القدمين، حتى لا يلفت الأنظار إليه، ومن ثم قام بملاحظة وتجميع معلومات حول ملح النوشادر. وهذا الأمر شبيه بما نسميه فى الوقت الحاضر التجسس الصناعى. وحالفه الحظ عندما تمكن من إنقاذ حياة شخص أشرف على الموت بعد تعاطيه جرعة زائدة من الأفيون، فنال ثقة من حوله، وقام بمعالجة مرضى عديدين. وعندها فقط، تمكن من جمع المعلومات التى يريدها حول أسرار هذا المنتج[٢].

من هنا، فإن الأمر لا يختلف كثيرا فى الدولة العثمانية عن أوروبا، فيما يتعلق بالحرفيين. حيث كانت المنافسة بين المنتجين دافعا لهم للحفاظ على سرية تقنياتهم. وعلى سبيل المثال، عندما انتقلت تقنية الصباغة باللون الأحمر من أزمير وأدرنة إلى

---

(1) Constantin-Francois Volney, Voyage en Égypte et en Syrie pendant les années 1783, 1784, et 1785, vol. 2 (Paris: Parmantier, 1825), 145.

(2) Jean-Elie Bertrand, Description des arts et métiers, vol. 3 (Neuchatel: Imprimerie de la Societe typographyque, 1775), 419-20; M. Granger, Relation du Voyage en Égypte par le Sieur Granger fait en 1730 (Paris: Chez Jacques Vincent, 1745).

جاء وصفه لطريقة تصنيع ملح النوشادر فى الصفحات ٢٥٠- ٢٥٦.

فرنسا، حافظ هؤلاء الذين تعلموا هذه التقنية على سريتها لعدة سنوات. وكتب لو بيلور دابليني Le Pileur d'Appligny فى عام ١٧٧٦م، يقول: Ceux qui ont reussi ne communiquent pas leur secret، الناجحون هم الذين لا تشيع أسرارهم[1]. وكانت هذه المقولة تتردد فى الغالب فى مجال الصناعة[2]. وهذه السرية فُرضت أيضا على طرق تبييض الأقطان التى دخلت فرنسا، فى حدود منتصف القرن الثامن عشر، حيث حافظ أولئك الذين تعلموا هذه التقنية عليها سرا، ولم يتبادلوها مع آخرين. وظلت هذه التقنية قاصرة على عدد قليل من المنتجين، حتى أوائل القرن التاسع عشر، عندما قام شابتال بنشر هذه التقنية ومراحلها فى دورية علمية، وكان يهدف من ذلك إلى نشر أسرار هذه التقنية وإتاحتها على نطاق واسع[3].

تقنيات معقدة

أحد المصاعب التى بطأت، أو حالت دون، نقل هذه الخبرات كانت طريقة الممارسة الفعلية لتلك الحرف ودرجة تعقيدها. حيث كانت بعض التقنيات التى استخدمها حرفيو النسيج جد معقدة، وهى حقيقة لم تأخذ حقها حتى الآن. وهذا يرجع إلى ما جرت به العادة للربط ما بين الحرف والبساطة، بينما تعقيدات الإنتاج ترتبط بالماكينات. ولكن كانت هناك قبل الإنتاج الصناعى بعض الحرف التى تُستخدم فيها اليد أو أدوات بسيطة نسبيا، تتطلب مهارة عالية جدا وخبرة رفيعة. ومن ثم وجد الأوروبيون الذين حاولوا اكتشاف أسرار الإنتاج صعوبات جمة فى فهمها، وتطبيقها.

---

(1) Le Pileur d'Appligny, L'art de la teinture des fils et des étoffes de coton précédé d'une théorie (Paris: Chez Moutard, Libraire de la Reine, Quai des Augustins, 1776), 145.

(2) Bulletin de la Société pour l'encouragement de l'industrie nationale (Paris: Chez Madame Huzard, An X/1802), 142.

(3) J. Cl. Delametherie, Journal de physique, de chimie, d'histoire naturelle et des arts, vol. 51 Paris: Chez Fuchs, 1800), 307.

وفى هذا السياق، سيكون من المفيد أن نتتبع المراحل والصعوبات والوقت الذى استغرقه الفرنسيون لكى يتعرفوا على طريقة إنتاج ملح النوشادر فى مصر، وكيف حاولوا إنتاجه فى فرنسا. ملح النوشادر هو مادة طبيعية توجد عادة فى المناطق القريبة من مراكز البراكين، ولكن عادة بكميات قليلة نسبيا. أتقن الحرفيون فى مصر إنتاجه، ومن ثم أصبحت مصر الدولة الوحيدة فى العالم التى يُنتج فيها هذا الملح صناعيا، ولذلك كانت مصر شبه محتكرة لهذه السلعة فى مجال التجارة الدولية[١].
وكانت مصر تصدر كميات كبيرة منه إلى مناطق مختلفة فى العالم، حيث يمكن استخدام ملح النوشادر فى أمور عدة. وكان بمصر عدد من الورش لإنتاج ملح النوشادر، وبخاصة فى الدلتا، بعضها كانت ورشا كبيرة. نذكر على سبيل المثال إحدى الورش فى مدينة المحلة الكبرى، كان يعمل بها ثلاثون عاملا[٢]. وكانت هناك عدة ورش أخرى متوزعة فى أماكن أخرى، مثل قرية دميرة، ودمنهور، وبرنبال، كذلك كانت توجد ورشة فى القاهرة وأخرى ببولاق. وأحصى جيرار ست عشرة ورشة لإنتاج النوشادر فى مصر[٣].

بدأت محاولات الرحالة الفرنسيين للتعرف على مصدر ملح النوشادر وطريقة إنتاجه فى مصر، منذ بدايات القرن الثامن عشر. فى حدود عام ١٧١٦م، قام أحد الأشخاص، يُسمى جيفرى Geoffroy بقراءة ورقة بحثية عن ملح النوشادر فى أكاديمية العلوم بباريس، ثم قام بنشر هذه الورقة فى عام ١٧٢٠م. اهتمت أكاديمية العلوم بهذا الأمر، وبدأت فى السعى لمعرفة المزيد حول هذا المنتج، ومن ثم طلبت من القنصل الفرنسى بالقاهرة أن يمدها بمعلومات تفصيلية عن ملح النوشادر. فلجأ القنصل الفرنسى إلى أحد الآباء اليسوعيين، وهو الأب سيكارPere Sicard، حيث كان الأب

(1) Pierre Joseph Macquer, Dictionnaire de Chimie contenant la Théorie et la Pratique de cette science, vol. 1 (Paris: Imprimerie de Monsieur, 1778), 110.
(2) Girard, Mémoires sur l'agriculture, 122.
(3) Girard, Mémoires sur l'agriculture, 123.

سيكار مقيما بالمنطقة لسنوات عديدة، ويجيد اللغة العربية، ويبدو أنه كان له اتصالات وعلاقات عديدة. بالرغم من أن المهمة الرئيسية للأب سيكار كانت مهمة تبشيرية، فإنه قبل هذه المهمة أيضا للتقصى وجمع المعلومات حول ملح النوشادر، وكتب فى نهاية الأمر تقريرا مفصلا عن هذا المنتج فى عام ١٧٢٢م، فقط قبل موته فى القاهرة مباشرة[١].

لم يكن الأب سيكار، ولا أى من أسلافه، على دراية كافية بالتعقيدات التى كانت عليها عمليات إنتاج ملح النوشادر. ومن الواضح أن المعلومات التى جمعوها كانت ناقصة أو غير واضحة، مما تطلب الأمر إرسال مبعوث آخر إلى مصر لنفس الغرض. ففى عام ١٧٣٠م، قام ملك فرنسا بتكليف أحد الأطباء الفرنسيين، جرانجر M. Granger، بهذه المهمة. وأخذ جرانجر وقتا طويلا حتى يتم مهمته، وفى نهاية الأمر أرسل تقريره عن إنتاج ملح النشادر إلى أكاديمية العلوم فى باريس فى عام ١٧٣٥م.

فى نهاية القرن الثامن عشر، عكف أحد الكيميائيين المصاحبين للحملة الفرنسية على مصر، بيرثولى Berthollet، على قراءة هذه التقارير بعناية، ووجد أنها تقارير متناقضة وغير كاملة، ومن المستحيل تطبيق نتائجها. كان بيرثولى قد قضى وقتا سابقا فى معمله بفرنسا، تعرف خلاله على إمكانية استخدام الكلور فى عمليات التبييض (والتى لا تزال مستخدمة حتى الآن)[٢] وأثناء وجوده بمصر اكتشف أن الكلور عنصر أساسى فى ملح النوشادر. قام بيرثولى بمزيد من الدراسات والفحص، واكتشف تفاصيل أكثر عن مكونات هذا الملح، لم يتمكن سابقوه من ملاحظتها. كانت خبرة بيرثولى الكيميائية، ومصادفة أنه كان على علم سابق بالكلور، وراء اكتشافه أمورًا عجز عنها سابقوه.

---

(1) Lettres édifiantes et curieuses écrites des missions étrangères, vol. 3, in Mémoire du Levant (Lyon: Chez J. Vernarel et Etienne Cabin, 1819), 420-21.

(2) Francois Crouzet, "France," in The Industrial Revolution in National Context: Europe and the USA, ed. Mukilas Teich and Roy Porter (Cambridge: Cambridge University Press, 1996), 37.

أحد أسباب عدم دقة المعلومات التى تضمنتها التقارير السابقة يعود إلى كاتبيها؛ حيث لم يكونوا على دراية بهذه المهن، أو التقنيات التى كتبوا عنها. وفى أوائل القرن التاسع عشر، كتب شابتال Jean -Antoine Chaptal، يقول "الآن نعرف كل شيء عنه، ويمكننا الآن أن ننتجه هنا فى فرنسا بطريقة اقتصادية"(١). ولكن هذه العملية أخذت قرابة القرن حتى يمكن تطبيقها فى فرنسا.

النموذج الآخر هو الصبغة الحمراء المسماة "الأحمر الأندرينى" Andrino-ple red، كان هذا اللون يُنتج فى أدرنة، سيثاليا Thessaly، وإزمير، وكانت هذه الصبغة تستخدم فى صباغة الأقطان المطبوعة التى صارت موضة ذائعة، وتميزت بألوانها الزاهية، ومن ثم كانت مطلوبة بشدة فى أوروبا. ويبدو أن صناعة هذه الصبغة كانت عملية طويلة ومعقدة(٢). كانت الصبغة الأندرينية أو "الأحمر التركى"، تُصنع من نبات الفوة الصمغى. وبالرغم من أن هذا النبات كان معروفا فى أوروبا بوصفه صبغة حمراء، فإن عمليات إنتاج الصبغة الأندرينية عالية الجودة كانت أكثر تعقيداً، وتستغرق وقتا أطول، ومن ثم كانت تختلف عن الطرق العادية لاستخلاص الصبغة من الفوة(٣). وتشير تلك المحاولات المتكررة، لتقليد إنتاج هذه الصبغة الحمراء، إلى أن الأمر لم يقف عند استيراد المواد الخام فقط، بل كان الأهم هو نقل المهارات المطلوبة لاستخدام هذه المواد على الوجه الأكمل. ولذلك كان نقل هذه الخبرات بطيئا ومكلفا، وحاول الأوروبيون الحصول على هذه الخبرات عبر قنوات متعددة، حتى ولو تطلب الأمر إرسال جواسيس، ونقل حرفيين.

---

(1) Chaptal, Chimie appliquée, 169-70.

(2) Susan Lowengard, The Creation of Color in Eighteenth-Century Europe (New York: Columbia University Press, 2006): 19, www.e-gutenberg-e. org/lowengard.

(3) Susan Lowengard, "Colors and Color-Making in the Eighteenth Century," in Consumers and Luxury: Consumer Culture in Europe, 1650-1850, ed. Maxine Berg and Helen Clifford (Manchester, UK: Manchester University Press, 1999), 104-105

الحرفيون العثمانيون في أوروبا

شهد القرن الثامن عشر محاولات متعددة لنقل حرفيى نسيج من الدولة العثمانية إلى دول أوروبية، مثل: فرنسا، هايسبيرج، أمستردام، بغرض إدخال تقنيات عملهم إلى المصانع الأوروبية[١] كانت عملية نقل الحرفيين، فى أجزاء مختلفة من العالم، طريقة مهمة لتداول التقنيات وانتقالها فى مجالات متعددة، خاصة مع احتدام المنافسة بين البلاد المختلفة فى البحث عن طرق لتطوير الإنتاج. وكانت هذه الأمور تتم بناء على مبادرات حكومية، أو منتجين، أو مستثمرين، وأحيانا أخرى تكون المبادرة من أفراد حرفيين قرروا الانتقال إلى مدينة أخرى لممارسة مهنتهم. وتعتبر ليليان هيلارى-بيريز Liliane Hilaire-Perez، أن مثل هذه التبادلات كانت أحد العوامل التى ساعدت فى تشكيل الثورة الصناعية[٢].

تمثل حركة الحرفيين من الدولة العثمانية إلى أوروبا جانبًا من نمط كان شائعا فى العصر ما قبل الحديث. وازدادت أهميته على وجه الخصوص فى القرن الثامن عشر، حيث كانت عمليات التصنيع قد بدأت، ومن ثم زادت المنافسة على تداول الخبرات والمعارف، واستوعبت المزيد من المعارف المحلية وصارت عالمية. كان هذا الأمر شائعا فى أوروبا، وكما ذكرنا سابقا مثل ارتحال الحرفيين الإنجليز إلى فرنسا لتعليم العمال هناك[٣]. وأوضحت دراسة ليليان بيريز، حول الحرفيين الذين انتقلوا من إنجلترا إلى فرنسا لتعليم عمال المصانع الفرنسيين طرق صناعة الساعات والأعمال

(1) Olga Katsiardi-Hering, "The Allure of Red Cotton Yarn and How It Came to Vienna: Associations of Greek Artisans and Merchants Operating between the Ottoman and the Hapsburg Empires," in Merchants in the Ottoman Empire, ed. Suraiya Faroqhi and Gilles Veinstein (Paris and Louvain: Peeters, 2008), 97-131.

(2) Liliane Hilaire-Perez, "Cultures techniques et pratiques de l'echange entre Lyon et le Levant: inventions et reseaux au XVIIIe siecle," Revue d'histoire moderne et contemporaine 49, no. 1 (2002): 89-114.

(3) 57 Landes, The Unbound Prometheus, 148-49.

المعدنية، أن هذا الأمر كان شائعا فى أوروبا فى القرن الثامن عشر مع بدايات تطور الاقتصاد والصناعة[١].

ولم تختلف هذه الانتقالات للحرفيين من الدولة العثمانية إلى أوروبا، عن تلك الانتقالات التى شهدها القرن التاسع عشر فى عصر محمد على. ولكن اعتبرت مبادرة محمد على لإحضار عمال أوربيين بدعة حديثة. عندما افتتح محمد على مصانع جديدة، استقدم عدداً من العمال الأجانب ليتولوا تعليم الحرفيين المحليين، بعضهم كان من لانجيدوك Languedoc، فرنسا، جاءوا لنقل خبراتهم فى صناعة الستائر، وبعضهم جاءوا من إستانبول من أجل صناعة الحرير، والبعض من تونس من أجل صناعة الطرابيش[٢]. كذلك قدم صباغو النيلة من الهند لتعليم الصباغين المحليين[٣]. وواقع الأمر أن محمد على كان يتبع نمطا سائدا من قبله، على الأقل، بقرن من الزمان.

وتتضمن المصادر الفرنسية معلومات مهمة حول انتقالات الحرفيين من أدرنة وإزمير وإستانبول إلى مدن مختلفة فى أوروبا فى القرن الثامن عشر، وكان الهدف الرئيسى هو تعليم العمال الأوروبيين فن صباغة المنسوجات.

كان من أوائل هؤلاء الحرفيين الذين ارتحلوا إلى أوروبا، مجموعة من الحرفيين الأرمن أقاموا فى مارسيليا فى ستينيات القرن السابع عشر، كان من بينهم مجموعة من الصباغين. وبعدها بقليل وصلت مجموعة من الحرفيين اليونانيين المتخصصين فى

(1) Liliane Hilaire-Perez, "Transferts technologiques, droit et territoires: le cas franco-anglais au XVIIIe siecle," Revue d'histoire moderne et contemporaine 44, no. 4 (Oct.-Dec. 1997): 547-79.

(2) A.B. Clot Bey, Aperçu général sur l'Égypte, vol. 2 (Brussels: Haumon et Cie, 1840), 225-26.

(3) Auguste Colin, "Lettres sur l'Egypte: Industries manufacturieres," Revue des Deux Mondes 14, no. 4 (1838): 528.

الصباغة إلى لانجيدوك Languedoc في بداية الأمر احتفظوا بسرية تقنياتهم، ولكن بعد فترة، شاعت تقنياتهم وصارت معروفة لدى آخرين[1] في عام ١٧٤٧، أحضر عدد من المنتجين صباغين يونانيين من أدرنة للعمل في مصانعهم بروان Rouen وداريتال Darental، وبعد وقت قصير أصبحت هذه المصانع تنتج المنسوجات المطبوعة باستخدام الأحمر الأندريني (أدرنة)[2] حدث هذا الأمر في نورماندي، حيث أدخل الحرفيون اليونانيون طرق إنتاج هذه الصبغة الحمراء المميزة[3].

وعلى الرغم من كل هذه الانتقالات والتحركات الكثيرة للحرفيين، ظلت عمليات إنتاج الأحمر التركي صعبة التقليد. فهؤلاء الذين أتقنوا هذه الحرفة احتفظوا بها لأنفسهم، أما أولئك الذين لم تتح لهم الفرصة لمعرفة هذه التقنية، فقد فشلوا في تجاربهم لإنتاج هذه الصبغة. على سبيل المثال هناك شخص يُسمى كولمان Kuhlman، أجرى تجارب ومحاولات عديدة للحصول على اللون الأحمر، إلى أن تمكن في عام ١٨٢٣م من الحصول على اللون البنفسجي، وليس الأحمر. وهذا يشير إلى أن عمليات نقل الخبرات كانت تسير بخطى وئيدة، وواجهت صعوبات جمة، خاصة إذا نظرنا إلى تاريخ وصول أول مجموعة من الحرفيين إلى فرنسا في منتصف القرن السابع عشر[4].

وواجهت العديد من المصانع الفرنسية المتخصصة في الأقطان المطبوعة فشلاً في هذا المضمار، حتى إن العديد منها قد توقف بعد وقت قليل من تأسيسه. ويقدر بيير

(1) Dictionnaire chronologique et raisonné des découvertes en France de 1789 à la fin de 1820, vol. 4 (Paris: Chez Louis Colas, 1822), 99.

(2) Monsieur Blanchi et al., Dictionnaire du commerce et des marchandises contenant tout ce qui concerne le commerce de terre et de mer, vol. 2 (Paris: Guillaumin et Cie, 1839), 1956.

(3) Jean-Baptiste Dumas, Traité de chimie appliquée aux arts, vol. 8 (Paris: Imprimerie Alexandre Bailly, 1846), 401.

(4) Johann Carl Leuchs, Traité complet des propriétés, de la préparation et de l'emploi des matières tinctoriales et des couleurs (Paris: Imprimerie Fournier, 1829), 286.

جوبير Pierre Jaubert عدد المصانع التى أغلقت بحوالى الثمانين مصنعا، من بين ما يقرب من مائة مصنع، وكان ذلك بسبب إما عدم القدرة على إنتاج تصميمات، أو عدم القدرة على التقليد الجيد للمنسوجات الهندية[١] وهذا الوضع يمكن أن يفسر لنا لماذا استمر الفرنسيون يستوردون المنسوجات القطنية ذات الطرز الهندية المصنوعة فى القاهرة، حتى أواخر القرن الثامن عشر، بالرغم من دخول الأقطان المطبوعة إلى فرنسا فى وقت مبكر، فى حدود منتصف القرن السابع عشر. ربما كانت الأجور المنخفضة فى القاهرة وراء ذلك، أو زيادة الكميات المزروعة من القطن فى مصر فى القرن الثامن عشر[٢].

دعم الدولة والمطبوعات

كان نجاح بعض هذه المشروعات يعود، فى جزء منه، إلى التسهيلات التى وفرتها الحكومة الفرنسية، وتشجيعها للصناعات المحلية. وكان هذا الأمر واضحا فى المراحل المختلفة لعمليات نقل المهارات هذه. حيث دعمت ومولت أحيانا سفريات إلى الدولة العثمانية والهند وفارس، بغرض جمع المعلومات التى يمكن أن تساعد فى تطوير الإنتاج. كان هناك أيضا نوع من الدعم الحكومى عندما كان يتم استقدام حرفيين للعمل بالمصانع الفرنسية. حيث كان يطلب أصحاب المصانع من الدولة أن توفر لهؤلاء الحرفيين وضعا قانونيا، وأن تمنحهم إقامة دائمة لهم ولأسرهم، حتى تحميهم بوجه خاص من أعضاء الطوائف المحلية، الذين يمكن أن يسببوا لهم المشاكل. نذكر على سبيل المثال أمرًا ملكيا صدر فى ديسمبر عام ١٧٥٦م لصالح الأخوين فرانسوا وجان كلود فلاشا، كانا مالكين لمصنع متخصص فى صباغة الأقمشة بسان شومون

(1) Pierre Jaubert, Dictionnaire raisonné universel des arts et des métiers, vol. 4 (Lyon: Chez Amable Leroy, 1801), 262.

(2) Girard, Mémoires sur l'agriculture, 186.

Saint Chaumond. أعطى هذا الأمر حقوقًا حصرية لصباغة الأقمشة القطنية بالأحمر التركى "الأندرينى"، وأعطى مصنعهم صفة "المصنع الملكى". كذلك نص الأمر على إعطاء العمال المجلوبين من الخارج حق الجنسية بعد ثلاثة أعوام من العمل، وإعفاءهم تماما من الضرائب. كان الغرض من وراء هذه التسهيلات لأصحاب المصانع وللحرفيين الوافدين هو الحد من الاستيراد[1]. ومن ثم يمكن لمنتجى تلك المنسوجات أن يعتمدوا على دعم الدولة ومبادراتها لتطوير الإنتاج فى مواجهة المنافسين.

وبالرغم من أن هؤلاء المنتجين تمكنوا من الحصول على تلك التقنيات العثمانية، وفى الغالب بدعم من الدولة أو الملك، فإنهم حاولوا بشتى الطرق أن يحتفظوا بأسرار منتجاتهم، حتى يحتفظوا بمكانتهم بين منافسيهم. على أن هذا الأمر تغير بعد وقت، واصطدموا بسياسات الدولة، والتى سعت إلى نشر أى معارف تقنية من شأنها أن تساعد على تطور الصناعات وتشجيعها. ومن ثم تحولت سياسات الدولة من سياسات داعمة إلى سياسات تمثل خطرا على هؤلاء المنتجين. فى بدايات القرن التاسع عشر، بدأت الدولة الفرنسية فى نشر نشرات متخصصة ودوريات، بغرض نشر المبتكرات وتشجيعها فى مجال الصناعة، حتى تساعد الصناعة الفرنسية فى مواجهة الصناعة الإنجليزية. وعلى سبيل المثال، تأسست "جمعية تشجيع الصناعة الوطنية" Societe d'encouragement de l'industrie nationale فى عام ١٨٠١م بغرض مساعدة الثورة الصناعية فى فرنسا فى مواجهة منافسها الرئيسى، إنجلترا. كان من بين أعضاء هذه الجمعية عدد من علماء الحملة الفرنسية على مصر: مونجيه، بيرثولى، كونتى، جومار. كذلك كان شابتال Chaptal أحد الأعضاء الناشطين والداعمين المتحمسين لها[2].

(1) Arrêt du Conseil d'État du Roi qui accorde divers privilèges et exemptions à la manufacture royale de Saint Chaumond, 21 décembre 1756 (Lyon: Imprimerie P. Valfray, Imprimeur du roi, 1757).

(2) Rene Tresse, "Le Conservatoire des Arts et Metiers et la Societe d'encouragement de l'industrie nationale au debut du XIX siecle," in Revue d'histoire des sciences et de leurs applications 5, no. 5-3 (1952): 252-53.

أصدرت الجمعية دورية علمية فى عام ١٨٠٢م. نشر فيها عدد كبير من الأدلة والتعليمات للصباغين، ومن ثم تهاوت تلك السرية التى احتفظ بها المنتجون لنفسهم لوقت طويل نسبيا. وتضمنت هذه الأدلة معلومات تقنية مفصلة حول مهنة الصباغة. فعلى سبيل المثال تضمن الدليل الجديد للصباغة Nouveau Manuel du Teinturier الصادر عام ١٨١٩م عنوانًا فرعيا "دليل عملى للمتدربين والعاملين فى فن الصباغة" Guide Pratique des Apprentis et des ouvriers dans l'art de la teinture، وكتب هذا الفصل أحد الصباغين المهرة، اسمه بايو Baillot[(١)].

ومع تعدد مثل هذه النشرات، أصبح من الصعب على هؤلاء المصنعين أن يحافظوا على أسرار تقنياتهم. فأصبحت التفاصيل الدقيقة الخاصة بكيفية إنتاج الصبغة الحمراء التركية، متاحة وصارت معارف عامة، بعد أن كانت تسبب مشاكل جمة للصباغين فيما سبق. بالإضافة إلى هذه المعلومات العملية، ظهرت كتابات الكيميائيين الأكاديمية، والذين ربطوا ما بين فن الصباغة وعلم الكيمياء. كان من بين أهم هؤلاء الكيميائيين بيرثولى وشابتال، وهناك آخرون، مثل: فيتالى J.B.Vitalis، أستاذ العلوم وعضو أكاديمية العلوم، وهو الذى كتب كتابا فى الصباغة، من وجهة نظر علمية بديلا عن المنظور الحرفى. وكان غرضه من هذا الكتاب تطوير فن الصباغة وتحسينه[(٢)]، وما من شك بأن هذه الكتابات، سواء التى كتبها حرفيون أو أكاديميون، قد ساعدت على إدماج هذه التقنيات داخل الصناعة الفرنسية، سواء كانت هذه التقنيات جاءت من مصر أو من الدولة العثمانية، أى من أى مصدر آخر.

---

(1) Louis Baillot, Nouveau Manuel du Teinturier (Paris: Bachelier Libraire, 1819)

(2) J.B. Vitalis, Manuel du Teinturier sur filé et sur coton filé (Rouen: Chez Megard, 1810).

هل كان لعمليات الانتقال هذه أى قيمة ؟

الولوج إلى صناعات مهمة

من الصعب الوقوف على أثر هذه الانتقالات لخبرات الحرفيين ومهاراتهم من الدولة العثمانية. ومن ثم علينا أن نسلك طرقًا أخرى غير مباشرة لرصد ما إذا كان لهذه الانتقالات آثار على المتلقين لها، على المدى القصير أو البعيد. إحدى الإجابات حول هذا التساؤل تكمن فى حقيقة أن عدداً من الصناعات المهمة والمعروفة قد تبنت وطبقت بعض هذه التقنيات ذات الأصول المصرية أو الشرقية. وعلى سبيل المثال، مصنع أوبركامف Oberkampf، الذى تأسس عام ١٧٦٠م بالقرب من باريس، كان من أكبر منتجي المنسوجات المطبوعة. وفى عام ١٧٨٣م، منحه الملك لويس السادس عشر لقب "المصنع الملكى". كان هذا المصنع ضخما فى وقته، فى نهاية القرن الثامن عشر، بلغ عدد العمال به قرابة الألف عامل. وكان عدد من الخبراء والعلميين، الذين كانت لهم دراية بتقنيات تبييض المنسوجات العثمانية وصباغتها، مثل بيرثولى ومونجى وشابتال، يقومون بزيارات متكررة لهذا المصنع، حاملين معهم نماذج من الأقمشة المصنعة فى مصر وبلاد الشام أو الأناضول، حتى يتمكن العمال من تقليدها فى المصنع(١). وهكذا قام مصنع أوبركامف باستعمال بعض الطرق الشرقية أو العثمانية فى عمليات التبييض، حيث كانت تستخدم عمليات التبييض بالبخار، والصباغة باللون الأحمر التركى.

كذلك الأمر مع فن صباغة قطعة واحدة من القماش بألوان متعددة، حيث دخل أيضا مجال الصناعة الفرنسية. فبعد أعوام من التجارب للوصول إلى هذا الإنجاز، وتطبيق التقنيات الحرفية فى المصنع، تم اختراع آلة يمكنها صباغة قطعة واحدة من القماش بألوان عدة. ارتبط هذا الاختراع بالمصنع الملكى ذائع الصيت، مصنع نسيج جوبلان Gobelin، الذى ألحقت به المدرسة الملكية لصباغة الجوبلين فى عام ١٨١٩م.

---

(1) Alfred Labouchere, Oberkampf 1738-1815 (Paris: Librairie Hachette, 1866), 139.

وقام مدير هذه المدرسة كونت دى ماريلاك Conte de Marillac بعرض كيفية عمل هذه الماكينة واستخدامها أمام جميع طلابه السابقين(١).

وكذلك الأمر فيما يتعلق باستخدام نبات الحنة (الحناء) صبغة. ونبات الحنة معروف فى مصر منذ أزمنة قديمة، حيث كانت تُستخدم فى صباغة الشعر واليدين، وكذلك الأقمشة. وعرف الفرنسيون فقط إمكانية استخدام الحنة فى الصباغة بعد الحملة الفرنسية على مصر؛ عن طريق بيرثولى وديزولى، اللذين قاما بوصف طريقة الحصول على صبغة من نبات الحنة، وانتشر عملهم بسرعة فى فرنسا(٢). بعد ذلك توالت التجارب على الحنة، حتى أمكن استخدامها فى صباغة الحرير باللون الأسود الرائع، وصارت هذه التقنية مستخدمة فى صناعة الحرير بمدينة ليون، والتى كانت أهم مركز لإنتاج الحرير فى فرنسا. وكان يشار إليها باسم "الحنة العربية". فى سبتمبر عام ١٨٥٨م، حصل كل من جيليت Gillet وتابوران Tabourin، مالكى مصنع النسيج فى ليون، على براءة اختراع مكنتهما من احتكار هذه التقنية لمدة خمسة عشر عاما(٣). فى السنوات التالية، كان مستر جيلى يستورد سنويا حوالى ثمانين ألف كيلو جرام من الحنة، من الجزائر والمغرب(٤).

---

(1) Agusti Nieto-Galan, "Between Craft Routines and Academic Rules: Natural Dyestuffs and the 'Art' of Dyeing in the Eighteenth Century," in Materials and Expertise in Early Modem Europe: Between Market and Laboratory, ed. Ursula Klein and E.C. Spary, 321-53 (Chicago: University of Chicago Press, 2010), 324n11; France, Office national de la propriete industrielle, Description des machines et procédés consignés dans les brevets, vol. 29 (Paris: Chez Madame Huzard, 1836), 423.

(2) Descotils et Berthollet, "Observations sur les qualites tinctoriales du henneh," in La Décade Égyptienne, vol. 2 (An VIII/1800), 164-66.

(3) France, Ministere du commerce et de l'agriculture: Office national de la propriete industrielle, Descriptions des machines et des procédés pour lesquels des brevets d'invention ont été pris sous le régime de la loi du 5 juillet 1844, vol. 69 (Paris: Imprimerie imperiale, 1870), 34.

(4) Louis Piesse, Itinéraire historique et descriptif de l'Algérie, comprenant le Tell et le Sahara (Paris: Imprimerie de Ch. Lahure, 1862), LX.

بداية القرن التاسع عشر: نهاية أنواع عديدة من الاحتكار

فى نهاية الأمر، هناك عدة تقنيات وطرق دخلت مجال الصناعة الفرنسية، وهى الصباغة بألوان متعددة، وإنتاج ألوان حمراء معينة، وإجراءات من أجل اتباع طرق أرخص وأسرع فى مجال التبييض.

وربما كان إدخال هذه التقنيات إلى صناعة النسيج فى فرنسا، قد ساعدها على الحفاظ على مكانتها بوصفها منتجًا للبضائع الثمينة والفاخرة، فى ضوء المنافسة مع بريطانيا على الأسواق.

فى القرن الثامن عشر، حيث كانت الثورة الصناعية تشق طريقها، بات من الواضح أن إنجلترا تتولى زمام الأمور، وصار من الصعب على أى منتج آخر أن ينافس الأسعار الرخيصة للمنتج الغزير للمنسوجات الإنجليزية. أما الصناعة الفرنسية، فإنها كانت متأخرة بدرجة ما عن مثيلتها الإنجليزية، يعود ذلك، فى جزء منه، إلى ما شهدته فرنسا من اضطرابات سياسية عديدة فى القرن التاسع عشر، وازداد هذا التأخر خلال سنوات الثورة الفرنسية والفترة التى تلتها. ولتعوض فرنسا ما فاتها، وتزيد من فرصها التنافسية، عمدت إلى التركيز على إنتاج السلع الفاخرة، مثل تلك التى كان ينتجها مصنع أوبركامف، والمنسوجات الحريرية التى كانت تُنتج فى ليون. وهذان النموذجان استخدما تقنيات الصباغة التى تعلماها من الحرفيين العثمانيين. وعلى الرغم من الانتكاسات العديدة التى ألمت بفرنسا، فإنها تمكنت من الحفاظ على مكانتها بوصفها مصدرًا رئيسيا للسلع الفاخرة[1]

على أن نقل هذه الخبرات والمهارات، قد أسهم فى نهاية الأمر فى تقليل الاعتماد على الأسواق الشرقية والمصرية. وخلال القرن التاسع عشر، صار الفرنسيون يزرعون نبات القرطم، وينتجون ملح النوشادر. كما أن الصبغة الحمراء التركية، والتى كانت

(1) Alfred Labouchere, Oberkampf, 1738-1815 (Paris: Librairie Hachette, 1866), 39.

حكرا على إزمير وأدرنة، أصبحت تُنتج فى فرنسا، ومنها تُرسل إلى أسكتلندا، حيث أنشأ أحد الفرنسيين، مسيو بابيون Monsieur Papillon، ورشة صباغة تخصصت فى الصبغة الحمراء التركية[1]. كان من نتائج نقل هذه الخبرات أن تأثرت الصناعة العثمانية بالسلب، وطالت هذه الآثار السلبية الحرفيين.

أما هذه التقنيات التى حققت نجاحا فقد نُسيت، أو أُغفلت عمدا، أصولها. وعندما قام المؤرخ البريطانى جاك جودى Jack Goody بتأليف كتابه "سرقة التاريخ" لم يتوقف كثيرا أمام الشرق الأوسط والعالم العربى، أو العالم العثمانى. ولكن معظم ما كتبه يتردد صداه فى الموضوعات التى شرحناها أعلاه. كتب جودى عن استيلاء الغرب على قيم معينة مثل النزعة الإنسانية والعقلانية، والتى ادعى الكثير من الكتاب بأنها قيم أوروبية الأصل. ووجد جودى أن هذه القيم موجودة فى مجتمعات كثيرة غير أوروبية. كذلك وجد أن بعض النظم التى تُنسب غالبا إلى الحداثة الأوروبية، مثل: الديموقراطية، والنزعة التجارية، والرأسمالية، والفردية، كانت منتشرة بشكل كبير فى مجتمعات بشرية أخرى خارج أوروبا. فى كل الأحوال، استولى الغربيون على هذه القيم، وقدموها على أنها من إنتاجهم[2].

على أننا يمكن أن نطبق هذا المنهج نفسه، ليس فقط على المفاهيم المجردة، ولكن على ظروف وأحوال حقيقية وواقعية. ومن الممكن أن نتتبع المراحل التى آلت فى النهاية إلى فقد هوية هؤلاء الذين ابتكروا تلك التقنيات، التى انتقلت خلال القرن الثامن عشر؛ حيث طوى النسيان تلك الأماكن التى نشأت فيها هذه التقنيات. جزء من السبب يعود إلى أن أسماء هؤلاء الحرفيين المحليين، الذين أتقنوا ومارسوا هذه التقنيات، لم تُعرف أو تسجل قط. ويعود جزء أيضا إلى أن الفضل نُسب إلى أولئك الذين تعرفوا على هذه التقنيات، أو كتبوا عنها، أو اشتركوا فى عمليات نقلها. فى منتصف القرن الثامن عشر، قام الرحالة السويدى هاسلكويست بوصف طريقة إعداد القرطم لاستخدامه فى

---

(1) Societe des gens de lettres, Nouvel esprit des journaux français et étrangers, vol. 12 (Brussels: Imprimerie de Weissenbruch, 1804), 156.

(2) Jack Goody, The Theft of History (Cambridge: Cambridge University Press, 2008).

الصباغة بالأحمر؛ وفى نهاية القرن قدم بيرثولى وصفا تفصيليا لهذه العملية. بعد ذلك أصبحت هذه العملية تُسمى "طريقة هاسلكويست"، دون أى إشارة إلى المكان الذى وجد فيه هاسلكويست هذه الطريقة، أو حقيقة أنه وصف طريقة موجودة، ولم يخترعها بنفسه[1]. بعد قرن من انتقال حرفيين عثمانيين من أدرنة وإزمير إلى دارنتيل Darental، لكى يقوموا بتعليم العمال هناك كيفية إنتاج اللون الأحمر الأندرينى، جاء جان مارى رولاند Jean-Marie Roland ليصف هذا الأمر بأنه اختراع تم فى دارنتيل. ثم صار يشار إلى هذا اللون باسم "أحمر دارنتيل". ولكن أضاف الكاتب بأنه لم يصل قط إلى مستوى الأحمر الأندرينى[2] وهكذا لم يرد قط ذكر أسماء الحرفيين فى القاهرة وأزمير وإستانبول. ولكن سُجلت أسماء أولئك الذين نقلوا هذه التقنيات.

وهناك مثال مهم ومعبر، وهو مثال بيرثولى Berthollet، ذلك الكيميائى الذى كان مصاحبا للحملة الفرنسية؛ حيث قام بيرثولى بملاحظة وتسجيل الممارسات التى وجدها، وعلى ذلك انتشر الكثير منها فى فرنسا. وردت سيرة بيرثولى فى عمل مهم عن أهم شخصيات القرن التاسع عشر، تضمنت سيرته مدحا كبيرا لإنجازاته العظيمة، التى استفادت منها فرنسا بل وأوروبا بأسرها، مثل: دراساته حول القرطم والحنة؛ دراسة عن بحيرات النطرون، التى يُستخرج منها الكلور الصناعى بطريقة لم تكن معروفة فى أوروبا من قبل؛ وكذلك إدراكه لأهمية هذا المنتج فى عمليات تبييض الأقمشة فى أوروبا[3] أُغدق على بيرثولى المديح على هذه الاكتشافات، وكأنه المكتشف لكل هذه التقنيات.

---

(1) Jean-Pierre Marie Dana, "Observations sur la preparation du carthame, ou safron batard, nomme le linnée carthamus tinctirius." Mémoire de l'Académie de Science à Turin, Année 1792 à 1800, vol. 6 (Turin: Imprimerie nationale, 1801), 157.

(2) Roland de la Platiere, Encyclopédie méthodique: manufactures, arts et métiers, vol. 1 (Paris: Panckoucke, 1785), 218.

(3) Societe Montyon et Franklin, Portraits et histoire des Hommes Utiles, vol. 1 (Paris: Lebrun Libraire Editeur, 1841).

ونفس الأمر حدث مع عمليات التبييض بالبخار. نُشر كتاب فى عام ١٨٠١م يخبرنا بأن هذه التقنية وصلت فرنسا من الشرق، فى نفس وقت وصول تقنية الصباغة بالأحمر التركى، ووجدت طريقها إلى جنوب فرنسا فى منتصف القرن الثامن عشر، ويدعى شابتال بأنه هو الذى أدخل هذه التقنية إلى فرنسا، ربما فى أوائل القرن التاسع عشر[1] فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، صارت أصول هذه التقنية غامضة ومشوشة. حيث يشير لويس فيجييه Louis Figuier، فى منتصف القرن التاسع عشر إلى مصنعين قد بنيا قبل عام ١٧٨٩م، ويقول بأن شخصية ذلك الذى اخترع التبييض بالبخار غير معروفة، ولكن هذه التقنية نشأت فى الهند فى وقت غير معروف أيضا! ولم يرد ذكر بأن الفرنسيين قد استعاروا هذه التقنية من المشرق. والاسم الذى ارتبط بهذه التقنية كان اسم شابتال[2]، وبعد أن وصلت المعلومات حول هذه التقنية الجديدة إلى إنجلترا، بدأ الإنجليز فى تطبيق "طريقة شابتال" لتطوير صناعاتهم[3] وباختصار، فإن تقنية التبييض باستخدام البخار انتشرت من الشرق إلى أجزاء مختلفة من أوروبا، ولكن بأسماء مختلفة.

خلاصة

تغيير الاتجاه

تم اختراع الأصباغ الصناعية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وسرعان ما استخدمت فى صناعات النسيج. وبالتبعية، فقدت ممارسات وخبرات الصباغين

(1) R. O'Reilly, Essai sur le blanchiment, avec la description de la nouvelle méthode (Paris: Chez Deterville, An IX/1801), 132; Chaptal, Chimie appliquée, vol. 4, 426.
(2) Louis Figuier, Les Merveilles de l'Industrie (Paris: Fume, Jouvet et Cie, 1860), 509-10.
(3) William Nicholson, ed., Journal of Natural Philosophy, Chemistry and the Arts, vol. 4 printed for the author (London: Stratford, Crowncourt, and Temple Bar, 1801), 470.

العثمانيين بريقها، بعد أن كانت قبلة للمستثمرين وأصحاب المصانع الأوروبيين، يبحثون عنها ويحاولون محاكاتها فى مصانعهم. وحتى ذلك الحين، كانت هذه الخبرات والممارسات جزءا من منظومة المصنع. وهذا يعنى أنه لقرابة القرنين ونصف من الزمان (من منتصف القرن السابع عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر) كان نقل التقنيات يتخذ مساره من الجنوب إلى الشمال. فى وقت كان النقل والانتقال فى الاتجاه المعاكس قليلا للغاية. ويبدأ هذا المسار من الغرب إلى الشرق مع السنوات الأولى للقرن التاسع عشر، أثناء حكم محمد على.

الحرفى والعالم: تفاعل وجدال

علاوة على ذلك، شكلت هذه الانتقالات، من الشرق إلى الغرب، أو من الجنوب إلى الشمال، نموذجا مهما للطريقة التى ولجت بها خبرات الحرفيين فى القاهرة أو إستانبول أو إزمير إلى أوروبا، فيما قبل العصر الحديث وفى أثنائه. كما شكلت أيضا نموذجا للأثر المحتمل للحرفيين أنصاف المتعلمين، ذوى مهارات معينة، على الصناعة الفرنسية. بعض الطرق التقليدية التى اتبعها الحرفيون المحليون فى إنتاج النسيج، طبقت وأدخلت ضمن منظومة الممارسات العلمية الحديثة. وفى نفس الاتجاه، كانت طرق العلاج التى يستخدمها أطباء العيون المحليون، فى علاج مرض التهاب الملتحمة، صارت ضمن الممارسات الطبية فى أوروبا فى القرن التاسع عشر. كذلك الحال مع تقنيات إنتاج ملح النوشادر التى طورها حرفيون أميون أو أنصاف متعلمين مصريين، انتقلت إلى أوروبا، أولاً إلى أسكتلندا عام ١٨٥٦م، ومنها انتشرت إلى مناطق أخرى. التفاعل ما بين الحرفى والباحث، بين التجريبى والنظرى، أو بين العملى والعلمى، أو بين المحلى والعالمى اتخذ أشكالا مختلفة، وانخرط فى هذا الأمر أكاديميات مختلفة للعلوم فى أوروبا، وكذلك علماء، وكبار الحرفيين، والذين عملوا على تطوير تلك التقنيات المستوردة.

وخلال المراحل المعقدة لعمليات النقل هذه، قام أشخاص مثل بيرثولى Bertholet بدور الوسيط بين الحرفى والعالم. كان لدى بيرثولى التدريب العلمى الكافى قبل مجيئه

إلى مصر، ولذلك كان لديه طريقة تحليلية أعمق فى تقييم ما شاهده، مقارنة بسابقيه من أمثال سيكار Sicard وجرانجر Granger وهاسلكويست Hasselquis. وخلال إقامته فى مصر، كان بيرثولى بمثابة مراقب عن كثب لتقنيات الحرفيين التى شاهدها بالقاهرة، وكذلك كان مفسرا يعتد بما قاله، اعتماداً على ما لديه من تدريب نظرى. ومن ثم استطاع بيرثولى أن يربط ما بين العملى والنظرى.

والنتائج التى توصلنا إليها بأن ممارسات الحرفيين كانت من بين المصادر التى تأسس عليها العلم الحديث والتكنولوجيا، تتفق مع ما توصلت إليه دراسات حديثة حول ظهور العلوم الحديثة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر فى أوروبا، والتى درست العلاقة ما بين التقاليد المهنية والعلم. وتساءلت هذه الدراسات حول ماهية الثورة العلمية، وهل كانت نتيجة لجهود كبار المفكرين والعلماء الذين كانوا يبحثون عن القوانين الكلية للطبيعة، وهل كان هناك دور ما للمعرفة التجريبية، وهل تطلبت المعرفة العلمية أن تجمع ما بين الأعمال النظرية وممارسات الحرفيين. وتميل الدراسات الحديثة إلى إبراز دور الحرفيين وإسهامهم بوصفه عنصراً رئيسيا فى ظهور العلم الحديث، حيث إن هؤلاء الحرفيين أسهموا بخبراتهم التجريبية، والتى اعتمدت على ممارساتهم اليومية وتجاربهم[1]. وفندت هذه الدراسات الادعاء بأن العلم الحديث والتكنولوجيا كانا فقط ثمرة جهود كبار العلماء ذوى الخلفيات الفكرية أو الأكاديمية، والذين أجروا التجارب فى معاملهم، وظهرت أعمالهم ومعارفهم فى الكتب. ويعتبر جيمس سكورد James A. Secord أن ممارسات بعينها فى مكان معين، تعد من مصادر التطور العلمى، ولكى نفهم كيف تطور العلم، علينا أن ندرس الممارسة[2].

هنا نجد نماذج مشابهة لما ذكرناه حول العلاقة ما بين العالم والحرفى، يتكرر فى بلدان أخرى. وهنا نتذكر مقولة طومسون E.P. Thompson، حين كتب يقول: إنه كان

---

(1) Pamela O. Long, Artisan/Practitioners and the Rise of the New Sciences, 1400-1600 (Corvallis, OR: Oregon State University Press, 2011); Pamela Smith, The Body of the Artisan: Art and Experience in the Scientific Revolution (Chicago: University of Chicago Press, 2004); Clifford D. Connor, A People's History of Science: Miners, Midwives and "Low Mechanicks" 11, no. 2 (2007).

(2) James A. Secord, "Knowledge in Transit," Isis 95, no. 4 (Dec. 2004): 657-58.

من الصعب أن تتطور الثورة الصناعية دون المهارات المتنوعة للعمال الإنجليز، المجهولين والمنسيين[1]. وحفز عمل طومسون باحثين آخرين، منهم، على سبيل المثال، فينسنت إيلاردى Vincent Ilardi، والذى نشر دراسة حديثة تبين أثر الحرفيين الأمين المهرة فى البندقية، والذين كانوا يعملون فى مجال العدسات الزجاجية فى عصر النهضة، على تكنولوجيا العدسات، وكيف أن هذه المهارات صارت هى الأساس لتقدم هذه التكنولوجيا والتى أدت فى النهاية إلى اختراع التليسكوب[2]. ويمكن أن نضع نقل خبرات الحرفيين العثمانيين فى سياق مماثل.

وتشير هذه الدراسات إلى حاجتنا لمراجعة بعض الطرق التى تمت بها دراسة هؤلاء "الحرفيين التقليديين"، وكيفية النظر إليهم. والحاجة إلى مراجعة تقييم دورهم المحتمل فى التطورات الحديثة، وكيفية استكمال أحد جوانب الصورة التى أهملتها الكتابات التاريخية - ونست أو تناست أن تلقى الضوء على جهود هؤلاء الحرفيين المجهولين، الذين ابتكروا تقنيات وخبرات من خلال طريقة التجربة والخطأ فى ممارساتهم اليومية.

التبادل فيما قبل العصر الحديث

على المستوى الأوسع، تشكل هذه الانتقالات لخبرات حرفيى النسيج فى القاهرة، أو حلب، أو إزمير، أو إستانبول، جزءًا من انتقالات عالمية أوسع للتقنيات من الشرق إلى الغرب، خلال الفترة من القرن السادس عشر وحتى الثامن عشر. حيث تشابهت مع انتقال المهارات التقنية، وبخاصة فى مجال إنتاج النسيج، من الهند إلى إنجلترا.

---

(1) E.P. Thompson, The Making of the English Working Class (New York: Pantheon Books, 1964), 831.

(2) Vincent Ilardi, Renaissance Vision from Spectacles to Telescopes (Philadelphia: American Philosophical Society, 2007), 250-51.

ولاحظ ديفيد واشبروك David Washbrook أن النساجين الهنود أمدوا الصناعة الإنجليزية بتقنيات تصميم ونسج القطن[1] ويقول واشبروك إن مثل هذه الانتقالات تدحض الادعاء بأن التاريخ الحديث كان صناعة أوروبية فقط[2].

من المحلية إلى العالمية

ما كان معرفة محلية تمارس فى مكان معين استجابة لحاجات معينة، كان فى طوره لأن يصبح معياريا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أو صار، بعبارة أخرى، جزءا من أشكال عالمية للمعرفة. ومع تطور هذه العملية، بدأت تلك العناصر ذات الطبيعة المحلية تفقد خصوصيتها. وصار كل ما هو عالمى يرتبط بالغرب. ويمكن بالتبعية النظر إلى نقل المعرفة من حرفيى الدولة العثمانية على أنه جزء من المراحل المبكرة لعولمة المعرفة.

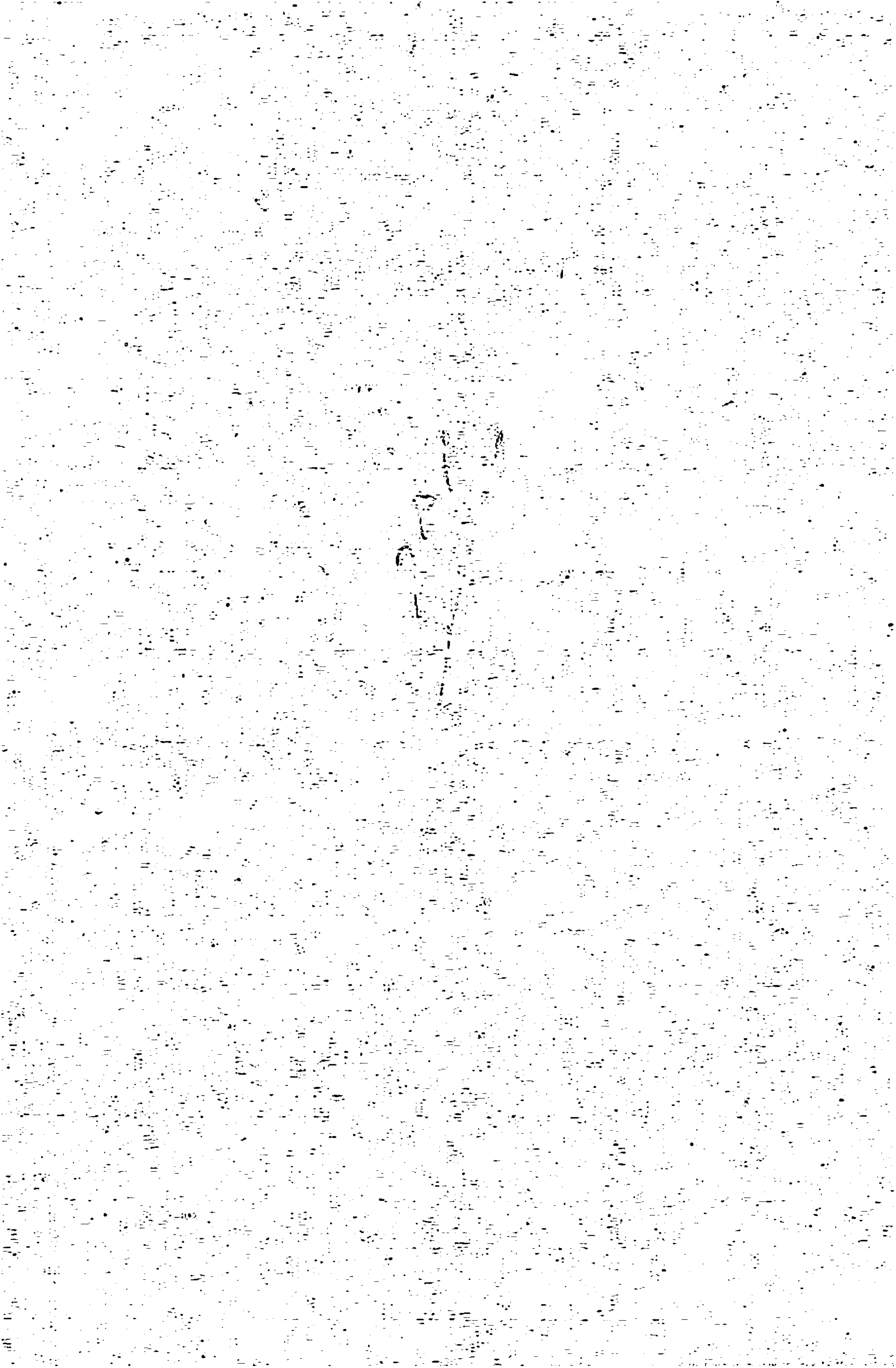
وتزايدت حاجة الأوروبيين للحصول على خبرات تقنية خلال القرن التاسع عشر. وفى أواخر القرن التاسع عشر تزايدت عمليات نقل المعارف فى الاتجاه الآخر، من أوروبا إلى الشرق. من ناحية أخرى، كانت أواخر القرن التاسع عشر هى الفترة التى شهدت التوسع الاستعمارى الأوروبى فى أقاليم واسعة من العالم، بدعوى نشر التقدم والحضارة، ومن ثم زاد عمق التدخل والسيطرة على الاقتصاديات المحلية.

وشهد خطاب نقل المعارف تغيرا، تبعا لتغير الظروف والأحوال، بعد بروز الهيمنة الأوروبية واكتمالها. وبدلا من الحديث حول ما يمكن أن تتعلمه فرنسا من حرفيى القاهرة، صار الحديث حول الدور الحضارى للحضارة الغربية، وما يمكن أن تقدمه لما يسمى بالبلاد "المتخلفة" فى نفس الوقت، تم تجاهل تاريخ الانتقالات من الشرق إلى

(1) David Washbrook, "From Comparative Sociology to Global History: Britain and India in the Pre-history of Modernity," Journal of the Economic and Social History of the Orient 40, no. 4 (1997): 410-43.

(2) David Washbrook, "A Global History of Modernity: A Response to a Reply," Journal of the Economic and Social History of the Orient 41, no. 3 (1998): 300.

الغرب إلى حد كبير. وسيطرت المفاهيم الاستعمارية على حقائق التطور التاريخى. وبنهاية القرن التاسع عشر، وتحت تأثير المفاهيم الاستعمارية، ترسخت وتزايدت المقولات حول أن نقل المعارف كان له اتجاه وحيد من الغرب إلى الشرق.



الخــــاتمة

عمدت التــواريخ التى كتبهــا المستعمــرون إلى تشويــه تــاريخ بلدان ما يسمى بـ "العالم الثالث" فى الفترة السابقة على الاستـعمار، واتـخذت هـذه التواريخ منظورا محددا لكتابة هذه التواريخ. وإذا نحينا هذا المنظور جانبا، يمكننا أن نرى هذا التاريخ بطريقـة أخرى. وهذا الكتاب محـاولة لاقتـراح نموذج بديل يسمح لنا بمراجعـة تاريخ مصر خلال تلك الفترة التى سبقت الاستعمار الأوروبى لها. وهو نموذج بديل لنموذج التدهور الذى سيطر على مجال الدراسات التاريخية لتلك الفترة، لعقود طويلة.

تعد الفترة ما بين عام ١٥٠٠ وحتى ١٨٠٠م فترة تحولات فى مصر وفى أجزاء عديدة من العالم. وارتبطت هذه التحولات، إلى حد ما، بالتوسع الذى شـهدته التجارة الدولية، وما صاحبها من اكتشاف طرق بحرية وتدشينها ربطت ما بين معظم أجزاء العالم. وهذا الكتاب يدرس نتائج هذه التحولات. ويقف عند بعض المجالات التى شهدت توجهات وأنماطًا متشابهة فى كل من أوروبا، والعالم غير الأوروبى. أحد هذه الأمثلة، هى عملية التـجير التى تسارعت وتيرتها، واتسعت عن ذى قبل، وتجلت بطرق عدة. فإذا نظرنا إلى مجال الثقافة، على سبيل المثال، سنجد تجلياتها فى زيادة الثقافة التجارية، والتى أثرت بدورها على طريقة استخدام اللغة. حيث تزايد استخدام مستوى من اللغـة فى النصوص المكتوبة كانت أقرب إلى لغـة الكلام الدارجة، ومن ثم صارت أكثر وصولاً إلى أناس من خارج مؤسسات التعليم. وهذا التوجه نحو اللغات المحلية تزامن حدوثه فى مناطق أخرى عديدة من العالم، فى أوروبا وآسيا، حيث صارت اللهجات المحلية أشكالاً مقبولة من لغات التواصل المكتوبة.

كذلك الحال فى المجال الاقتصادى، كانت هناك توجهات مشابهة فى مجال تجارة المنسوجات وإنتاجها. حيث كان للتوسع الذى شهدته تجارة المنسوجات، وبخاصة الأقمشة القطنية، آثار مختلفة على أقاليم عديدة بالعالم. وتجلت آثارها على إنتاج الحرفيين بمصر، وبخاصة حرفيى النسيج، فى جوانب عدة. حيث زاد نساجو الأقطان من إنتاجهم، وبخاصة فى القرن الثامن عشر، وقاموا بتعديل بعض قوانين الطائفة التى قد تعوق أنشطتهم. وتبعا لذلك، استطاعوا أن يحجزوا لهم مكانا فى تجارة الأقمشة الدولية، بعد أن تمكنوا من استهداف أسواق بعينها، وتلبية حاجاتها. وكانت نسبة كبيرة من المنسوجات التى يصدرونها تتكون من الأقمشة الخشنة، غير المصبوغة، منخفضة الأسعار نسبيا، وتستهدف الطبقات المستورة والفقيرة من الناس. وهكذا تأثرت جوانب مختلفة، اقتصادية وثقافية، بظروف ذلك العصر.

ماذا يعنى ذلك فى فهمنا لتاريخ مصر؟ يمكن الإجابة عن هذا السؤال المعقد بطرق عدة؛ إحداها. هو الطرح بأن هناك تغيرا قد حدث، جعل بعض قطاعات فى المجتمع والاقتصاد والثقافة أكثر اقترابا وتأثرا من غيرها بأحوال التجارة العالمية. وإذا كان الأمر على هذا النحو، فإن هذا التغير، قد تسبب، من جانب آخر، فى خلق مسافة بين هذه القطاعات ومحيطها المحلى. وسيتضح هذا الأمر بجلاء، عندما تتسارع وتيرة العولمة وتمس قطاعات أكثر. ويمكن النظر إلى هذا العصر، وبخاصة الجزء الأخير منه، على أنه عصر تزايد التهجين، عصر تعدد الأنماط والنظم الاقتصادية والثقافية، والتى تعايشت فى نفس الوقت، عصر ظهرت فيه طرق جديدة ومناهج، تباينت درجات نجاحها فى أن تصير جزءا من أنماط العمل والتفكير الموجودة آنذاك.

يمكن للمرء أن يغير أيضا زاوية تعاطى التاريخ؛ بالتحول نحو رؤية التاريخ من أسفل إلى أعلى. حيث السائد الآن، هو أن أغلب الدراسات التاريخية تُكتب على المستوى العريض الأوسع. ويقترح هذا الكتاب طريقة "التاريخ من أسفل" لكتابة تاريخ العالم، والتى من شأنها أن تكشف النقاب عن تلك الروابط ما بين التحولات الكبرى التى شهدها العالم، وبين أناس عاديين مجهولين، لم تظهر أسماؤهم قط فى كتب

التاريخ. ويمكن بكل تأكيد أن تُطبق هذه الطريقة على بلدان وأقاليم أخرى. لقد حان الوقت لأن تُعطى إسهامات أعداد غفيرة من الحرفيين والتجار المجهولين مكانتها التى تستحقها، وأن تنال حظها من الدراسة والتقدير أيضا. لقد كانوا هم أيضا جزءا من هذه التحولات، وتكيفوا معها. لقد كانت لتقنياتهم، التى تطورت من خلال ممارساتهم اليومية وطريقة التجربة والخطأ، بعض التأثيرات على تاريخ العالم الحديث؛ حيث انتقلت هذه التقنيات إلى أوروبا، وصارت جزءًا من منظومة التصنيع فى فرنسا، وأماكن أخرى. من ناحية أخرى، مثل هؤلاء الحرفيين والتجار الجمهور المحتمل للشكل العامى من الكتابة، وربما أسهموا فى التوسع الذى شهدته النصوص المكتوبة التى استخدمت لغة أكثر سهولة وقابلية من مستوى اللغة الفصحى. وعلى ذلك، فإن النموذج الذى يقترحه هذا الكتاب، من شأنه أن يسمح لنا، ليس فقط فى إعادة النظر حول الفترة الممتدة من ١٥٠٠ وحتى ١٨٠٠م، بل أن نفهم ما حدث فى القرن التاسع عشر، بطريقة مختلفة.

لقد كانت الفترة الممتدة من ١٥٠٠ وحتى ١٨٠٠م فترة حاسمة فى تشكيل العالم الذى نعيشه الآن. وكانت جزءا من عملية معقدة شملت أقاليم متعددة، ومشاركين متعددين أسهموا فى صناعتها. وهذا الكتاب يقترح طريقة لكيفية التعامل مع التحولات العالمية خلال ذلك العصر، ليس فقط من خلال التطورات التى شهدتها أوروبا وصنعها أوروبيون، بل أيضا دور العالم غير الأوروبى فى صناعة تاريخ العالم الحديث. إن المجتمع المصرى، شأنه شأن مجتمعات أخرى عديدة غير أوروبية، له تاريخه الخاص الذى يجب أن يُدرس ويُفهم، وما من شك بأن هذه الدراسة ستعيننا على فهم نشاطات هذا المجتمع، ولكن الأهم هو أن تُدرس هذه المجتمعات وأنشطتها فى إطار التحولات التى شهدتها تلك الفترة التى أسهموا فى صناعة تاريخها.



المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأرشيفية العربية: سجلات المحاكم الشرعية بالقاهرة:

- سجلات محكمة الباب العالى، ١١٩، ١٢٣، ١٢٩، ١٣٥.
- سجلات محكمة الصالحية النجمية، سجل ٥٣١
- سجلات محكمة الزاهد، سجل ٦٩٣.

ثانيا: المصادر الأرشيفية الأجنبية:

- *Bulletin de la Société pour l'encouragement de l'industrie nationale.* Paris: Chez Madame Huzard, An X/1802.
- *Dictionnaire chronologique et raisonné des découvertes en France de 1789 à la fin de 1820.* Vol. 4. Paris: Chez Louis Colas, 1822.
- France, Ministere du commerce et de l' agriculture. Office national de la propriete industrielle. *Description des machines et procédés consignés dans les brevets*. Vol. 29. Paris: Chez Madame Huzard, 1836.
- France, Ministere du commerce et de l' agriculture. Office national de la propriete industrielle. *Descriptions des machines et des procédés pour lesquels des brevets d'invention ont été pris sous le régime de la loi du 5 juillet 1844*. Vol. 69. Paris: Imprimerie Imperiale, 1870.
- *Lettres édifiantes et curieuses écrites des missions étrangères écrites par des missionaires*. Vol. 3. In *Mémoire du Levant*. Lyon: Chez J. Vernarel et Etienne Cabin, 1819.

- "Notice sur l' ophtalmie regnante par le citoyen Bruant, medecin ordinaire de l' armee." *La Décade Égyptienne*. Vol. 1, An VII/1799, 58-63.
- Societe des gens de lettres. *Nouvel esprit des journaux français et étrangers*. Societe Montyon et Franklin. *Portraits et histoire des Hommes Utiles*. Vol. 1. Paris: Lebrun Libraire Editeur, 1841.

ثالثا: المصادر والمراجع العربية والمعربة

- ابن الطوق، شهاب الدين أحمد: يوميات شهاب الدين أحمد بن طوق؛ نشر وتحقيق الشيخ جعفر المغير، ثلاثة مجلدات، دمشق: المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، ٢٠٠٠-٢٠٠٤م.
- ابن حنبل، رضى الدين يوسف بن حنبل: بحر العوّام فيما أصاب فيه العوام؛ تحقيق شعبان صالح، القاهرة: دار الثقافة العربية، ١٩٩٠م.
- ابن خلدون: المقدمة، بيروت: دار العودة، ١٩٨١.
- ابن عابدين: مجموعة رسائل ابن عابدين، بيروت: إحياء التراث العربى، د.ت
- ابن كنان، محمد بن كنان الصالحى: يوميات شامية؛ نشر وتحقيق أكرم حسن العلبى، دمشق: دار الطباع، د. ت.
- ابن نجيم: الأشباه والنظائر على مذهب أبى حنيفة النعمان، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٥
- أدى شير: الألفاظ الفارسية المعربة، د.ن، ١٩٠٨م.
- البكرى، محمد بن أبى السرور الصديقى الشافعى(ت ١٠٨٧هـ): القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب؛ تحقيق: هشام عبد العزيز وعادل العدوى، القاهرة: أكاديمية الفنون، ٢٠٠٦م

- الجبرتى، عبد الرحمن: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار؛ تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٩٨م.
- جران، بيتر: الجذور الإسلامية للرأسمالية، مصر ١٧٦٠- ١٨٤٠م؛ ترجمة: محروس سليمان، القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٣م.
- الجمال، أحمد صادق: الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى، القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦م.
- حنا، نللى: ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية (ق ١٦م- ق ١٨م)؛ ترجمة: رءوف عباس، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٣.
- حنا، نللى: حرفيون مستثمرون، بواكير تطور الرأسمالية فى مصر؛ ترجمة: كمال السيد، القاهرة، المركز القومى للترجمة، ٢٠١١م.
- حنفى، سحر على: العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى فى القرن الثامن عشر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، (سلسة تاريخ المصريين، ١٧٨) ٢٠٠٠
- الخفاجى، شهاب الدين أحمد الخفاجى: شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل؛ تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجى، القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث، ٢٠٠٣م.
- داغر، أسعد خليل: تذكرة الكتاب، كتاب يتضمن التنبيه على أهم الغلطات اللغوية الدائرة فى ألسنة الخطباء وأقلام الكتاب فى هذه الأيام (ط١، المقتطف، ١٩٢٣م)، ط٢، القاهرة: دار العرب للبستانى، ١٩٩٥م
- الدمرداشى، أحمد الدمرداش كتخدا عزبان: الدرة المصانة فى أخبار الكنانة؛ تحقيق دانيال كريسيليوس، وعبد الوهاب بكر، القاهرة: دار الزهراء للنشر ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- دموس، حليم: قاموس العوام، ط٢، دمشق: ١٩٢٣م

- دوس، مديحة، وديفيز، همفرى (جمع وتقديم): العاميـة المـصرية المكتوبـة، القاهرة: الهيئة المصرية االعامة للكتاب، ٢٠١٣م
- راغب، عبد الجواد إبراهيم: لغة العامة فى تـاج العـروس، القـاهرة: مكتبـة الآداب، ٢٠٠٨
- ريمون، أندريه: الحرفيون والتجار فى القاهرة فى القرن الثامن عشر، جزءان؛ ترجمة ناصر أحمد إبراهيم وباتسى جمال الدين، مـصر: المجلـس الأعلـى للثقافة، ٢٠٠٥م. (المشروع القومى للترجمة، ٨١٨، ٨١٩)
- السيوطى، جلال الدين: حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة، بيـروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.
- صالح، أحمد رشدى: الأدب الشعبى، ط٣، القاهرة: مطبعة النهضة المـصرية، ١٩٧١م.
- ضيف، شوقى: تحريفات العامية للفصحى، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٤م.
- عبد المعطى، حسام: "صناعة الأقمشة فى مصر خلال العصر العثمـانى ١٥١٧-١٨١٧م، رؤية وثائقية جديدة"، الروزنامة ٤، ٢٠٠٦، صص ٣٠٥-٣٧٣
- عبد المعطى، حسام: العلاقات المصرية الحجازية فى القرن الثامن عشر، القـاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤ (سلسة تاريخ المصريين، ١٤٩)
- عثماوى، سيد: "المقاومة بالحيلة فى مصر العثمانية" فى: الرفض والاحتجـاج فى المجتمع المصرى فى العصر العثمانى؛ تحرير: ناصر إبـراهيم، القـاهرة: مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، ٢٠٠٤م. صص ١٣٧-١٧٠.
- العنيسى، طوبيا: تفسير الألفاظ الدخيلة فى اللغة العربية، مـصر: دار العربـى البستانى، ١٩٠٩م.
- عيسى، أحمد: المحكم فى أصول الكلمـات العاميـة، ط٢، مـصر: مطبعـة مصطفى البابى الحلبى، ١٩٣٩م.

- كلمات عامية أو دخيلة وما يقابلها من الكلمات العربيـــة الـصحيحة: جمعهـا معلمو اللغة العربية بالمدارس الأميرية، د.ت.(مكتوبة باليد، محفوظة بمكتبـة جامعة القاهرة)
- المحبى، محمد أمين المحبى: قصد السبيل فيما فى اللغة العربية مـن الـدخيل، مجلدان؛ تحقيق: عثمان محمد السينى، الرياض: مكتبة التوبة، ١٩٩٤م.
- مرزوق، خالد سيد (محقق): من وثائق بنى سويف فى العصر العثمانى، سجل من محكمة الباب العالى، القاهرة: دار الكتب والوقائق القومية، ٢٠١٢ (سلـسلة دراسات وثائقية، ٥)
- مكى، محمد بن محمد: تاريخ مكة المـشرفة، بيـروت: دار الكتـب العلميـة، ١٩٩٧م
- ميلاد، سلوى على: الوثائق العثمانية، دراسة أرشيفية وثائقية لسجلات محكمـة الباب العالى، ج٢، الإسكندرية: دار الثقافة العلمية، ٢٠٠٠.
- نقولا، ميخائيل: الرسالة التامة فى كلام العامة والمناهج فـى أحـوال الكـلام الدراج، د.ن، د.ت (أواخر ق ١٩)

رابعًا: المصادر والمراجع الأجنبية

- Abou-El-Haj, Rifaat. *Formation of the Modern State, The Ottoman Empire: Sixteenth to Eighteenth Centuries*. Albany, NY: State University of New York Press. 1991.
- Abou Ghazi, Emad. "Observations sur la langue a travers l' etude des actes notaires de l' epoque mamelouke." *Égypte/Monde Arabe* 27–28 (1996): 147–56.
- Adas, Michael. "Contested Hegemony: The Great War and the Afro-Asian Assault on the Civilizing Mission Ideology." *Journal of World History* 15, no. 1 (March 2004): 31–63.

- al-Adl, Sabri. "The Study of Astronomy According to the Chronicle of al-Jabarti." In *Society and Economy in Egypt and the Eastern Mediterranean, 1600–1900: Essays in Honour of André Raymond,* edited by Nelly Hanna and Raouf Abbas, 181–200. Cairo: American niversity in Cairo Press, 2005.
- Agoston, Gabor, and Bruce Masters. *Encyclopedia of the Ottoman Empire*. New York: Facts on File, 2009.
- Alavi, Seema. "Colonizing the Body?" In *Different Types of History*, edited by Bharati Ray, 126–28. Delhi: Pearson Education India, 2012.
- Amin, Samir, Colonialism and the Rise of Capitalism: A Comment." *Science & Society* 54, no. 1 (Spring 1990): 67–72.
- —. *Global History: A View from the South.* Cape Town: Pambazuka Press, 2011.
- Aries, Philippe. "Introduction." In *A History of Private Life, Passions of the Renaissance*, translated from French by Arthur Goldhammer, edited by Roger Chartier, 1–11. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1989.
- Armanios, Febe. "Christian Copts in Ottoman Egypt: Religious Worldview and Communal Beliefs." PhD diss., The Ohio State University, 2003.
- *Arrêt du Conseil d'État du Roi qui accorde divers privilèges et exemptions à la manufacture royale de Saint Chaumond, 21 décembre 1756.* Lyon: Imprimerie P. Valfray, Imprimeur du roi, 1757.
- Baber, Zaheer. *The Science of Empire: Scientific Knowledge, Civilization and Colonial Rule in India.* Albany: State University of New York Press, 1996.
- Badawi, M.M. "Medieval Arabic Drama: Ibn Daniyal." *Journal of Arabic Literature* 13 (1982): 83–107.
- Baer, Gabriel. *Egyptian Guilds in Modern Times*. Jerusalem: Israel Oriental Society, 1964.
- —. Monopolies and Restrictive Practices of Turkish Guilds." *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 13, no. 1 (April 1970): 145–65.

- ——. "The Waqf as a Prop for the Social System (Sixteenth to Twentieth Centuries)." *Islamic Law and Society* 4, no. 3 (1997): 264–97.
- Baillot, Louis. *Nouveau Manuel du Teinturier*. Paris: Bachelier Libraire, 1819.
- Baker, Patricia L. *Islamic Textiles*. London: British Museum Press, 1995.
- Barendse, R.J. *The Arabian Sea: The Indian Ocean World of the Seventeenth Century*. New York: Sharpe Inc., 2002.
- Baskerville, John Cornelius. "From Tahdhiib al-Amma to Tahmiish al-Ammiyya: In Search of Social and Literary Roles for Standard and Colloquial Arabic in Late Nineteenth-century Egypt." PhD diss., University of Texas, 2009.
- Bauer, Thomas. "Mamluk Literature: Misunderstandings and New Approaches." *Mamluk Studies Review* 9, no. 2 (2005): 105–32.
- Bayly, Christopher A. *The Birth of the Modern World, 1780–1914*. Oxford: Blackwell, 2004.
- Beaulieu (specialiste des toiles peintes). *L'art de peindre et d'imprimer les toiles en grand et en petit teints*. Paris: Chez Goeury, An VIII/1800.
- Behrens Abuseif, Doris. "Craftsmen, Upstarts and Sufis in the Late Mamluk Period." *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 74, no. 3 (October 2011): 375–95.
- ——. "Une polemique anti-ottomane par un artisan au Caire au XVIIe siecle." In *Études sur les villes du Proche-Orient, XVI–XIXe siècles: Hommage à André Raymond*, edited by Brigitte Marino, 55–63. Damascus: IFEAD, 2001.
- Ben Zaken, Avner. *Cross-Cultural Scientific Exchanges in the Eastern Mediterranean, 1560–1660*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2010.
- Berg, Maxine. *The Age of Manufactures, 1700–1820: Industry, Innovation and Work in Britain*. 2nd ed. London: Taylor and Francis Library, 2005.
- Bertrand, Jean-Elie. *Description des arts et métiers*. Vol. 3. Neuchatel: Imprimerie de la Societe typographyque, 1775.

- Bertrand, Romain. *L'Histoire à parts égales: Récits d'une rencontre Orient– Occident (XVIe–XVIIe siècle).* Paris: Editions du Seuil, 2011.
- Blais, Helene. "Les enquetes des cartographes en Algerie ou les *ambigüités* de l' usage des savoirs vernaculaires en situation colonial." *Revue d'histoire moderne et contemporaine* 54, no. 4 (Oct.–Dec. 2007): 70–85.
- Blanchi, Monsieur, et al. *Dictionnaire du commerce et des marchandises contenant tout ce qui concerne le commerce de terre et de mer.* Vol. 2. Paris: Guillaumin et Cie, 1839.
- Blanqui, Adolph Jerome. *Dictionnaire du commerce et de l'industrie.* Vol. 1. Brussels: Imprimerie A. Cauvin, 1837.
- Blaut, James M. "Diffusionism: A Uniformitarian Critique." *Annals of the Association of American Geographers* 77, no. 1 (March 1987): 30–47.
- Braudel, Fernand. *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II.* Vol. 2. Translated by Sian Reynolds. Berkeley: University of California Press, 1995.
- Broemer, Raimer. "Scientific Practice, Patronage, Salons and Enterprise in Eighteenth-century Cairo: Examination of al-Gabarti' s History of Egypt." In *Multicultural Science in the Ottoman Empire*, edited by Ekmeleddin Ihsanoglu, Kostas Çhatzis, and Efthymios Nicolaidis, 107–20. Turnhout, Belgium: Brepols, 2003.
- Brugman, J. *An Introduction to the History of Modern Arabic Literature in Egypt.* Leiden: Brill, 1984.
- —. *Modern Arabic Poetry, 1800–1970: The Development of Its Forms and Themes.* Leiden: Brill, 1976.
- Bulut, Mehmet. "The Role of the Ottomans and the Dutch in the Commercial Integration between the Levant and the Atlantic in the Seventeenth Century." *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 45, no. 2 (2002): 197–230.
- Burrows, Mathews. "*Mission Civilisatrice*: French Cultural Policy in the Middle East, 1860–1914." *The Historical Journal* 29, no. 1 (1986): 109–35.

- Carboni, Stefano. *Venice and the Islamic World, 828–1979*. Gallimard, France: Metropolitan Museum of Art, 2007.
- Casale, Giancarlo. *The Ottoman Age of Exploration*. New York: Oxford University Press, 2010.
- Chalcraft, John. "The End of Guilds in Egypt: Restructuring Textiles in the Long Nineteenth Century." In *Crafts and Craftsmen of the Middle East: Fashioning the Individual in the Muslim Mediterranean*, edited by Randi Deguilhem and Suraiya Faroqhi, 338–67. London: IB Tauris, 2005.
- Champon, M. *Le Commerce de l'Amérique par Marseilles*. Vol. 2. Avignon, 1764.
- Chaptal, Jean-Antoine-Claude. *Chimie appliquée aux arts*. Vol. 4. Paris: Imprimerie de Crapelet, 1807.
- Chih, Rachida, and Catherine Mayeur-Jouen. "Le soufisme ottoman: Mise en perspective des enjeux historiographiques." In *Le Sufisme à l'époque ottomane*, edited by Rachida Chih and Catherine Mayeur-Jouen, 1–55. Cairo: IFAO, 2010.
- Clot Bey, A.B. *Aperçu général sur l'Égypte*. Vol. 1. Brussels: Societe Belge de Librairies, 1840.
- —. *Aperçu général sur l'Égypte*. Vol. 2. Brussels: Haumon et Cie., 1840.
- Cohen, Amnon. *The Guilds of Ottoman Jerusalem*. Leiden: Brill, 2001.
- Cohen, H. Floris. "Review Essay." In "From West to East, from East to West? Early Science between Civilizations." *Early Science and Medicine* 17 (2012): 339–50.
- Colin, Auguste. "Lettres sur l' Egypte: Industries manufacturieres." *Revue des Deux Mondes* 14, no. 4 (1838): 517–31.
- Conermann, Stephan, and Tilman Seindensticker, "Some Remarks on Ibn al-Tawq' s (d. 905/1509) Journal, *al-Ta'liq*, Vol. 1 (885/1480–890/1485)." *Mamluk Studies Review* 11, no. 2 (2007): 121–35.
- Connor, Clifford D. *A People's History of Science: Miners, Midwives and "Low Mechanicks."* New York: Nation Books, 2005.
- Coulson, Noel. "Muslim Custom and Case Law." *Die Welt des Islam*. n.s. 6, 1, no. 2 (1959): 13–24.

- Crouzet, François. "France." In *The Industrial Revolution in National Context: Europe and the USA*, edited by Mukilas Teich and Roy Porter, 36–63. Cambridge: Cambridge University Press, 1996.
- Crozet, Pascal. *Les Sciences modernes en Égypte, transfert et appropriation, 1805–1902.* Paris: Guethner, 2008.
- Cuno, Kenneth M. "Ideology and Juridical Discourse in Ottoman Egypt: The Use of the Concept of *Irsad*." *Islamic Law and Society* 6, no. 2 (1999): 136–63.
- al-Damurdashi. *Al-Damurdashi's Chronicle of Egypt, 1688–1755, al-Durra al-Musana fi Akhbar al-Kinana*, translated and annotated by Daniel Crecelius and Abd al-Wahhab Bakr. Leiden: Brill, 1991.
- Dana, Jean-Pierre-Marie. "Observations sur la preparation du carthame, ou safron batard, nomme le *linnée carthamus tinctirius*." In *Mémoire de l'Académie de Science à Turin, Année 1792 à 1800*. Vol. 6. Turin: Imprimerie Nationale, 1801.
- Davies, Humphrey, ed. *Yusuf al-Shirbini's* Kitab Hazz al-Quhuf bi-Sharh Qasid Abi Shaduf *(Brains Confounded by the Ode of Abu Shaduf Expounded*). Vol. 1. Leuven: Peeters, 2005.
- Delametherie, J.-Cl. *Journal de physique, de chimie, d'histoire naturelle et des arts*. Vol. 51. Paris: Chez Fuchs, 1800.
- Denon, Vivant. *Voyage dans la basse et haute Égypte pendant les campagnes du général Bonaparte*. Paris: Imprimerie Didot l' Aine, An X/1802.
- Descotils et Berthollet. "Observations sur les qualites tinctoriales du henneh." In *La Décade Égyptienne.* Vol. 2. An VII/1798.
- Diem, Werner. *Arabische amtliche Briefe des 10. bis 16. Jahrhunderts aus der Österreichischen Nationalbibliothek in Wien.* Wiesbaden: Harrassowitz, 1996.
- ——. *Arabische Privatbriefe des 9. bis 15. Jahrhunderts aus der Österreichischen Nationalbibliothek in Wien.* Wiesbaden: Harrassowitz, 1996.
- Doss, Madiha. "Military Chronicles of 17th-century Egypt as an Aspect of Popular Culture." In *Proceedings of the Colloquium on Logos, Ethos, Mythos in the Middle East and North Africa*, edited by K.

Devenyi and T. Ivanyi, 67–79. Budapest: Eotvos Lorand University Chair for Arabic Studies and Csoma de Kőrös Society, Section of Islamic Studies, 1996.

- —. "Reflections sur le debut de l' ecriture dialectique en Egypte." *Égypte/Monde Arabe* 27–28 (1996): 119–46.
- —. "Some Remarks on the Oral Factor in Arabic Linguistics." In *Dialectica Arabica: A Collection of Articles in Honour of the Sixtieth Birthday of Professor Heikki Palva*, 49–61. Helsinki: Finnish Oriental Society, 1995.
- Dumas, Jean-Baptiste. *Précis de l'art de la teinture*. Paris: Bechet Jeune, 1846.
- —. *Traité de chimie appliquée aux arts*. Vol. 8. Paris: Imprimerie Alexandre Bailly, 1846.
- DuPlessis, Robert. "Cotton Consumption in the Seventeenth and Eighteenth Century North Atlantic." In *The Spinning World: A Global History of Cotton Textiles, 1200–1850*, edited by Giorgio Riello and Prasannan Parthasarathi, 227–60. Oxford: Oxford University Press, 2009.
- Eldem, Edhem. "French Trade and Commercial Policy in the Levant in the Eighteenth Century." *Oriente Moderne Nuova Serie* 18, no. 79 (1999): 27–47.
- Establet, Colette, and Jean-Paul Pascual. "Les tissus dans les boutiques, les tissus dans les maisons: Damas vers 1700." *Rives nord-méditerrannéenes* 29 (2008): 107–24.
- —. *Des tissus et des hommes: Damas vers 1700*. Damascus: Institut francais du Proche-Orient, 2005.
- Fahmy, Ziad. *Ordinary Egyptians: Creating the Modern Nation through Popular Culture*. Palo Alto, CA: Stanford University Press, 2011.
- Fairlie, Susan. "Dyestuffs in the Eighteenth Century." *Economic History Review*, n.s., 17, no. 3 (1965): 488–510.
- Faroqhi, Suraiya. *Artisans and Empire: Crafts and Craftspeople under the Ottomans*. London: IB Tauris, 2011.
- —. "Declines and Revivals in Textile Production." In *Cambridge History of Turkey: The Later Ottoman Empire, 1603–1839*, edited by

Suraiya Faroqhi. Vol. 3, 356–75. Cambridge: Cambridge University Press, 2006.

- ——. "Immigrant Tradesmen as Guild Members, or the Adventures of Tunisian Fez-sellers in Eighteenth-century Istanbul." In *The Arab Lands in the Ottoman Era (1600–1900): In Honor of Caesar Farah*, edited by Jane Hathaway, 187–207. Minneapolis: Center of Early Modern History, 2009.
- ——. "Ottoman Cotton Textiles, 1500s to 1800: The Story of a Success That Did Not Last." In *The Spinning World: A Global History of Cotton Textiles, 1200–1850*, edited by Giorgio Riello and Prasannan Parthasarathi, 89–104. Oxford: Oxford University Press, 2009.
- ——. *The Ottoman Empire and the World around It.* London: I.B. Tauris, 2004.
- Figuier, Louis. *Les Merveilles de l'Industrie*. Paris: Furne, Jouvet et Cie, 1860.
- Flachat, Jean-Claude. *Observations sur le commerce et sur les arts.* Lyon: Chez Jacquenod pere et Rusand, 1766.
- Flachat, Stephane. *L'industrie: Recueil des traités élémentaires sur l'industrie française et étrangère.* Paris: Tenre et Dupuy, imprimeurs-editeurs, 1834.
- Fletcher, Joseph. "Integrative History: Parallels and Interconnections in the Early Modern Period, 1500–1800." *Journal of Turkish Studies* 9 (1985): 37–57.
- Frank, Andre Gunder. *ReOrient: Global Economy in the Asian Age.* Berkeley: University of California Press, 1998.
- Franz-Murphy, Gladys. "Arabic Papyrology and Middle Eastern Studies." *Middle East Studies Association Bulletin* 19, no. 1 (July 1985): 34–48.
- ——. "A Comparison of the Arabic and Earlier Egyptian Contract Formularies, Part I: The Arabic Contracts from Egypt, 3rd/9th–5th /11th Centuries." *Journal of Near-East Studies* 40, no. 3 (July 1981): 203–25.
- Furnari, Salvatore. *Traité pratique des maladies des yeux*. Paris: Chez J.-B. Bailliere, 1841.

- Gekas, Athanasios. "A Global History of Ottoman Cotton Textiles, 1600–1850." *EUI Working Papers*, No. 2007/30, European University Institute, 1–23. San Domenico di Fiesola, Italy: Badia Fiesolana, 2007.
- Geoffroy, Eric. "La 'seconde vague' : fin XIIIe siecle–XV siecle." In *Les Voies d'Allah, les orders mystiques dans le monde musulman des origins à aujourd'hui,* edited by Alexandre Popovic and Gilles Veinstein, 55–67. Paris: Fayard, 1996.
- —. *Le soufisme en Égypte et en Syrie.* Damascus: Institut francais de Damas, 1996.
- Gerber, Haim. *Islamic Law and Culture 1600–1840.* Leiden: Brill, 1999.
- Gervase Clarence-Smith, William. "Technological and Scientific Change in Early Modern Islam, 1450–1850." Paper given at the XIV International Economic History Congress, Helsinki, 2006.
- Gillow, John. *Textiles of the Islamic World.* London: Thames and Hudson, 2010.
- Girard, Pierre Simon. "Memoire sur l' agriculture, l' industrie et le commerce de l' Egypte." In *Description de l'Égypte, État Moderne.* Vol. 2, no. 1, 1–259. Paris: Panckoucke 1812; repub. as independent booklet: Paris: Imprimerie Royale, 1822.
- Goffman, Daniel. *The Ottoman Empire and Early Modern Europe.* Cambridge: Cambridge University Press, 2002.
- Goody, Jack. *The Theft of History.* Cambridge: Cambridge University Press, 2008.
- Gran, Peter. *Beyond Eurocentrism: A New View of World History.* Syracuse, NY: Syracuse University Press, 1996.
- —. *Islamic Roots of Capitalism: Egypt 1760–1840.* Cairo: American University in Cairo Press, 1999.
- Granger, M. *Relation du Voyage en Égypte par le Sieur Granger fait en 1730.* Paris: Chez Jacques Vincent, 1745.
- Grehan, James. "The Mysterious Power of Words: Language, Law and Culture in Ottoman Damascus (17th–18th Centuries)." *Journal of Social History* (Summer 2004): 991–1015.
- Grob, Eva Maria. *Documentary Arabic Private and Business Letters on Papyrus.* Berlin: de Gruyter, 2010.

- Gully, Adrian. "Epistles or Grammarians: Illustrations from the *insha* Literature." *British Journal of Middle East Studies* 23, no. 2 (Nov. 1996):147–66.
- Guo, Li. "Paradise Lost: Ibn Daniyal' s Response to Baybar' s Campaign against Vice in Cairo." *Journal of the American Oriental Society* 121, no. 2 (April–June 2001): 219–35.
- Hallaq, Wael. "A Prelude to Ottoman Reform: Ibn Abidin on Custom and Legal Change." In *Histories of the Modern Middle East: New Directions*, edited by Israel Gershoni, Y. Hakam Erdem, and Ursula Wokock, 37–62. Boulder, CO: Lynne Rienner, 2002.
- Hanna, Nelly. *Artisan Entrepreneurs in Cairo and Early Modern Capitalism (1600–1800)*. Syracuse, NY: Syracuse University Press, 2011.
- ——. "The Chronicles of Ottoman Egypt: History or Entertainment?" In *The Historiography of Islamic Egypt (c. 950–1800)*, edited by Hugh Kennedy, 237–50. Leiden: Brill, 2001.
- ——. "Guild Waqf between Religious Law and Common Law." In *Held in Trust*, edited by Pascale Ghazaleh, 165–89. Cairo: American University in Cairo Press, 2011.
- ——. "History from Below, Dictionary from Below." In *Innovations in Islam: Traditions and Contributions*, edited by Mehran Kamrava, 85–97. Los Angeles: University of California Press, 2011.
- ——. *In Praise of Books: A Cultural History of Cairo's Middle Class, 16th–18th Centuries*. Syracuse, NY: Syracuse University Press, 2003.
- ——. "Self Narratives in Arabic Texts 1500–1800." In *The Uses of First Person Writings: Africa, America, Asia, Europe*, edited by Francois-Joseph Ruggio, 139–54. Brussels: Peter Lang, 2013.
- Hasselquist, Frederic. *Voyage dans le Levant dans les années 1749, 1750, 1751, et 1752*. Paris: Chez Saugrain le jeune, 1769.
- Hilaire-Perez, Liliane. "Cultures pratiques et techniques de l' echange entre Lyon et le Levant: inventions et reseaux au XVIIIe siecle." *Revue d'histoire moderne et contemporaine* 49, no. 1 (2002): 89–114.

- —. "Transferts technologiques, droit et territoires: le cas franco-anglais au XVIIIe siecle." *Revue d'histoire moderne et contemporaine* 44, no. 4 (Oct.–Dec. 1997): 547–79.
- Holt, Peter. "The Career of Kucuk Muhammad (1676–1694)." *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 26, no. 2 (1963): 269–87.
- —. "Ottoman Egypt (1517–1798): An Account of Arabic Historical Sources." In *Political and Social Change in Modern Egypt*, edited by P.M. Holt, 3–12. London: Oxford University Press, 1968.
- Huff, Toby E. *Intellectual Curiosity and the Scientific Revolution: A Global Perspective*. Cambridge: Cambridge University Press, 2011.
- —. *The Rise of Early Modern Science: Islam, China, and the West*. 2nd ed. Cambridge: Cambridge University Press, 1993, 2003.
- Humbert, Jean-Marcel. *Égyptomanie: la passion de l'Égypte*. Paris: Les Musees de la ville de Paris, 2000.
- —. *L'Égyptomanie: sources, thèmes et symboles, étude de la réutilisation des thèmes décoratifs empruntés à l'Égypte ancienne*. Paris: ANRT, 1990.
- Hunt, Janin. *The Pursuit of Learning in the Islamic World, 610–2003*. Jefferson, NC: McFarland, 2005.
- Ilardi, Vincent. *Renaissance Vision from Spectacles to Telescopes*. Philadelphia: American Philosophical Society, 2007.
- Inalcik, Halil. "Capital in the Ottoman Empire." *The Journal of Economic History* 29, no. 1 (March 1969): 97–140.
- —. *An Economic and Social History of the Ottoman Empire*. Vol. 1, *1300– 1600*. Cambridge: Cambridge University Press, 1994.
- —. "Kutn: In the Ottoman Empire." In *Encyclopedia of Islam*. Vol. 5. 2nd ed. Edited by P. Bearman et al., 557–66. Leiden: Brill, 1982.
- al-Jabarti. *Abd al-Rahman al-Jabarti's History of Egypt*, Ajaib al-Athar fi' l Tarajim wa' l-Akhbar, edited by Thomas Philipp and Moshe Perlmann, vol. 1, 664–65. Stuttgart: Franz Steiner Verlag, 1994.
- Jaubert, Pierre. *Dictionnaire raisonné universel des arts et des métiers*. Vol. 4. Lyon: Chez Amable Leroy, 1801.

- Johansen, Baber. *The Islamic Law on Land Tax and Rent*. London: Croom Helm, 1988.
- Johnson, Gordon, David Arnold, C.A. Bayly, John F. Richards, Stewart Gordon, Oı ı Prakash, Susan Bayly, and David Ludden. "Introduction: Science, Colonialism, and Modernity." In *The New Cambridge History of India, Science, Technology, and Medicine in Colonial India.* Vols. 3–5. Edited by Gordon Johnson et al. 1–8. Cambridge: Cambridge University Press, 2000.
- Jomard, Edme Francois. "Description de la ville et de la citadelle du Kaire." In *Description de l'Égypte, état moderne*, vol. 1, 113–509. Paris: Imprimerie Panckoucke, 1829.
- Ibn Sudun. *Bringing a Laugh to a Scowling Face: A Study and Critical Edition of the* Nuzhat al-nufus wa-mudhik al-a 'bus, edited by Arnoud Vrolijk. Leiden: School of Asian, African and Amerindian Studies, 1998.
- Katsiardi-Hering, Olga. "The Allure of Red Cotton Yarn and How It Came to Vienna: Associations of Greek Artisans and Merchants Operating between the Ottoman and the Hapsburg Empires." In *Merchants inthe Ottoman Empire,* edited by Suraiya Faroqhi and Gilles Veinstein, 97–131. Paris and Louvain: Peeters, 2008.
- Kelly, Catherine. "Medicine and the Egyptian Campaign: The Development of the Military Medical Officer during the Napoleonic Wars c. 1798–1801." *Canadian Bulletin of Medical History* 27, no. 2 (2010): 321–42.
- Keyder, Caglar. "Creation and Destruction of Forms of Manufacturing: The Ottoman Example." In *Between Development and Underdevelopment, 1800–1870,* edited by Jean Batou, 157–79. Geneva: Center for International Economic History, 1991.
- Khalidi, Tarif. *Arab Historical Thought in the Classical Period.* Cambridge: Cambridge University Press, 1996.
- Kucukkalay, A. Mesud. "Imports to Smyrna from 1792 to 1804: New Statistics from the Ottoman Sources." *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 51, no. 3 (2008): 487–512.

- Kucukkalay, A. Mesud, and Numan Elibol. "Ottoman Imports in the Eighteenth Century: Smyrna (1771–72)." *Middle Eastern Studies* 42, no. 5 (Sept. 2006): 723–40.
- Kuran, Timur. *The Great Divergence: How Islamic Law Held Back the Middle East.* Princeton, NJ: Princeton University Press, 2011.
- —. "Islam and Underdevelopment: An Old Puzzle Revisited." *Journal of Institutional and Theoretical Economics* 151, no. 1 (March 1997): 41–71.
- Labouchere, Alfred. *Oberkampf, 1738–1815.* Paris: Librairie Hachette, 1866.
- Landes, David. *Prometheus Unbound: Technological Change and Industrial Development in Western Europe from 1750 to the Present.* Cambridge: Cambridge University Press, 2003.
- —. *The Unbound Prometheus: Technological Change and Industrial Development in Western Europe from 1750 to the Present.* Cambridge: Cambridge University Press, 1969.
- Larkin, Marguerite. "Popular Poetry in the Post-Classical Period." In *The Cambridge History of Arabic Literature.* Vol. 6. *Arabic Literature in thePost-Classical Period,* edited by Roger Allen and D.S. Richards, 191–210. Cambridge: Cambridge University Press, 2006.
- Lehning, James. *Peasant and French: Cultural Contact in Rural France during the Nineteenth Century.* Cambridge: Cambridge University Press, 1995.
- Lellouch, Benjamin. "Le telephone arabe au Caire au lendemain de la conquete ottomane: on-dits et rumeurs dans Ibn Iyas." *Revue du monde musulman et de la Méditerranée,* 75–76 (1995): 117–30.
- Lemire, Beverly, and Giorgio Riello. "Textile and Fashion in Early Modern Europe." *Journal of Social History* 41, no. 1 (2008): 887–916.
- Leuchs, Johann Carl. *Traité complet des propriétés, de la préparation et de l'emploi des matières tinctoriales et des couleurs.* Paris: Imprimerie Fournier, 1829.
- Levi, Scott Cameron. *The Indian Diaspora in Central Asia and Its Trade, 1550-1900.* Leiden: Brill, 2001.

- Libson, Gideon. "On the Development of Custom as a Source of Law in Islamic Law." *Islamic Law and Society* 4, no. 2 (1997): 131–55.
- Little, Donald. "Mujir al-Din al- 'Ulaymi' s Vision of Jerusalem in the Ninth/ Fifteenth Century." *Journal of the American Oriental Society* 115, no. 2 (April–July 1995): 237–47.
- Lobligeois, Mireille. "Ateliers publics et filatures privees a Pondichery après 1816." *Bulletin de l'École française d'Extrême-Orient* 59 (1972): 3–100.
- Long, Pamela O. *Artisan/Practitioners and the Rise of the New Sciences, 1400– 1600.* Corvallis, OR: Oregon State University Press, 2011.
- Lowengard, Susan. "Colours and Colour-Making in the Eighteenth Century." In *Consumers and Luxury: Consumer Culture in Europe, 1650– 1850*, edited by Maxine Berg and Helen Clifford, 103–18. Manchester: Manchester University Press, 1999.
- ——. *The Creation of Colour in Eighteenth-century Europe*. New York: Columbia University Press, 2006.
- Mackie, Louise. "Towards an Understanding of Mamluk Silks: National and International Connections." *Muqarnas* 2 (1984): 127–46.
- Macquer, Pierre Joseph. *Dictionnaire de Chimie contenant la Théorie et la Pratique de cette science*. Vol. 1. Paris: Imprimerie de Monsieur, 1778.
- de Maillet, Benoit. *Description de l'Égypte . . . composé sur les mémoires de M. de Maillet, ancien consul de France au Caire, par M. l'Abbé Le Mascrier.* Paris: Chez Louis Genneau et Jacques Rollin, 1735.
- Mandaville, Jon. "The Ottoman Court Records of Syria and Jordan." *Journal of the American Oriental Society* 86, no. 3 (July–Sept. 1966): 311–19.
- ——. "Usurious Piety: The Cash Waqf Controversy in the Ottoman Empire." *International Journal of Middle East Studies* 10, no. 3 (Aug. 1979): 289–308.
- Mann, Michael. " 'Torch Bearers Upon the Path of Progress,' Britain' s Ideology of a Moral and Material Progress in India: An Introductory Essay." In *Colonialism as a Civilizing Mission: Cultural*

Ideology in British India, edited by Harald Fischer-Tine and Michael Mann, 4–10. London: Anthem Press, 2004.
- Maskiell, Michelle. "Consuming Kashmir: Shawls and Empire, 1500–2000." *Journal of World History* 13, no. 1 (Spring 2002): 27–65.
- Masters, Bruce. "The View from the Province: Syrian Chronicles of the Eighteenth Century." *Journal of the American Oriental Society* 114, no. 3 (July–Sept. 1994): 353–62.
- Mayeur-Jouen, Catherine, and Nicolas Michel. "Cheikhs, *zawiyas* et confreries du Delta central: un paysage religieux autour du XVIe siecle." In *Sociétés rurales ottomanes*, edited by Muhammad Afifi, Rachida Chih, Brigitte Marino, Nicolas Michel, and Isik Tamdogan, 139–62. Cairo: IFAO, 2005.
- "Memoire sur l' ophthalmie endemique en Egypte." In *Description de l'Égypte*. Vol. 13. *État Moderne*. 2nd ed., 36–50. Paris: Panckoucke, 1823.
- Michel, Nicolas. "Langues et ecritures des papiers publics dans l' Egypte ottoman." *Égypte/Monde Arabe* 27–28 (1996): 157–84.
- Mitchell, Timothy. "The State of Modernity." In *Questions of Modernity*, edited by Timothy Mitchell, 2–3. Toronto: University of Toronto Press, 1994.
- Moreh, Shmuel. *Studies in Modern Arabic Prose and Poetry*. Leiden: Brill, 1987.
- Morray, David. *An Ayyubid Notable and His World: Ibn al-Adim and Aleppo as Portrayed in His Biographical Dictionary of People Associated with the City*. Leiden: Brill, 1994.
- Mortel, Richard. "The Decline of Mamluk Civil Bureaucracy in the Fifteenth Century: The Career of Abul-Khayr al-Nahhas." *Journal of Islamic Studies* 6, no. 2 (1995): 173–88.
- Mugglestone, Lynda. "The Rise of Received Pronunciation." In *A Companion to the History of the English Language*, edited by Haruko Momma and Michael Matto, 243–50. Chichister: Blackwell, 2008.
- Mungello, D.E. *The Great Encounter of China and the West 1500–1800*. Lanham, MD: Rowman and Littlefield, 2013.

- Nicholson, William, ed. *Journal of Natural Philosophy, Chemistry and the Arts.* Vol. 4. Printed for the author by London: Stratford, Crowncourt, and Temple Bar, 1801.
- Nieto-Galan, Agusti. "Between Craft Routines and Academic Rules: Natural Dyestuffs and the 'Art' of Dyeing in the Eighteenth Century." In *Materials and Expertise in Early Modern Europe: Between Market and Laboratory*, edited by Ursula Klein and E.C. Spary, 321–53. Chicago: University of Chicago Press, 2010.
- O' Reilly, R. *Essai sur le blanchiment, avec la description de la nouvelle méthode.* Paris: Chez Deterville, An IX/1801.
- Owen, Roger. *Cotton and the Egyptian Economy, 1820–1914: A Study in Trade and Development.* Oxford: Clarendon, 1969.
- Palva, Heikki. "Linguistic Notes on a Dialectical 17th–18th Century Egyptian Arabic Narrative." *Oriente Moderne*, n.s. 80 (2000): 83–97.
- Pamuk, Sevket. "Institutional Change and the Longevity of the Ottoman Empire, 1500–1800." *Journal of Interdisciplinary History* 35, no. 2 (Autumn 2004): 225–47.
- —. *A Monetary History of the Ottoman Empire.* Cambridge: Cambridge University Press, 2000.
- Pamuk, Sevket, and Jeffrey Williamson. "Ottoman De-industrialization 1800–1913: Assessing the Magnitude, Impact and Response." *The Economic History Review* 64, S1 (Feb. 2011): 159–84.
- Parker, Charles. *Global Interactions in the Early Modern Age, 1400–1800.* Cambridge: Cambridge University Press, 2010.
- Parthasarathi, Prasannan. *The Transition to a Colonial Economy: Weavers, Merchants, and Kings in South India, 1720–1800.* Cambridge: Cambridge University Press, 2001.
- —. *Why Europe Grew Rich and Asia Did Not: Global Economic Divergence, 1600–1850.* New York: Cambridge University Press, 2011.
- Parthasarathi, Prasannan, and Giorgio Riello. "Introduction: Cotton Textiles and Global History." In *The Spinning World: A Global History of Cotton Textiles, 1200–1850*, edited by Giorgio Riello and Prasannan Parthasarathi, 1–13. Oxford: Oxford University Press, 2009.

- Peled, M. "Nodding the Necks: A Literary Study of Shirbini' s "Hazz al-Quhuf." *Die Welt des Islam*, n.s. 26, nos. 1-4 (1986): 57-75.
- Peltier, Jean-Gabriel. *Paris pendant l'année 1800*. Vol. 28. London: Imprimerie T. Baylis, 1800.
- Perlin, Frank. "Monetary Revolution and Societal Change in the Late Medieval and Early Modern Times: A Review Article." *The Journal of Asian Studies* 45, no. 5 (Nov. 1986): 1037-49.
- Petry, Carl. *Protectors or Praetorians: The Last Mamluk Sultans and Egypt's Waning as a Great Power*. Albany, NY: State University of New York Press, 1994.
- Peuchet, Jacques. *Bibliothèque commercial*. Vol. 2. Paris: Chez Buisson, 1803.
- —. *Dictionnaire universel de la géographie commerçante*. Vol. 5. Paris: Chez Blanchon, An VIII/1800.
- Piesse, Louis. *Itinéraire historique et descriptif de l'Algérie, comprenant le Tell et le Sahara*. Paris: Imprimerie de Ch. Lahure, 1862.
- Le Pileur d' Apligny. *L'art de la teinture des fils et des étoffes de coton précédés d'une théorie*. Paris: Chez Moutard, Libraire de la Reine, Quai des Augustins, 1776.
- Pireto, Andres I. *Missionary Scientists: Jesuit Science in Spanish South America, 1570–1810*. Nashville, TN: Vanderbilt University Press, 2011.
- de la Platiere, Roland. *Encyclopédie méthodique: Manufactures, arts et métiers*. Vol. 1. Paris: Panckoucke, 1785.
- Pollock, Sheldon. "Cosmopolitan and Vernacular in History." *Public Culture* 12, no. 3 (2000): 591-625.
- —. "The Cosmopolitan Vernacular." *The Journal of Asian Studies* 57, no. 1 (Feb. 1998): 6-37.
- —. "The Language of Science in Early Modern India." In *Forms of Knowledge in Early Modern Asia*, edited by Sheldon Pollock, 19-48. Durham, NC: Duke University Press, 2011.
- Pomeranz, Kenneth. *The Great Divergence: China, Europe and the Making of the Modern World Economy*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2000.

- Rafeq, Abdul-Karim. "Craft Organization, Work Ethics, and the Strains of Change in Ottoman Syria." *Journal of the American Oriental Society* 111, no. 3 (July–Sept. 1991): 495–511.
- —. "The Economic Organization of Cities in Ottoman Syria." In *The Urban Social History of the Middle East, 1750–1950*, edited by Peter Sluglett, 104–22. Syracuse, NY: Syracuse University Press, 2008.
- Raj, Kapil. "Colonial Encounters and the Forging of New Knowledge and National Identities: Great Britain and India, 1760–1850." *Osiris*, 2nd ser., 15 (2000): 119–34.
- —. *Relocating Modern Science: Circulation and the Construction of Knowledge in South Asia and Europe, 1650–1900.* London: Palgrave, 2007.
- Rapp, Richard. "The Unmaking of the Mediterranean Trade Hegemony: International Trade Rivalry and the Commercial Revolution." *The Journal of Economic History* 35, no. 5 (1975): 499–525.
- Rashed, Roshdi. *The Development of Arabic Mathematics: Between Arithmetic and Algebra.* Dordrecht, Netherlands: Kluwer Academic Publishers, 1994.
- Raveaux, Olivier. "A la facon du Levant et de Perse' : Marseilles et la naissance de l' indiennage europeen, 1648–1689." In *Rives nordméditerranéennes*: "Les textiles en Mediterranee (XVe–XIXe siecle)." http://rives.revues.org/document1303.html
- —. "The Birth of the Calico Printing in Europe: The Case of Marseilles (1648–1692)." Paper presented at the GEHN conference "Global Histories of Economic Development: Cotton Textiles and Other Global Industries in the Early Modern Period." Fondation Les Treilles, March 2006.
- —. "Spaces and Technologies in the Cotton Industry in the Seventeenth and Eighteenth Centuries: The Example of Printed Calicoes in Marseilles." *Textile History* 36, no. 2 (Nov. 2005): 131–45.
- Raymond, Andre. *Artisans et commerçants au Caire au XVIIIe siècle.* 2 vols. Damascus: Institut francais de Damas, 1974.

- —. "Une liste des corporations de metiers au Caire en 1801." *Arabica* 4, no. 2 (May 1957): 150–63.
- Reichmuth, Stefan. *The World of Murtada al-Zabidi (1732–91): Life, Networks and Writing.* Oxford: Gibb Memorial Trust, 2009.
- Richards, John F. "Early Modern India and World History." *Journal of World History* 8, no. 2 (Fall 1997): 197–209.
- Riello, Giorgio. *Cotton: The Fabric That Made the Modern World.* Cambridge: Cambridge University Press, 2013.
- —. "The Globalization of Cotton Textiles: Indian Cottons, Europe, and the Atlantic World, 1600–1850." In *The Spinning World: A GlobalHistory of Cotton Textiles, 1200–1850*, edited by Giorgio Riello and Prasannan Parthasarathi, 261–87. Oxford: Oxford University Press, 2009.
- Riello, Giorgio, and Tirthankar Roy. "Indian Textiles, Indian Ocean, and the World Economy." In *How India Clothed the World: The World of South Asian Textiles, 1500–1850*, edited by Giorgio Riello and Tirthankar Roy, 1–30. Leiden: Brill, 2009.
- Robinson, Chase. *Islamic Historiography.* Cambridge: Cambridge University Press, 2003.
- Rosenthal, Franz. *History of Muslim Historiography.* Leiden: Brill, 1968.
- Roubaud, Pierre Joseph Andre. *Histoire générale de l'Afrique, de l'Asie et de l'Amérique.* Vol. 9. Paris: Chez des Ventes de la Doue, 1771).
- Sajdi, Dana. "A Room of His Own: The 'History' of the Barber of Damascus (fl. 1762)." *MIT Electronic Journal of Middle East Studies* 3 (Fall 2003): 19–35.
- Saliba, George. *Islamic Science and the Making of the Renaissance.* Cambridge, MA: MIT Press, 2007.
- Savage-Smith, Emilie. "Islam." In *The Cambridge History of Science,* Vol. 4, *Eighteenth-Century Science*, edited by Roy Porter, 648–86. Cambridge: Cambridge University Press, 2003.
- Scheffer, M. *Essai sur l'art de la teinture.* Paris: Chez Goeury, 1803.
- Secord, James A. "Knowledge in Transit." *Isis* 95, no. 4 (Dec. 2004): 654–72.

- Singh, Nagendra Kr., and A. Samiuddin, eds. *Encyclopedic Historiography of the Muslim World.* Vol. 1. Delhi: Global Vision, 2003.
- Smith, Pamela. *The Body of the Artisan: Art and Experience in the Scientific Revolution.* Chicago: University of Chicago Press, 2004.
- Sonnini, Charles Sigisbert. *Voyage dans la Haute et Basse Égypte.* Vol. 1. Paris: F. Buisson, An VII/1799.
- Soravia, Bruna. "Les manuels a l' usage des fonctionnaires de l' administration ("Adab al-Katib") dans l' Islam classique." *Arabica* 52, no. 3 (July 2005): 417–36.
- Stern, Steve. "Feudalism, Capitalism and World System in the Perspective of Latin America and the Caribbean." *American Historical Review* 94, no. 4 (Oct. 1988): 829–72.
- Thackeray, Frank W., and John E. Findling, eds. *Events that Formed the Modern World,* Vol. 1, *From the European Renaissance through the Sixteenth Century.* Santa Barbara, CA: ABC-CLIO, 2012.
- de Thevenot, Jean. *Suite du Voyage de M. de Thevenot au Levant.* Paris: Chez Charles Angot, 1689.
- Thompson, E.P. *The Making of the English Working Class.* New York: Pantheon Books, 1964.
- Thompson, Jon. "Late Mamluk Carpets: Some New Observations." In *The Art of the Mamluks in Egypt and Syria: Evolution and Impact,* edited by Doris Behrens-Abouseif, 115–41. Bonn: Bonn University Press, 2012.
- Tresse, Rene. "Le Conservatoire des Arts et Metiers et la Societe d' encouragement de l' industrie nationale au debut du XIX siecle." In *Revue d'histoire des sciences et de leurs applications* 5, nos. 5–3 (1952): 246–64.
- Tucker, Judith. *In the House of the Law: Gender and Islamic Law in Ottoman Syria and Palestine.* Berkeley: University of California Press, 1998.
- Uthman, Naser. "La production textile a Rosette au XVIIIe siecle." *Rives Méditerranéennes* 29 (2008): 2–11.

- Van Berkel, Maaike. "A Well-mannered Man of Letters or a Cunning Accountant: Qalqashandi and the Historical Position of the *katib*." *Masaq: Islam and the Medieval Mediterranean* 13 (2001): 87–95.
- Vansleb, F. *The Present State of Egypt or a New Relation of a Late Voyage into that Kingdom Performed in the Years 1672 and 1673.* London: R.E. John Starkey, 1678. Repr. Westmead: Gregg International, 1972.
- Van Steenbergen, Jo. "Qalawunid Discourse, Elite Communication and the Mamluk Cultural Matrix: Interpreting a 14th-century Panegyric." *Journal of Arabic Literature* 43, no. 1 (2012): 1–28.
- Veinstein, Gilles. "Commercial Relations between India and the Ottoman Empire (Late Fifteenth to Late Eighteenth Century): A Few Notes and Hypothesis." In *Merchants, Companies, and Trade: Europe and Asia in the Early Modern Era*, edited by Suchil Chaudhury and Michel Morineau, 95–115. Cambridge: Cambridge University Press, 1999.
- Vitalis, J.B. *Manuel du Teinturier sur filé et sur coton filé*. Rouen: Chez Megard, 1810.
- Volney, Constantin-Francois. *Les oeuvres complètes de Volney.* Paris: Didot, 1838.
- ——. *Travels through Syria and Egypt in the Years 1783, 1784, and 1785.* 2 vols. Repub. Westmead: Gregg International, 1972.
- ——. *Voyage en Égypte et en Syrie pendant les années 1783, 1784, et 1785*. Vol. 2. Paris: Parmantier, 1825.
- de Vries, Jan. "The Industrial Revolution and the Industrious Revolution." *The Journal of Economic History* 54, no. 2 (June 1994): 249–70.
- Walker, Bethany J. "Rethinking Mamluk Textiles." *Mamluk Studies Review* 4 (2000): 167–217.
- Wallerstein, Immanuel. *The Modern World System.* Berkeley: University of California Press, 2011.
- Wansbrough, John. "A Mamluk Letter of 877/1473." *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 24, no. 2 (1961): 200–13.

- Washbrook, David. "From Comparative Sociology to Global History: Britain and India in the Pre-history of Modernity." *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 40, no. 4 (1997): 410–43.
- —. "A Global History of Modernity: A Response to a Reply." *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 41, no. 3 (1998): 295–311.
- —. "Merchants, Markets and Commerce in Early Modern Southern India." *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 53 (2010): 266–89.
- Williams, Eric. *Capitalism and Slavery*. Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press, 1944.
- Willis, John E. "European Consumption and Asian Production in the Seventeenth and Eighteenth Century." In *Consumption and the World of Goods*, edited by John Brewer and Roy Porter, 133–57. London: Routledge, 1993.
- Wolf, Eric. *Europe and the People without History*. Berkeley: University of California Press, 2010.
- Woodhead, Christine. "Reading Ottoman Sehnames: Official Historiography in the Late Sixteenth Century." *Studia Islamica* 104–105 (2007): 67–80.
- Yi, Eungeong. *Guild Dynamics in Seventeenth-century Istanbul: Fluidity and Leverage*. Leiden: Brill, 2004.
- Yildirim, Onur. "Transformation of the Craft Guilds in Istanbul (1650–1850)." *Islamic Studies* 40, no. 1 (Spring 2001): 49–66.
- Yusoff, Kamaruzaman. "An Overview of the Ms., 'The Paris Fragment,' on the History of Ottoman Egypt in the Seventeenth Century." *Islamic Quarterly* 48, no. 3 (2004): 222–37.
- —. "An Overview of the Ms. 'Zubdat Ikhtisar Tarikh Muluk Misr al-Mahrusa.' " *Islamic Studies* 41, no. 2 (Summer 2002): 319–33.
- Zack, Elisabeth. "Colloquial Arabic in the Seventeenth Century: Yusuf al-Magribi's Egyptian Arabic Word-List." In *Approaches to Arabic Dialects*, edited by Martine Haak, Rudolf de Jong, and Kees Versteegh, 373–90. Leiden: Brill, 2004.

- Zarinebaf, Fariba. "Ottoman Guilds and the State in Eighteenth-century Istanbul." Paper presented at the conference "The Rise and Decline of Imperial Leadership." Evanston, IL: Northwestern University, November 2007.
- Zubaida, Sami. *Law and Power in the Islamic World*. London: I.B. Tauris, 2003.

المؤلفة فى سطور:

نللى حنا

أستاذ متميز فى الجامعة الأمريكية – القاهرة. وهى اسم مرموق عالميا فى مجال الدراسات العثمانية، تعد دراساتها عن العصر العثمانى مرجعًا أساسيًا للمهتمين بهذه الفترة. ومن حسن الحظ أن معظم مؤلفاتها قد ترجمت إلى العربية، نذكر منها: تجار القاهرة، وثقافة الطبقة الوسطى القاهرية، وحرفيون ومستثمرون. ولا يقف دورها عند الكتابات الأكاديمية، بل ترعى باستمرار دعم شباب الباحثين المصريين وتشجيعهم وتفتح دائما منافذ للحوار والمناقشات، وتشكل جسرًا مهمًا لنقل أحدث الأعمال والدراسات فى هذا المجال إلى السياق المصرى وإدارة حوارات ومناقشات حوله.

المترجم فى سطور:

مجدى جرجس

أستاذ مساعد فى كلية الآداب - جامعة كفر الشيخ، له بعض الكتابات والأعمال عن العصر العثمانى، وعن منتج المحاكم الشرعية فى العصر العثمانى.

التصحيح اللغوى : محمود حنفى
الإشراف الفنى : حسن كامل